

مكتبة الدراسات الأدبية

٧٠

چورچ ديمتري سليتم

إيليا أبو ماضي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة



دارالمعارف

إِيلِيَا أَبُومَاضِي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة

مكتبة الدراسات الأدبية

٧٠

إيليا أبو ماضي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة

تأليف وجمع

جورج ديمتري سليم



دار المغارف بمطرب

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط ٲدبيل < mktba.net

الإهداء

إلى جوزيت

وإلى جبران ولورانس ومي

وإلى محبي الأدب المهجري

البَابُ الْأَوَّلُ

دراسات عنه

مقدمة الباب الأول

جمعت في هذا الكتاب - لتكون في متناول سهل - مقالات ونبذات لي عن المهجري أبي ماضي ، نشرتها «الأديب» و «النهار» البيروتيتان ، و «البيان» الكويتية ، وأضفت إليها قطعتين جديدتين : مقالا عن الطيار لندبرج ، وموجزاً مفصلاً لحياة أبي ماضي .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أتدارك القليل الذي سها على أوسها على الطبّاع لإثباته في حينه . ولن يهجم معرفة مكان وتاريخ نشر المقالات والنبذات ، أثبت البيان التالي ، وهو يطابق محتوى الكتاب :

- | | | |
|----|----------|--|
| ١ | «الأديب» | نوفمبر ١٩٧٢ ، ص ٢٢ - ٢٥ . |
| ٢ | «البيان» | أبريل ١٩٧٤ ، ص ٨٧ - ٩٠ . |
| ٣ | «البيان» | (أ) أغسطس ١٩٧٥ ، ص ٢٥ - ٢٩ .
(ب) أكتوبر ١٩٧٥ ، ص ٢٦ - ٣١ . |
| ٤ | «الأديب» | (أ) أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٢ - ٦ .
(ب) فبراير ١٩٧٥ ، ص ٣٠ - ٣٣ .
(ج) أغسطس ١٩٧٥ ، ص ٢ - ٥ . |
| ٥ | «النهار» | ١٩٧٤/١/٢٠ ، ص ٦ - ٧ من الملحق . |
| ٦ | «النهار» | ١٩٧٤/٦/١٦ ، ص ٦ - ٧ من الملحق . |
| ٧ | «الأديب» | (أ) يوليو ١٩٧٣ ، ص ٥٤ .
(ب) ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٥٤ - ٥٥ . |
| ٨ | «الأديب» | ديسمبر ١٩٧٤ ، ص ٢ - ٤ . |
| ٩ | «الأديب» | نوفمبر وديسمبر ١٩٧٥ ، ص ٥٨ . |
| ١٠ | «الأديب» | تحت الطبع |
| ١١ | | لم تنشر |

- ١٢ « البيان » نوفمبر ١٩٧٣ ، ص ٣٨ - ٤٠ .
 ١٣ « الأديب » (أ) نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٥٠ - ٥١ .
 (ب) مارس ١٩٧٢ ، ص ٥٩ .
 (ج) يناير ١٩٧٥ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

١٤ « البيان » تحت الطبع

١٥ لم ينشر

ختاماً ، أرجو أن أكون قد أسهمت إسهاماً إيجابياً متواضعاً في مجال دراسة
 الأدب العربي بكتاى هذا .

جورج ديمترى سليم

واشنطن العاصمة

شئاء ١٩٧٥ م

(١) حتى نفهم أبا ماضى

« ليس فى حياة أبى ماضى أثر ، أو مظهر لما تعود الناس رؤيته أو انتظاره فى حيوات الشعراء ، من « صخب » ، فقد مرت أيامه كلها على هذا الأديم ، دون حادثة أو تجربة غير عادية . لقد عاش وعمل وهاجر وتزوج ورزق أولاداً ، وكان موفقاً إلى حد بعيد ، فى معيشته وعمله وهجرته وزواجه وأولاده ^(١) . »

هكذا استهل عبد اللطيف شرارة دراسته التحليلية عن إيليا ظاهر أبى ماضى ، وهو حكم صحيح إذا كان مرجعه النظرة العابرة فى حياة الشاعر وأشعاره ، تلك النظرة التى تنتهى بتصويره لنا شاعراً ذا « فلسفة قائمة على المزاج » ، معرضة لما يتعرض له المزاج من تقلب واضطراب ^(٢) . »

ونحن نتساءل أصحیح أن يكون سر التناقض والاضطراب الذى أوصل أبا ماضى إلى التشكك والحيرة كامناً - كما يقول شرارة - « فى طبيعة فلسفته . . . وفى التحول العام الذى طرأ على البيئة التى كان يعيش فيها ، أى على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، فى سنى ما بعد الحرب الأولى ^(٣) » ؟ أم أن لهذا التناقض والاضطراب أسباباً أخرى أقوى لا دخل لمزاج أبى ماضى ولا للبيئة الأمريكية فيها ؟

كان أبو ماضى - كما يقول لنا عيسى إبراهيم الناعورى - « ضئيلاً جداً بالحديث عن نفسه وعن حياته . حتى إننى حينما أردت إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٥١ ، كتبت إليه أرجو أن يوافينى بموجز عن حياته . لأقدمه إلى القراء ، وبصورة له أنشرها فى الكتاب ؛ فكتب إلى - بعد انتظار غير قصير - يقول : يعز على وأنا أجيبك على رسالتك ألا يكون مع جواى رسم لى ، فإنى مهمل هذه الناحية كل الإهمال . أما سيرة حياتى فليس فيها ما يستحق النشر ، أو على الأقل هكذا أعتقد أنا ؛ إذ ليس فيها ما ينقع فضول أحد . ويتابع الناعورى حديثه فيقول : « وليس صحيحاً أن حياته ليس فيها ما ينقع فضول أحد ، فإنه لم

يصل إلى المتزلة التي وصل إليها إلا بجهاد عصامي طويل ، تقلب فيه على الشوك والجر والحرب طويلاً قبل أن يعرف جنباه الفراش المريح . أترأه كان ينجعل بجهاده هذا ، وهو مصدر فخر عظيم مثله ؟ ^(٤) » .

فالناعوري حين شرع في دراسة الشاعر — كما نرى — كان يدري أن هناك مؤثرات في حياة أبي ماضي جعلت منه هذا الشاعر الإنساني الكبير . لذلك حاول أن يتعرف عليها ويستقيها من الشاعر نفسه حتى تكون دراسته سليمة . ولكنه لم يوفق . وما كان هذا ليبرده عن محاولة أخرى هي فهم شاعره فهماً صحيحاً .

لم تكن حياة أبي ماضي كلها سعادة وهناء ، ولكنها كانت حياة متأرجحة بين السعادة حيناً والشقاء حيناً آخر . بل لعل الشقاء كان له الكفة الراجحة في حياته . لمست نادرة جميل سراج هذا في شاعرنا ، فقالت : « هو ، كما سبق أن قلت ، باسم مستبشر أمام الناس ، كئيب حزين في قرارة نفسه ، يظهر للملأ خلاف ما يبطن من هم وغم ، ولعمري إن في عمله هذا الإنسانية وكرم نفس وعلواً في الأخلاق والطباع ، وفيه في الوقت نفسه كبرياء واعتداد لا يستبعدان عن نفس شاعرة رقيقة كنفس إيليا . . . أى إثارة هذا الذي يدعو الشاعر إلى أن يسر عبرته حتى لتكاد تحرقه في جوفه ويلتهب بنارها جفناه خشية أن يسبب الملأ لمن معه ؟ ^(٥) » .

ووصف لنا إحسان عباس ومحمد يوسف نجم أبا ماضي في سياق تحليلهما لقصيدة « الشاعر والمالك الحائر » ، فكتبنا : « القصيدة تحمل صورة رومانطيقية في أكثر أجزائها ، فلم اختار أبو ماضي أن يكون واقعياً جداً في هذا الموقف؟ . . . وليس يعتذر عن هذا الخطأ أن يقال إن الشاعر (أبا ماضي) يريد أن يصور قوة الموت وجبروته ، وتساوى الناس أمامه ، فهذا موضوع مبتذل ، والتجديد فيه شاق ، وليس هو الموضوع الأساسي للقصيدة ، بل هذا خطأ آخر وقع فيه الشاعر ، الذي كان حائر النفس مسلوب الخاطر أمام الموت ، فانزلق الموضوع من يده نحو الموت وسطوته وجبروته . وهذا التحول بالموضوع جر وراءه أخطاء أخرى ، منها : أنه هون من شأن الخلود الذي أحرزه الشاعر ، ومنها أنه بسط سيطرة الموت على الطبيعة ، على الغاب ، على الصالح والطالح دون تمييز ، فأفقد الإنسان ثقته في كفاحه ، وأفقده ثقته في الطبيعة وكماها ^(٦) » .

نقرأ هذا التحليل فنعجب بالخللين إذ نجدهما قد تغلغلا في نفسية أبي ماضي وكشفاهما لنا ، ولم يكن هذا بالسهل ، وإن عجزا في الوقت نفسه عن تبين البواعث التي دفعت أبا ماضي إلى أن يكون له « نظرتة المفلسة القائمة على عجز الإنسان أمام الطبيعة »^(٧) .

لم يبق أمامنا إذن إلا الرجوع إلى الوراء وعرض أهم الأحداث التي وقعت لأبي ماضي في حياته ، تلك الأحداث التي ظلت مجهولة للآن والتي لا شك تلقي ضوءاً كافياً على أشعاره ، وتساعد على فهمه فهماً كما يجب .

هاجر إيليا محيثة لبنان إلى إسكندرية مصر عام ١٩٠٠ ، صبيّاً له من العمر أحد عشر عاماً ، فترعرع هناك بدنياً وأديباً وكان يبيع السجاير والدخان . وفجأة ، عام ١٩٠٩ ، يتوفى الله طانيوس ، رابع الإخوة ، وهو يجانب إيليا وفي ريعان الشباب ، فيتكفل هذا بدفته ويرثيه بقصيدة « البدر الآفل »^(٨) التي منها هذه الأبيات المتفرقة :

أبعدك يعرف الصبر الحزين	وقد طاحت بمهجته المنون؟
عجيب أن تعيش بنا الأمانى	وأنا للأمانى نستكين
وما أرواحنا إلا أسارى	وما أجسادنا إلا سجون
وما في الكون مثل الكون فان	كما تفتى الديار كذا القطرين
فيا لهنى لأملك حين يدوى	نعيك بعد ما طال السكون
ولطف شقيقك النائي بعيداً	إذا ما جاءه الخبر اليقين
ستبكيك الكواكب في الدياجى	كما تبكيك في الروض الغصون
ويبكي إخوة قد غبت عنهم	وأم تاكل وأب حزين

ونحن لا نعرف عن طانيوس شيئاً ، ولكننا نستطيع أن نقول بشئ من التأكيد إن وفاته كانت من الأسباب التي دفعت أخاه إيليا إلى التغرب ثانية . ففي العام التالى ، بعدما نشر هذا الأخير « ديوان تذكارات الماضى » ، سافر إلى أمريكا وحط رحاله في سنسنانى أوهايو قرب أخيه الأكبر مراد ، وكان هذا الأخ قد سبقه هناك منذ زمن . وفي هذه المدينة الجديدة بدأ أبو ماضي من جديد ، فقسم وقته بين تجارة السمانة

وبين النظم . وفظن أن الحياة سارت مسراها العادى حتى آخر مارس (آذار)
 ١٩١٦ عندما قدم مبرى (ديمترى) ، ثالث الإخوة ، إلى سنسناتى . ونحن لا نعلم
 كيف جاء مبرى ولماذا ، ولكن مراسل جريدة « السائح » النيويوركية ، فى عدد
 ١٩١٦/٤/٣ ، ص ٣ ، يخبرنا بأنه :

« لم يكن فى الحسبان أن يفاجئنا البرق بنجر ارتجت له الأبدان ألا وهو نعى
 المأسوف على صباه الغض المحروم مبرى ضاهر أبو ماضى شقيق صديقنا العزيزين
 مراد وإيليا فى سنسناتى أوهايو .

وجد الشاب الفقيد صريعاً فى غرفته فى سنسناتى التى كان قد قدم إليها قبل
 ثلاثة أيام . وكان أول من رآه على هذه الحالة رفيقه فى المنامة جورج ناصيف ، فدعا
 بعضهم من الشارع فرأوه ، وأسفاه عليه ، ممدداً لا حراك فيه ، وأثر الرصاص فى
 رأسه ، والمسدس على الأرض بقربه . فجاء الإخوان على الأثر والأصدقاء ، وبكوا
 الزهرة فى كمها ذابلة وما نفع البكاء !

مات الذكى الفؤاد والقوى الهمة غير متجاوز العشرين من عمره . مات غير آسف
 على دنيا كلها متاعب وأهوال ، كلها أحزان وويلات ، فتركها ساخرأ بها هازئاً
 بزخارفها ، ولكن — رحمه الله — لم يرحم مهجتي أخوين كان يحرسانه كحدقة العين ،
 ويدأبان فى إنجاحه ، ويسهران على حياته ، فتركهما رهن البكاء والعويل .

هذا ما ذكرته « السائح » ، أما « مرآة الغرب » النيويوركية الصادرة فى اليوم
 نفسه ، فتقول ، ص ٣ :

« وقد تعددت الإشاعات عن وفاة هذا الشاب الأديب النشيط ، ولكن الحقيقة
 لم تصل إلينا حتى الآن من شقيقيه المصابين بفقد جناحهما وعزيرهما الذى بالكاد
 يبلغ العشرين من عمره .

وفى بعض الإشاعات أن الشاب كان ميالاً إلى الانخراط فى السلك العسكرى
 فنع عنه ، ومن أجل ذلك انتحر . وهناك قوم يقولون إن فى فاجعته مكيدة من
 أعدائه ، على أننا فى شك من مثل هذا الخبر الأخير .

ويتابع مراسل « السائح » فى عدد ١٩١٦/٤/٦ ، ص ٣ ، سرد الحادث الأليم

فيقول : « جاء السبت (٤/١) وهو ميعاد دفن فقيد الشباب المرحوم مئرى أبى ماضى ، فصلى على الجثة كاهن لبوسكبالى . ونقلت إلى النعش المعد لنقلها ، فدرجت عربة النعش ووراءها عربات الأزهار المقدمة من الأصدقاء والمعارف فى سنسناى ، ثم عربات عديدة لجمهور غفير من معظم الوطنيين . وسار الموكب المؤثر ، إلى المدفن ، إلى المكان الأخير الذى يوضع فيه الفقيد . فأكمل الكاهن الصلاة . ووقف الشقيق الشاعر إيليا أبو ماضى عند القبر فرثى شقيقه بعبارات أثارت عواطف الحزن فى القلوب ، وبكاه بقصيدة بليغة من الدموع فأبكى الأحشاء على الشباب الذابل ، ثم عاد الجميع والحزن مالىء الصدور » .

لقد كانت الرزايا لأبى ماضى بالمرصاد وهو لا يدرى . فلما نزلت عليه هذه الفاجعة تشجع ، ووقف للمرة الثانية فى حياته عند قبر أخ أصغر ثمان ، وألقى ^(٩) :

لوعة فى الضلوع مثل جهنم	تركت هذه الضلوع رمادا
بت مرمى للدهر بى يتعلم	كيف يصمى القلوب والأكبدا
كيف ينجو فؤاده أو يسلم	من تمدادى به الأسى فتمادى ؟
أنا لولا الشعور لم أنألم	ليت هذا الفؤاد كان جمادا
كيف لا أبكى وفى العين دموع ؟	كيف لا أشكو وفى القلب صدوع ؟
قل فى الناس من صبر	مختارا

* * *

لحظة ثم صار ضحكى وجيبا	ونشيجاً ، والنوم صار سهادا
رب ، لما خلقت هذى الخطوبا	لم لم تخلق الحشى فولادا ؟
كلما قلت قد وجدت حبيباً	طلع الموت بيننا يتهادى
صرت فى هذه الحياة غريباً	ليت سهدى الطويل كان رقادا
فنجلد أيها القلب الجزوع	أو تدفق كلما شاء الولوع
عندما أو دما هدر	أو نارا

* * *

كان بين الكرى وبينى صلح فأراد القضاء أن نتعادى

لم أكد أدخل السواد وأصحو من ذهولى حتى لبست السوادا
 فى فؤادى ، لويعلم الناس ، جرح لا يُلأشى حتى يُلأشى الفؤادا
 يا خليلي ، هيهات ينفع نصح بعدما ضيع الحزين الرشادا
 أنت لا تستطيع لإحياء الصريع وأنا حمل الأسمى لا أستطيع
 ذا الذى صير الكدر أكدارا

ثم يذكر أخاه طانيوس فيقول :

يا ضريحاً على صفاف «الوادى» جاد من أجلك الغمام البلادا
 فيك أودعت منذ ست فؤادى وبرغى أطلت عنك البعادا
 غير أنى وإن عدتني العوادى ما عدتني بالروح أن أرتادا
 أنبتت حولك الزهور الغوادى واللىالى أنبتن حولي القتادا
 وذبول الغصن فى فصل الربيع لو رآه شجر الروض المريع
 جمد الماء فى الشجر محتارا

وتحرك هذه المأساة المؤلمة بعض الشعراء الأصدقاء أيضاً ، فينظم نعمة الحاج
 « إلى البلبل النائح »^(١١) ليعزى بها صديقه إيليا ، ويفتحها بهذا المقطع :

خل عنك النواح وانف عنك الكدر
 من تولى استراح من شقاء البشر
 فعلى الراقد الرقاد الطويلا رحمة الله بكرة وأصيلا
 ووداعاً قولوا ، وكفوا العويلا ذاك حكم القدر
 وينظم « غصن » صديق آخر هو فارس شلنك^(١٢) .

كان لابد بعد الذى كان أن يضيق إيليا بسنسناني كما ضاق بالإسكندرية
 من قبل ، فيتحين فرصة لهجرة ثالثة . وتأتيه الفرصة فى الصيف ، فينتقل إلى مدينة
 نيويورك على أثر دعوة من بعض الشباب العربى الفلسطينى يعهدون إليه بتحرير
 « المجلة العربية » التى كانوا يصدرونها هناك .

ولم يكن هذا الخطب الأليم هو الوحيد الذى تلقاه شاعرنا فى فترة الحرب
 العالمية الأولى ، أى ما بين يونيو (حزيران) ١٩١٤ ونوفبر (تشرين الثانى)

١٩١٨ . فقد قيل لنا إن إبراهيم ، خامس الإخوة ، توفي خلال هذه الحرب في المحيثة ، مسقط رأس الشاعر^(١٢) . ونحن لا نعرف بعد كيف ومتى توفي بالتمام ، وإن كنا نرجح أن وفاته كانت بعد أبريل (نيسان) ١٩١٦ . ولا شك أن هذه الوفيات المتتابعة في العائلة الماضية أثرت في نفس إيليا فنظم قصائد مثل « في عصر الرشيد » (١٩١٦) ، و « إذا مت » (١٩١٧) ، و « أنة نائح » (١٩١٨) (١٣) .

ولكن يظهر أن الدهر الذي عبس له زمناً ، وقسا عليه ، بدأ يتسم له ويرأف بحاله . فيفرح إيليا في الغربة عندما يخاطب دوروثي (دورا) ، ابنة نجيب موسى دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » النيويوركية ، في ١٥/٤/١٩١٨^(١٤) ، ثم عندما يقترن بها بعد سنتين ، في ٢٥/٤/١٩٢٠^(١٥) . ويفرح أيضاً عام ١٩٢١ ، عندما يصله من لبنان أن أخته الوحيدة جنى (أوجيني) ، صغرى الإخوة ، قد اقترنت بإبراهيم نعمة الخوري نعمة^(١٦) . ويرزق في العام التالي بـ « ريتشارد » ، أول أنجالة ، فيسر ، ويكتب إلى أمين الريحاني من نيويورك بتاريخ ٢٨/٢/١٩٢٢ : « أنا كما تركتني ، إلا أني صرت يوم الخميس الموافق ٢٣ شباط (فبراير) أباً ، وصارت زوجتي أمّاً . فقد رزقنا غلاماً هو عندي أجمل قصيدة نظمتها الحياة في حياتي^(١٧) » .

ويعمر عام تقريباً يحىء بعده ربيع ١٩٢٣ بغير المنتظر . أخته أوجيني التي كانت تملأ قلبه وقلب مراد بعواطف الحياة والأمل يتوفاها الله إثر ولادتها الأولى ، في قوسايا البقاع بلبنان^(١٨) .

إذن فقد انقلبت عليه الأيام مرة ثانية بعد أن كان قد أمن جانبها . وكأن الذي أصابه في إخوته لا يكفيه ، إذ به يجد أن « إدوارد » ، نجله الثاني الذي جاء إلى هذا العالم في ١٧/١/١٩٢٤ ، « قد خلق مريضاً بعاهة دائمة ، عاجزاً عن القيام بأي عمل^(١٩) » .

لم يكن في لبنان ، بعد فقد جنى ، من يستطيع ملء الفراغ الذي تركته في حياة ظاهر (ضاهر) وسلمى أبي وفاة أربعة أولاد ، ماتوا كلهم في ريعان الشباب ودون إنجاب . لذلك رحل الوالدان الثاقلان ، خريف عام ١٩٢٣ ، إلى العالم الجديد ، ليكونا قريبين من ابنيهما الأكبرين في سنيهما الأخيرة .

وأقام الوالدان في مدينة نيويورك مع إيليا ، ينعمان بمراى ابنيهما وحفيديهما حتى كانت أواخر عام ١٩٣٠ ، عندما قرر الوالد « أن يغادر هذه البلاد . . . مدفوعاً بعامل الحنين إلى مراتع صباه وشبابه ، فعاد إلى الوطن برغم توسلات نجليه (٢١) » . وتمضى أشهر يصل بعدها إلى زوجته وابنيه ، في يناير (كانون الثاني) ١٩٣١ ، نعيه غير المتوقع من المحيضة . وكان لهذه الوفاة المفاجئة ، بعيداً عن العائلة ، وقعها في إيليا الذي رثا أباه بقصيدة منها هذه الأبيات المتفرقة (٢١) :

أبي ! خاني فيك الردى فنقضت مقاصير أحلامى كبيت من التين
فليس سوى طعم المنية في فمي وليس سوى صوت النوادب في أذنى
أبحت الأسى دمعى وأنهتته دمي وكنت أعد الحزن ضرباً من الجبن
أحتى وداع الأهل يحرمه الفقى ؟ أيا دهر هذا منتهى الحيف والغبن !

ولكن من عادة الدهر ألا يستقر على حال مهما طال . إذ تبسم له ثانية بعد نجمهم . ففي ١٩٣٣/٥/١ يسعد الشاعر بروبرت ، مولوده الثالث والأخير (٢٢) . وتستقيم له الأيام بعد ذلك ، فيهنأ بها بعد أن تحمل الكثير من أذاها . ولا يعكر صفو هذا الهناء إلا فيجعتان ليس لهما ، على ما نظن ، هول فجائعه السابقة . فأما الفجعة الأولى فهي وفاة حميه بمدينة نيويورك في ١٩٣٦/٧/١١ ، إثر عملية جراحية ، وله من العمر - كما قيل - ستة وخمسون عاماً (٢٣) . وأما الفجعة الثانية فهي وفاة والدته قريبة منه في ١٩٤٣/٣/٢٢ ، وهى في سبعيناتها أو ثمانيناتها (٢٤) . وتفيدنا جريدتا « السائح » و « الهدى » بتاريخ ١٩٣٦/٧/١٦ ، ص ٢ و ٣ على التوالي ، بأن أبا ماضى كان قد ودع حماءه عند القبر بقصيدة مؤثرة ، لم أوفق إلى العثور عليها بعد . أما والدته فلم يرثها هو ، حسب ما جاء في « السائح » بتاريخ ١٩٤٣/٣/٢٩ ، ص ٢ ، بل رثاها صديقان له : توفيق فخر مساعده في تحرير « السمر » ، وفوزى البريدى صاحب جريدة « الإصلاح » النيويوركية ، ومرافقه في سفرته إلى لبنان عام ١٩٤٨ .

بقى الآن ، وعلى ضوء ما تقدم ، النظر في الفكرة القائلة بإلحاد أبى ماضى وكفرو . لقد استسهل الأب رفائيل نخلة اليسوعى الأمر ، كما استسهله غيره أيضاً ، فحكم على أبى ماضى ، حكماً نظنه فاصلاً ، بأنه « كافر متحذلق » ، « يجهد

مخيلته لبث إلحاده السمج » ، وبأنه « قد سخر شاعريته السامية لنشر إلحاده وشكه الفاضحين في أنحاء العالم العربي »^(٢٥) ، دون أن يحاول البحث عن بواعث هذا الكفر ، ولو فعل لما صب غضبه على أبي ماضي كما صبه ، بل لقام مدافعاً عنه كما قام الأب لويس شيخو اليسوعي من قبله مدافعاً عن المعري ، حين كتب « تبرئة أبي العلاء من وصمة الكفر الشنعاء »^(٢٦) .

وهنا يجب علينا أن نقف لحظة لتساءل : أليس من الإنصاف لأنفسنا وللأديب المدروس أياً كان ، إذا جهلنا تفاصيل حياته ووقائعها ، وتغبت علينا مكوناته النفسية ومسبباتها ، ولم يكن أمامنا إلا المعلوم من إنتاجه الأدبي نعتمد عليه اعتماداً كلياً لدروسه ، أليس من الإنصاف — أن نتثبت في أحكامنا عليه ، ونتحفظ في إصدارها ؟

فهم هذا زهير ميرزا ، فكتب في دراسته القيمة تحت عنوان « الله ومشيئته » : « ليس هناك وضوح في رأي الشاعر في هذا الموضوع الخطير ، فلست تلمح إلحاداً وكفراً كما لا تلمح إيماناً واضحاً »^(٢٧) . أما أنا فأستطيع أن أقول إن أبا ماضي كان مؤمناً ، غير أن إيمانه كان أكثر وضوحاً في شبابه منه في كهولته وشيخوخته . تشهد بذلك قصيدة مصرية له ما زالت مخطوطة^(٢٨) ، جاء فيها :

أنكرت ربك ها زناً	هبتك أملك جئت نكراً
وزعمت أن الله وهم	مر في الأذهان مرا
ونما مع الأجيال حتى	صار رب الناس طبراً
فعلام ذهنك ما به	أثر له ، أفكنت صخرأ ؟
إني لأبصر في الصخرو	روكل شيء منه أثراً
حاشا المهيمن أن يكون	ن كما زعمت ، لقيت شرأ
قصرت عن إدراكه	فحسبت بالرحمن قصراً
وكذاك ذو الطرف الحسي	ريخال بالأضواء حسراً

* * *

قل للألى نبذوا التقى واستملحوا الكفر الأمرا
من ذا الذى أرخى الظللا م ، وأطلع القمر الأغرا ؟

ومن الذى نظم الكوا
ومن الذى أرسى الجبا
ومن الذى نشر الغمها
وعجبائب وغرائب
أفكل ذلك صدفه
إنى تتبعته المشا
فرايت هذى الشمس تط
ولقد نظرت البحر يرخ
لا يستقـر وكل مها
والليل يقفهوه النها
يتناوشان كلاهما
واليوم يمضى لا يعو
والمرء يـولد غير مخ
هذا وذاك وكلها
أو بعد ذلك يستطيع
رب السماوات العلى
إنى لأرجـو أن تشو
من لم يعمـر قلبه الـ

كب فى السما بدرًا فبدرا ؟
ل ، وسير الأمواه بـجـرا ؟
م وساقه للأرض قطرا ؟
لا أستطيع لمن حصـرا
جاءت لأمر ليس يدرى ؟
هد وهى فوق الأرض تتـرى
لمع ثم تغرب وهى حـرى
طر لا ينى مدًا وجـزرا
فيه أراه مستقـرا
ر ويقتفيه الليل إثـرا
أعمـارنـها كـرًا وفـرا
د كأنما قد حل قـبرا
تار ، وبعد يموت قـبرا
تدعوا الحكيم بـهـ أن يقـرا
ع المرء بالديان كـفـرا ؟
والموجد الأشياء طـرا
ب إلى الهدى فأنال أجـرا
إيمان ظل الدهر قـفـرا

نعم ، كان أبو ماضى مؤمنًا حقًا ، فلولوا هذا الإيمان الذى ملأ قلبه فى صباه
لما صمد فى هذه الحياة بعد الذى أصابه فيها . وكم كان صادقاً حين قال فى
قصيدة (٢٩) تكشف عن شخصيته :

فما حطمت يد الأيـام روجى وإن حطمت أباريتى ودنى

الحواشي

- (١-٣) عبد اللطيف شرارة ، « إيليا أبو ماضى : دراسة تحليلية » . بيروت ، دار بيروت / دار صادر ، ١٩٦٥ ، ص ٦ ، ٢٨ ، ٣٤ على التوالى .
- (٤) عيسى الناعورى ، « إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث » . ط ٢ . بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٥٨ ، ص ١٦ - ١٧ .
- (٥) نادرة جميل سراج ، « دراسات فى شعر المهجر : شعراء الرابطة القلمية » . القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٣٣٩ ، أو ١٩٦٤ ، ص ٣٣٦ .
- (٦-٧) إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . « الشعر العربى فى المهجر : أميركا الشمالية » . بيروت ، دار صادر / دار بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٥ و ١٥٢ على التوالى .
- (٨) راجع القصيدة فى « ديوان تذكّار الماضى ، نظم إيليا ظاهر أبو ماضى » ، الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- (٩) راجع القصيدة كلها فى « ديوان إيليا أبو ماضى » ، الجزء الثانى . نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب البيوتية ، ١٩١٩ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ ، و عنوانها « مصرع القمر » . نشرت أصلاً بعنوان « دمة حارة » فى « السائح » ١٩١٦/٤/٢٤ ، ص ٤ . راجع كذلك « السائح » ١٩١٦/٤/٢٧ ، ص ٣ ، تحت عنوان « واجب الشكر » .
- (١٠) نشرت القصيدة أصلاً فى « السائح » ١٩١٦ / ٥ / ١٥ ، ص ٤ ، ثم فى « ديوان نعمة الحاج » ، الجزء الأول . نيويورك ، المطبعة التجارية السورية الأمريكية ، [١٩٢١] ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- (١١) القصيدة فى « السائح » ١٩١٦ / ٤ / ٦ ، ص ٤ .
- (١٢) جرجى إبراهيم نصر ، « أمير شعراء المهجر : إيليا أبو ماضى ، ١٨٨٩ - ١٩٥٧ » ، « المشرق » البيروتية ، ت ٢ - ك ١ (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٦٩ ، ص ٦٥٢ .
- (١٣) نشر أبو ماضى هذه القصائد الثلاث فى « الفنون » النيويوركية ، آب (أغسطس) ١٩١٦ ، ص ٢٤٤ ؛ « السائح » ١٩١٧ / ١٠ / ١١ ، ص ٤ ؛ و « السائح الممتاز » ١٩١٨ / ١ / ١٧ ، ص ٢ ، على التوالى . ثم ضمها « ديوان إيليا أبو ماضى » ، الجزء الثانى ، ١٩١٩ ، ص ٢٨ ، ١٩٠ ، ١٥٦ . والملاحظ أن أبا ماضى كان يغير أحياناً عناوين قصائده ، عندما ينشرها فى ديوان . فقصيدة « إذا مت » أصبحت « ابنة الفجر » ، و « أنة نائح » أصبحت « يا جارق » . والعنوانان الجديدان - كما نرى - خاليان من النعمة الحزينة . وأحب أن أثير هنا أيضاً إلى المثل اللاتينى Per aspera ad astra الذى أدرجه أبو ماضى فى نهاية قصيدة « عصر الرشيد » ، ص ٣٢ من الديوان المذكور ، والذى ترجمته « خلال الصعاب إلى النجوم » .

- (١٤) « السائح » ١٥ / ٤ / ١٩١٨ ، ص ٠٢ راجع كذلك « السائح » ٢٢ / ٤ / ١٩١٨ ، ص ٥ ، التي نشرت تحت عنوان « مداعبة شعرية » قصيدتين : الأولى لندرة حداد نظمها بمناسبة خطبة صديقه إيليا ، والثانية لأبي ماضي يرد بها على نندرة .
- (١٥) « السائح » ٢٦ / ٤ / ١٩٢٠ ، ص ٠٢ .
- (١٦) جرجي إبراهيم نصر ، ص ٦٥٦ .
- (١٧) « السائح » ٢٧ / ٢ / ١٩٢٢ ، ص ٢ ، و « الريحاني ومعاصروه : رسائل الأدباء إليه » ، جمعها ألبرت الريحاني . بيروت ، دار الريحاني ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٨ .
- (١٨) « السائح » ١٢ / ٤ / ١٩٢٣ ، ص ٢ .
- (١٩) جورج صيدح ، « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية » . ط ٣ . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩٥ . راجع كذلك خبرية خيري ، « إيليا أبو ماضي يقول . . . » ، مجلة « الحيل » القاهرة ، ١٤ / ١١ / ١٩٥٥ ، ص ٣٥ .
- (٢٠) « السائح » ٢٩ / ١ / ١٩٣١ ، ص ٢٣ .
- (٢١) « الحمائل » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٩ .
- (٢٢) « الهدى » النيويوركية ٥ / ٥ / ١٩٣٣ ، ص ٣ .
- (٢٣) « الهدى » ١١ / ٧ / ١٩٣٦ ، ص ١ ، و « السائح » ١٣ / ٧ ، ص ٢ .
لم تذكر هاتان الجريدتان تاريخ ميلاد دياب أو سنة عند الوفاة ، أما جريدة الـ «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٤ / ٧ ، ص ٢٠ ، فتفيدنا بأن عمره كان ٥٦ عاماً .
- (٢٤) « السائح » ٢٢ / ٣ / ١٩٤٣ ، ص ٣ ؛ ٢٩ / ٣ ، ص ٣ ؛ « الهدى » ٢٣ / ٣ ، ص ٣ . نرجح هذه السن إذا كان صحيحاً أن الوالد كان له من العمر ٧٦ سنة عندما توفي ، حسب ما ذكره جرجي إبراهيم نصر ، ص ٦٥٢ .
- (٢٥) الأب رفايل نخلة اليسوعي ، « الشاعر إيليا أبو ماضي ، ١٨٩٠ - ١٩٥٧ » ، « المشرق » ، ك ٢ - شباط (يناير - فبراير) ١٩٦٨ ، ص ٨٤ ، ٧٧ ، ٨٦ .
- (٢٦) الأب لويس شيخو اليسوعي ، « تبرة أبي العلاء من وصمة الكفر الشفاء » ، « المشرق » ، ١٢ / ١٢ / ١٩٠١ ، ص ١٠٦٨ - ١٠٧٢ .
- (٢٧) « إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر : شعر ودراسة » . ط ٢ . (دمشق) ، دار اليقظة العربية ، ١٩٦٣ ، ص ٨٦ .
- (٢٨) تفضل صديق الدكتور روبرت ماضي فوضع مخطوطات والده بين يدي والتي منها هذه القصيدة .
- (٢٩) قصيدة « وقائلة » في « الحمائل » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

(٢) تبرئة أبى ماضى

هناك قصيدة فى ديوان « الحمائل » يتجلى فيها شك لإيليا ظاهر أبى ماضى وحيثه تجلياً واضحاً . هذه القصيدة هى القصيدة الثالثة فى الديوان ، وهى تقع فى ٥٧ بيتاً ^(١) ، اختارها ناظمها عنوان « الدمعة الخرساء » . وقبل أن نباشر النظر فى هذه القصيدة ^(٢) ، اسمح لى أيها القارئ العزيز - لضيق المكان - أن أوردها لك مختصرة بالشكل الآتى :

سمعت عويل النائحات عشيّة	فى الحى يبتعث الأسى ويثير
يبكين فى جنح الظلام صبيّة	إن البكاء على الشباب مرير
قالت، وقد سلخ ابتسامتها الأسى:	صدق الذى قال «الحياة غرور»
أكذا نموت ، وتنفضى أحلامنا	فى لحظة ، وإلى التراب نصير ؟
ونموج ديدان الثرى فى أكبد	كانت تموج بها المنى وتمور ؟
خير إذن منا الألى لم يولدوا	ومن الأنام جلامد وصخور
وتبقت ، فشمعت بعد حديثها	أن الوجود مشوش مبتهور
الصيف ينفث حره من حولنا	وأنا أحس كأننى مقـرور
سأقت إلى قلبى الشكوك فنغصت	ليلى ، وليس مع الشكوك سرور
فأجبتها : لتكون لديدان الثرى	أجسامنا ، إن الجسوم قشور
لا تجزعى ، فالموت ليس يضيرنا	فلنا إياب بعده ونشـور
إنا سنبتى بعد أن يمضى الورى	ويزول هذا العالم المنظـور
فتبسمت ، وبدا الرضى فى وجهها	إذ راقها التمثيل والتصـوير
عاجلتها بالوهم فهى قـريرة	ولكم أفاد الموجد التخديـر
لكننى لم أويت لمضجعى	خشن الفراش على وهو وثير
(سلب الفواد رثاء والجفن الكرى ،	هم عرا ، فكلاهما موتـور)
حامت على روحى الشكوك كأنها	وكانهن فريسة وصقـور

ولقد بلحات إلى الرجاء فعقنى
 باليل ! أين النور ؟ إلى تائه
 « أكذا نموت ، وتنقضى أحلامنا
 خير إذن منا الألى لم يولدوا
 أما الخيال فخائب مدحور
 مر يبتق ، أم ليس عندك نور ؟
 في لحظة ، وإلى التراب نصير ؟
 ومن الأنام جنادل وصخور »

نظم أبو ماضى هذه القصيدة في نيويورك ، صيف ١٩٣٢ . وهى كما نرى
 محاورة دارت بينه وبين امرأة وصفها لنا الشاعر بأنها « متجهمة » ، « مرتاعة » ،
 « متحيرة » ، « واجمة » ، « ذاهلة » ، « في مقلتها دمة » ، لأنها « سمعت عويل
 النائمات عشية ، ييكن في جنح الظلام صبية » . ثم يفيدنا شاعرنا بأن هذه المرأة
 « سافت إلى قلبه الشكوك » ، ونغصت ليله ، بسبب حديثها .

وليس من الصعب علينا التعرف على هوية هذه المرأة ، التى لم يذكر لنا اسمها
 الشاعر ، إذا وضعنا أمامنا ، جنباً إلى جنب ، تأريخاً دقيقاً لقصائد أبى ماضى ،
 وكذلك تأريخاً لوقائع حياته . فلم تكن هذه المرأة إلا دوروثى (دورا) ، شريكة
 حياته ، التى لم يكن حظها في هذه الحياة بأسعد من حظ إيليا ، الذى رأيناه
 سابقاً^(٣) . فقد كان لها ، هى الأخرى ، نصيبها الخاص والكافى من الشقاء .

فنحن نعلم أنه ما كاد ينقضى عام على زواجها من إيليا حتى مرضت أمها
 كاترين ، واضطرت إلى دخول مستشفى « روزفلت » بمدينة نيويورك . وهناك بقيت
 ثلاثة أشهر طريحة الفراش تعاني آلام السرطان . فلما عجز أشهر الأطباء عن
 معالجتها ، وازدادت وطأة المرض عليها ، أسلمت الروح صباح الثلاثاء
 ١٠/٨/١٩٢١ ، ولها من العمر ٤٣ سنة ، تاركة وراءها رجلها نجيب وخمس بنات
 وولد ، أكبرهم دوروثى .

كان هذا أول مصاب أليم لدوروثى مع إيليا . وفي هذا المصاب الأليم ، كتب
 إيليا ، كصحنى ، في افتتاحية عنوانها « فقيدتنا » : « سدد القضاء أحد سهامه ،
 ورمى به قلوبنا فأصاب حبتها . لذلك تشعر هذه الجريدة التى طالما آست أصدقاءها
 في المصائب والملمات أنها بحاجة إلى عاطفة كل صديق » . وكشاعر ، نظم إيليا
 الأبيات الآتية في حماته :

مضت التى كانت كزنبقة الربى فى طهرها وأريجها وصفاتها

فبكت عليها الزهر في جناتها وبكت عليها الطير في وكناتها
وكأنما الأغصان أنقلها الأسى أفما تراها قوست قاماتها ؟
ومشى النسيم إلى الزهور معزياً يبكي ، وتمسح كفه عبراتها
فكأنه ممن ربوا في ظلها وكأنما الأزهار من فتياتها
والله ليس نفي النفوس حقوقها حتى تفيض اليوم مع حسراتها
إن كان قد سلب الحمام حياتها هيهات يسلبنا الردى حسنها

أما مصيبة دوروثى الثانية ، فكانت يوم وضعت نجلها الثانى إدوارد ، فى ١٧/١/١٩٢٤ ، لتجده إنساناً عاجزاً كل العجز فى هذه الحياة .

ثم تأتيتها صدمة جديدة ، فجر الاثنين ٢٨/٣/١٩٣٢ ، عندما تنتقل شقيقتها أولغا - رابع بنات نجيب موسى دياب ، وعقيلة فريد إلياس مسلم - إلى رحمة الله إثر عملية الزائدة المعوية ، وهى شابة فى عقدها الثالث . فبكى دوروثى على أخيها مع ذويها من هول المفاجعة . وعلى حافة القبر ، فى مقبرة غرينوود - يقول لنا محرر جريدة «مرآة الغرب» النيويوركية - « انبرى صهر الفقيدة الأستاذ إيليا أبو ماضى يخاطب الأخت بالدموع والرفرات ، مودعاً من كانت كالفجر ابتسامة ، والعصافير إنشاداً ، والزهور أخلاقاً ، فبكى وأبكى » .

زهرة ولت ، وما لى شذاها خفيت عنا وما زلنا نراها
فى الأقاحى وأزاهير الربى فيها رائع مثل بهها
والدرارى كلما لاحت لنا فلقد كان سناها كسناها
والسواقى وهى تشدو للضحى فلكم أصغت إلى همس حصاها
والحيا ينهل ماء فى الثرى وأريجاً ورواء فى ثراها
روح الحى فأمسى ساهراً حائراً يسأل : ماذا قد عراها ؟
يا لكف الموت من قباية كيف غالت فى الدجى فجر صباها ؟
كيف لم تشفق على إختوها وذويها ؟ كيف لم ترحم أباه ؟
قد محاً أفراحنا صف الردى وطوى آمالنا لما طواها
فحملنا النار فى أكبادنا ونفت أعيننا عنها كراها
زهرة ، بل روضة كان التنى والندى والطهر من بعض حلاها

نظر الله إليها بعدما خلع الحسن عليها فاشتهاها
فدعاها ، فمضت من عالم لم يكن غير طريق لحماها
هل رأيتم أو سمعتم نجمة قبلها قد أصبح القبر سभाها ؟

لم يكن فقد أولغا سهلا على دوروثى ، فقد ظلت أشهراً بعد هذه الكارثة ترى
شبح الموت ماثلاً أمامها ، وتسمع صوت النائحات يرن فى أذنيها . وكانت تجلس إلى
إيليا موجهة تريد جواباً ، فيحاول هذا أن يصبرها ، لكن ألهما يحز فى نفسه ، وهما
يكبر همه ، ونحيرها يزيد حيرته ، وتساؤلها يقوى تساؤله ، وشكوكها التى كانت
تسوقها إليه كانت تضاعف شكه . وكان نتيجة طبيعية لهذه الأزمة النفسية ، التى
مرت بها دوروثى وإيليا معها ، أن تتولد قصيدة « الدمعة الخرساء » ، أو قصيدة
« الشك » كما أحب أن أسميها .

قرأ أبو ماضى مرة مقالا عنوانه : « هل يولد الشعراء شعراء ؟ » ، فأوحى إليه
هذا المقال بمقال بدأه بهذه العبارة : « عثرت فى مطالعتى على هذا المقال ،
فاستهوانى عنوانه ، لأنه سؤال ، ولأن وراء كل سؤال شكاً ، والشك فاتحة
الإيمان » .

هذا هو رأى أبى ماضى الصريح فى الشك . وشك الرجل ، كما تدل عليه
تفاصيل حياته ، ما كان فى يوم ما شك اختيار ، وإنما شك اضطرار .

كان أبو ماضى حياً عندما اتهمه بعض الناس بأنه كان ملحدآ كافراً . وكان هذا
الاتهام عادة ما يوجه إلى الرجل عقب اختلاف أو خلاف يقوم لسبب أو لآخر بينه
وبين هؤلاء ، وكان هذا الاتهام هو أسهل الطرق وأشنعها التى توصل إليها هؤلاء
للانتقام من الرجل فى حياته .

أما وقد مضى الرجل إلى ربه ، وانقضى خمسة عشر عاماً على وفاته ، فأى
عذر لنا ، بل أى حق — نحن الذين لا نعرفه إلا من دواوينه ، ولا تربطنا به إلا
الرابطة الإنسانية — أن نتابع ترديد اتهام قديم بثه بعضهم ضد الرجل لغرض فى
نفسهم ، قبل أن نقوم بدراسة علمية موضوعية حققة للرجل وإنتاجه ؟

توفيت أخته الوحيدة جنى — كما علمنا — فى ربيع ١٩٢٣ ، إثر ولادتها الأولى .
فلما وصله نعيها صمقى ، وأمسك القلم وخط :

« عجز عقلى عن ضبط العاطفة ، لأنه محدود ، وهى غير محدودة .

هى زوبعة لا تقيد بسلاسل .

هى نار سرمدية لا تكافح ولا تغلب .

لذلك لم يستطع العقل ، وهو السلطان الأكبر ، أن يمنعها من العويل والصراخ ،
وعجزت أنا عن أن أكون أصم .

ذلك يوم قال الناعى : ماتت « جنى » !

إننى أحس كأن الحزن يعتصر قلبى زفرات ، ويستقطره عبرات ، وأشعر كأن
روحى طائر مهيبض فى أشراك ، أوزهرة تخنقها الأشواك . وكأنى لما بى من الحزن
عليك أرسف فى قيود من الحديد ، ولا قيود ولا أغلال . ولكنها الحسرات فى النفس
ثقل الخطى ، وتوهن القوى .

كنت فى دنيائى كالحالم يرى نفسه سائراً فى المروج الخضراء ، لا يقع بصره
إلا على مشهد جميل ، ولا يطرق سمعه إلا صوت رخيم . فلما جاعنى نعيك
استيقظت لألمس الأشواك فى روحى ، وأحس بوخزها وأبكى . . .

أنا لا أعرف ما بعد الموت ، وربما كان ليس لى أن أعرف . ذلك سر خفى ،
ذلك هو اللغز الأكبر . ولكنى أعرف أن فى العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس .
وفى كلتيهما تعزية للروح 'الكثيبة' مثل روحى .

الأولى ، فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين إن بعد هذه الحياة حياة
أخرى ، أبهى وأجمل ، وأسمى وأكمل ، وإن الموت هو الجسر الذى يعبر عليه الناس
إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية ، هى فكرة الفلاسفة الذين يثبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان
مادة ، وأن المادة لا تفنى ، وأن ما يكون اليوم ولا يكون غداً ، هو كائن موجود ،
ولكن فى شكل لاغير شكله الأول .

فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التى
لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أسقى شجرة الأمل فى نفسى إلى أن تنطلق من قفصها
الترابى ، فتلتقى روحى وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمناً بوجودك إيماني بوجودي ، ولا أرى في التحول بأساً عليك ، فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل ، لأنك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، وما فيك إلا الجميل الحسن .

هذا هو معتقد أبي ماضي ، وهو معتقد واضح ، ليس فيه إنكار للآخرية والمعاد ، ولا إنكار لله خالق العباد . فكيف نستطيع إذن أن نتهم الرجل بالكفر والإلحاد ؟ لست أدري !

على أنه إذا أصررنا على اتهام الرجل بالشك والإلحاد ، بعد كل الذي أثبتناه آنفاً ، لا يبقى أمامنا سوى اللجوء إلى طريقة أخرى هي « طريقة التحليل الإحصائي الكمي » . و « طريقة التحليل الإحصائي الكمي » هذه ، في الدراسات الأدبية ، اتجه علمي حديث يهدف إلى دعم هذه الدراسات باستخلاص الحقائق من النصوص الأدبية موضوعياً ، وقياسها رقمياً .

فلو أخذنا شاعرنا أبا ماضي ، وقسمنا حياته إلى مراحل ، تنهى كل منها بتاريخ نشر ديوان ، ثم حصرنا كل الألفاظ التي لها علاقة بالأصل « شك ك » بمعنى « نقيض اليقين » — كما هو مبين أدناه — وبعدها حسبنا عدد مرات ترددها في كل من هذه المراحل ، لانتهينا إلى الجدول التالي الذي يبين لنا تطور « الشك » عند أبي ماضي ، كفكرة عالقة بذهنه ، مترددة في نفسه :

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥
الديوان	تذكار الثاني	جداول خمائل تبر			
النشر	١٩١١	١٩١٩	١٩٢٧	١٩٤٠	١٩٥٧ ؟ مجموع
شك (فعل)	٣	٢	—	—	٥ (—)
شك (اسم)	١	٨	٢	٣	١٤ (—)
شكوك	١	١	—	٣	٥ (٢)
مجموع الفكرة	٥	١١	٢	٦	٢٤ (٢)

والملاحظ من هذا الجدول أنه :

(١) تكررت كلمة « شكوك » خمس مرات في دواوين أبي ماضي الخمسة

المعروفة ، منها ثلاث في ديوان « الحمائل » ، وهذه كلها في قصيدة « الدمعة الخرساء » .

(ب) يتأرجح الشك عند الشاعر صعوداً هبوطاً على التوالي ، فهو أشد في المرحلتين ٢ و ٤ منه في المرحلتين ١ و ٣ ، ثم إنه أشد في المرحلة ٢ منه في المرحلة ٤ .
(ح) ينعدم الشك كلية في المرحلة ٥ الأخيرة .

فلذا قارنا كميّاً « الشك » عند أبي ماضي بـ « الموت » عنده ، وجدنا أن فكرة الشك ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الموت ، بل هي صورة حقيقية لها ، كما يتبين من الجدول الآتي :

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥	مجموع
مات	٦	٢٨	٧	١٣	١٥	٦٩ (٣)
موت	١٣	٣٠	١٨	٢٢	١٢	٩٥ (—)
مجموع الفكرة	١٩	٥٨	٢٥	٣٥	٢٧	١٦٤ (٣)

فالواضح من هذا الجدول (وفيه أتينا ، للإيجاز ، بكلمتين فقط من الأصل « م و ت » ، ولم نأت بتلك من أصل « م ن ن » و « م ن ي ») :

(أ) أن فكرة الموت لازمت الشاعر طول حياته .

(ب) أنها تسلطت عليه أكثر في المرحلتين ٢ و ٤ منها في المراحل ١ و ٣ و ٥ .

(ح) أنها في المرحلة ٢ أشد منها في المرحلة ٤ .

(د) أنها في المرحلة ٥ الأخيرة تقف منفردة لا يقابلها « شك » .

هذا عن فكرتي « الشك » و « الموت » . أما عن فكرتي « الإيمان » و « الكفر والإلحاد » ، فيمكن أن يقال ، بناء على الجدول التالي ، إن الفكرة الأولى أقوى عند أبي ماضي من الثانية ، وأنها تتجه اتجاهاً تزايدياً لتصل ذروتها في المرحلة ٤ ، والثانية تتجه اتجاهاً تناقصياً لتندم في المرحلة ٥ .

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥	مجموع
آمن (فعل)	—	٢	١	٢	١	٦ (٢)
إيمان	١	١	٢	٣	٢	٩ (٢)
مؤمن	—	—	١	٢	—	٣ (١)
مجموع الفكرة	١	٣	٤	٧	٣	١٨ (٥)

* * *

كفر (فعل)	١	١	—	—	—	٢ (١)
كفر (اسم)	١	٢	—	—	—	٣ (٢)
كافر	—	٢	١	١	—	٤ (٢)
كفران (مصدر)	٢	—	—	—	—	٢ (٢)
إلحاد	١	—	١	—	—	٢ (١)
مجموع الفكرة	٥	٥	٢	١	—	١٣ (٨)

فإذا أردنا تلخيص الجداول الأربعة السابقة في جدول واحد ، بحيث يظهر أمامنا المجموع الكلى للفكر الأربع مرتباً ترتيباً تنازلياً ، ثم أدخلنا في حسابنا هذه المرة الكلمات القوافي (وهي الكلمات التي يمكن أن يقال عنها — مع التحفظ — إن أبا ماضي اختارها دون غيرها للضرورة الشعرية ، والتي بينا عدد مرات ورودها) بين قوسين بعد كل مجموع في الجداول السابقة) لانتهينا إلى الجدول التالي الذي لا يحتاج إلى إيضاح :

الفكرة	مرات ورودها	منها كفاية
موت	١٦٤	٣
شك	٢٤	٢
إيمان	١٨	٥
كفر وإلحاد	١٣	٨

الحواشي

(١) القصيدة في الأصل كانت ٥٨ بيتاً ، فلما أعيد نشرها في « الحمائل » ، نيويورك ، مطبعة السمر اليومية ، ١٩٤٠ ، سقط منها بيت ، وضعت بين قوسين في النص التالي . وهنا أيضاً يجب الإشارة إلى أن القصيدة لا تظهر في « الحمائل » طبعة دار العلم للملايين ، ولكنها تظهر ملحقة بـ « الجداول » مع قصائد أخرى .

(٢) راجع تحليلاً فنياً للقصيدة في « الشعر العربي في المهجر : أميركا الشمالية » ، تأليف إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . بيروت ، دار بيروت / دارصادر ، ١٩٥٧ ، ص ١١٠ - ١١٢ .

(٣) راجع مقالة سابقة في « الأديب » البيروتية ، نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٢ ، ص ٢٢ - ٢٥ .

(٣) نساء ثلاث فى حياة أبى ماضى

(١)

« سمعته — وأنا جالسة أمامه وجهًا لوجه يقول لى :

السحب تركض فى الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين
لكنما عيناك باهتان فى الأفق البعيد
سلمى ، بماذا تفكرين ؟
سلمى ، بماذا تحلمين ؟

لم يقل لى صاحب هذه الأبيات ، الشاعر العربى المعروف إيليا أبو ماضى ،
من هى سلمى . كنا جالسين حول مائدة فى مطعم « النجم الشرق » فى حى
بروكلين بنيويورك . وسألته عن أحب قصائد الغزل التى كتبها . فأخذ منى القلم
والورقة التى أمامى ورفع نظارته عن عينيه وأسترسل فى كتابة القصيدة كلها . ثم ألقاها
باسمًا ، وكأن ذكرى هذه الأبيات حركت فى نفسه عاطفة قديمة . فسألته ما هى
أكبر قصة حب فى حياته ؟ فأجابنى ضاحكًا : « شوها الفضيحة هايدى » .

هذا ما كتبتة الصحفية المصرية خيرية خيرى فى مجلة « الجليل » القاهرية ،
أواخر عام ١٩٥٥ ، بعدما زارت أبا ماضى قبل وفاته بستين ، وكان شاعرنا وقتذاك
فى شيوخته ، قد بلغ من العمر السادسة والستين ، ومضى على نظمه لهذه القصيدة
٣٤ سنة .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يختار فيها أبو ماضى قصيدة « المساء » عندما
يطلب إليه الاختيار من أشعاره . فقد اختار القصيدة نفسها من قبل لتكون ضمن
« مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١ » . وما كان إصراره على الاختيار نفسه لولا
مكانة سلمى عنده .

فن هى ، يا ترى ، سلمى هذه التى ردد أبو ماضى اسمها فى قصيدة « المساء » ،

والتي ضمن على الصحفية بالحديث عنها ؟ من هي هذه المرأة التي ظل لإيليا يذكرها حتى آخر أيامه ، وظل قلبه ينبض بحبها ؟ من هي هذه الأنثى التي تغنى بها شاعرنا واستحقت منه قصيدة بكاملها ، أودعها ديوانه « الجداول » ، وخلد فيها اسمها ؟ إن سلمى هذه ليست من نسج خيال أبي ماضي ، كما تعود أن يفعل الشعراء أحياناً ، بل هي امرأة حقيقية عرفها أبو ماضي معرفة شخصية وثيقة ، فعرف آمالها وآلامها في الحياة . سلمى هذه هي سلمى ابنة جرجس إسكندر ، من محبثة لبنان . هي أم مراد ، والدة إيليا نفسه . تذكرها أبو ماضي أيام كانت شابة في ضحائها ، ثم تصورها - وكان يومها في غربته بعيداً عنها - واقفة على أبواب الشيخوخة ، جالسة ورأسها بين يديها تتطلع إلى الأفق البعيد ، فكان نظمها لهذه القصيدة ، وتصويره لأمه هذا التصوير الدقيق الحى :

أرأيت أحلام الطفولة تختنى خلف التخوم ؟
 أم أبصرت عينك أوجاع الكهولة في الغيوم ؟
 أم خفت أن يأتي الدجى الجانى ولا تأتى النجوم ؟
 أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد ، إنما
 أظلالها في ناظريك
 ثم يا سلمى عليك

إني أراك كسائح في القفر ضل عن الطريق
 يرجو صديقاً في الفلاة ، وأين في القفر الصديق ؟
 يهوى البروق وضوءها ويخاف تخدعه البروق
 بل أنت أعظم حيرة من فارس تحت القتام
 لا يستطيع الانتصار
 ولا يطيق الانكسار

هذى الهواجس لم تكن مرسومة في مقلتيك
 فلقد رأيتك في الضمى ورأيتك في وجتتيك
 لكن وجدتك في المساء وضعت رأسك في يدك

وجلست في عينيك أَلغاز ، وفي النفس اكتاب
مثل اكتاب العاشقين
سلمى ، بماذا تفكرين ؟

لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ولتأمل الأحزَم نفسك في الكهولة والصبا
مثل الكواكب في السماء ، وكالأزاهر في الربى
ليكن بأمر الحب قلبك عالماً في ذاته
أزهاره لا تذبيل
ونجومه لا تأفل

مات النهار ابن الصباح ، فلا تقولى : كيف مات ؟
إن التأمل في الحياة يزيد آلام الحياة
فدعى الكآبة والأسى ، واسترجعى مرج الفتاة
قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى مهللاً
فيه البشاشة والبهاء
ليكن كذلك في المساء

ولا يفوتنا بعد قراءة « المساء » إلا أن نلاحظ شدة التشابه بين أفكار هذه القصيدة وكلماتها وبين أفكار وكلمات قطعة « ابسمى » ، التى أدرجها أبو ماضى فى « الحمائل » ، والتى تكاد تكون ملخصاً لـ « المساء » ، ولا شك أيضاً أنها موصولة بها .

فى الاثنتين « سماء ومساء ، نجوم وغيوم ، أحلام وابتسام ، زهر وستر » .
أما « الضوء ، والظلام ، والجنات ، والأريج ، والتهلل » الذى تطالعنا به قصيدة « المساء » فإيراده فى « ابسمى » : « النور وتواريه ، والروض ، والشذا ، والفرح » .

لقد ردد إيليا فى « ابسمى » على سلمى ، وهى فى شيخوختها ، ما خاطبها به من قبل فى « المساء » ، وهو يحاول أن يخفف عنها ما لاقته من مأس فى حياتها :

ابسمى كالورد في فجر الصباء وابسمى كالنجم إن جن المساء
 وإذا ما كفن الثلج الثرى وإذا ما ستر الغيم السماء
 وتعرى الروض من أزهاره وتوارى النور في كهف الشتاء
 فاحلمى بالصيف ثم ابتسمى تخلق حولك زهراً وشذاً
 وإذا سر نفساً أنها تحسن الأخذ فسرى بالعطاء
 وإذا أعياك أن تعطى الغنى فافرحى ، إنك تعطين الرجاء

وبرغم أننا لا نعرف شيئاً مفصلاً عن أم إيليا ، كفتاة وامرأة وزوجة وأم
 وجدة ، فإن الوقائع الرئيسية في حياتها أمامنا لا تنقصنا . فقد تزوجت سلمى
 ابن بلدتها ظاهر (ضاهر) بن إيليا بن طانيوس أبي ماضى ، وأنجبت ستة أولاد
 هم : مراد ، إيليا ، مترى (ديمترى) ، طانيوس ، إبراهيم ، جنى . ثم فجعت
 الأربعة الصغار وهم في ريعان الشباب . ومن قرية المحيدثة ، انتقلت إلى قوسايا
 البقاع لتسكن هي وزوجها مع ابنتها جنى ، عندما تزوجت هذه الابنة . فلما
 توفي الله جنى ، ربيع ١٩٢٣ ، رحلت سلمى ، خريف نفس العام ، إلى الولايات
 المتحدة بصحبة رجلها ، لتستقر معه في مدينة نيويورك . وهناك ، بعد حوالى سبع
 سنوات من العيش أمريكا ، حن الزوج إلى مراتع صباه وشبابه ، فرجع وحده
 إلى المحيدثة ، ليلقى ربه بعد أشهر من رجوعه ، مخلفاً وراءه سلمى في رعاية إيليا .
 ومع إيليا بقيت حتى وفاتها . المنزل رقم ٢٥٣ شارع ٨٤ في بروكلين .

لقد عاشت سلمى قرب إيليا ما يقرب من عشرين عاماً ، تنعم بمرآه وبمرآى
 أولاده الثلاثة أحفادها و « دورا » أمهم ، وبمرآى ابنها الأكبر مراد وقرينته سليمة ،
 بين الحين والحين . ولما جاء دفنها في مقبرة جبل الزيتون ، مارس (آذار) ١٩٤٣ ،
 وقف توفيق فخر ، المحرر يومئذ في جريدة « السمير » ، يرثيها وتبعه في الرثاء ، فوزى
 البريدى ، صاحب جريدة « الإصلاح » النيويوركية .

هذا ما نستخلصه عن سلمى أبي ماضى ، من المراجع التى بين أيدينا .
 إلا أن هناك شيئاً آخر مهماً ، غير ما ذكرناه ، نعرفه عن سلمى ، ونستخلصه
 من أدب أبي ماضى نفسه . ذلك هو أن إيليا كان محباً لسلمى ، رفيقاً بها ،
 شقيقاً عليها ، وأن هذا الشعور الجميل الذى كان يكنه إيليا لها ليظهر جلياً

واضحاً في قصيدة « المساء » ، كما يظهر في قصيدتين أخريين ، قصيدة « هي » وقصيدة « وثبة خيال » . أما القصيدة الأولى فقد أودعها شاعرنا « الجداول » أيضاً ، وأما الثانية فما زالت مجهولة غير متداولة . ومع أن هاتين القصيدتين ترجمتا عن الإنجليزية بتصرف ، إلا أنهما تعبران عن شعور إيليا نحو والدته ، وتقومان دليلاً آخر على حبه لها . نسمعه في ختام « هي » يقول :

وأنت قال الصبح واستضحكوا—	هل لك حسناء نحيبها؟
قال : أجل ، أشرب سر التى	بالروح تفدينى وأفديها
صورتها في القلب مطبوعة	لا شيء حتى الموت يحوها
لا ترضانى رياء ولا	تلمنى كذباً وتغويها
يضيع مالى ، ويزول الصبي	وحبها باق وحبها
قد وهبني روحها كلها	ولم تخف أنى أضحىها
سر التى لا غداة بينكم	مهما سمت فى الحب تحكيها

فصاح رب الدار : ياسيدى ، وصفتها ، لم لا تسميها ؟

أتخجل باسم من تهوى ؟

أحسنا بغير اسم ؟

فأطرق غير مكترث

وتتم خاشعاً . . . : أمى

ويقف إيليا في « وثبة خيال » — أو قصيدة « كيف ودع البطل المنجح أمه »

كما هي معنونة أيضاً — طالباً دعاء أمه ، مشجعاً إياها ، فيقول على لسان الطيار الأمريكى تشارلز لندبرج ، قبل ركوبه الطائرة لعبور المحيط الأطلسى :

حان المسير عن الحمى ، أمام ممالك واجمة ؟

أفتجزعين من الكوارث ، والكوارث نائمه ؟

المجد يدعونى إليـهـ ، وقد لحت علامته

فى الشاطئ الثانى ، فقوى ودعيتى باسمه

إنى تزودت الرجاء ، وحبذا منك الدعاء

تبكين ؟ ما سبب البكاء ، وأى خير فى الدموع ؟
صوفى لآلى مقلتيك ، فلست أرضى أن تضيع
لا تركى الإيمان تسحقه المخاوف فى الضلوع
واصغى إلى صوت الرجاء يقول فى غد الرجوع
أى ! اللقاء غداً . إذن فإلى اللقاء ، إلى اللقاء

• • •

أما إذا خاب الرجاء ، وخانى ذاك المضاء
وجميع أحلامى تلاشت واضمحلت كالهباء
وأراد يصرغنى القضاء ، ونال منى ما يشاء
فهويت من أوج السماء إلى الحضيض .. إلى العفاء
لا تعولى كالتنادبات ، فلن يردنى البكاء

داعب « مداعب » مرة أبا ماضى ، عام ١٩٢٤ ، بمقالة طريفة نشرها فى
« السائح » ، تحت عنوان « حلم مزعج » . الحكم على محرر « المرأة » بالإعدام .
محكمة شعبية فى السماء » ، افتتحها بقوله :

« توفيت والدتى بالأمس ، فنعيتهما إلى أبناء أمتى على صفحات الجرائد العربية ،
وذيلت النعيه بهذه العبارة : « لا لزوم لإرسال أزهار » .

كان ذلك لأننى أردت اتباع المبدأ الحديد ، وهو تحويل تلك الأموال الطائلة
التي كان ينفقها السوريون على الأزهار إلى مساعدة المشاريع الخيرية المفيدة .

ولا تخفى أن صاحب هذه الفكرة الحميدة هو محرر « مرآة الغرب » .

فلما طالع أبو ماضى المقالة ، بعث إلى مداعبه برد ، ظهر فى العدد التالى

بعنوان « صدى الحلم المزعج » ، جاء فيه :

« قرأت فى اليقظة حكايته الكرى ، فسررتى منها أمور ، وساءنى أمور ...

ساءنى ، بل أغضبنى ، ارتعاشك واضطرابك ، واستيحاشك عند رؤيتك شبح
والدتك يقرب منك . وكان يجب أن تبتهج روحك بروية خيالها ، كما كنت
تبتهج وهى معك فى هذه الدنيا ، لا أن يغمر عليك من الخوف . ليت شعرى ،

إذا كان المرء يرتاع من رؤية أمه في الكرى أوفى اليقظة ، فبأى الناس يستأنس؟ » .
 هذا هو شعور إيليا تجاه والدته سلمى ، المرأة الأولى والكبرى في حياته ،
 شعور ابهاج وشعور استئناس دام معه في هذه الدنيا على الأيام حتى الممات .

(٢)

أما المرأة الثانية في حياة شاعرنا أنى ماضى فهي أخته أوجينى ، أو جنى كما
 كان يحلو له أن يدعوها هو وأخوه الأكبر مراد . ونحن لا نعلم عن جنى إلا أقل
 القليل ، فمعلوماتنا عنها محدودة للغاية . كل ما نعلمه أنها كانت شقيقة إيليا
 الوحيدة ، وأنها كانت أصغر أفراد العائلة ، وأنها « تعاطت مهنة الخياطة ،
 واقتربت ١٩١٨ (هذا ما يذكره جرجى إبراهيم نصر ، والأرجح أنه ١٩٢١)
 بالشاب إبراهيم نمر الخورى نعيمة ، من قرية قوسايا البقاع ، وأسكنت والديها
 معها » .

ولأن إيليا كان يعز جنى كثيراً ، فقد خلدها في مقالتين نشرهما في جريدة
 « مرآة الغرب » . أما المقالة الأولى فقد ظهرت بعنوان كبير « أختى ! » . وتحت
 هذا العنوان الكبير ، طبع الإهداء الآتى بالحرف الصغير : « مرفوعة إلى النجمة
 الصغرى في سماء العائلة » . ولن أترجم للقارئ ما كتبه أبو ماضى في مقالته هذه
 بامضاء « الجندى المجهول » ، بل أكتفى — لضيق المكان — بإيراد افتتاحية المقالة
 وكذلك ختامها كما خطها أبو ماضى بنفسه ، فهذا فى رأيى أجدى . قال :

« الدنيا أم » ، أجل ، والدنيا أخت أيضاً !

تشاءموا عند ولادتها ، أما أنا فقد قدست وأقدس وسوف أقدس الساعة التى
 قدستها بولادتها .

نعم ، إن أمى عنوان الحنان والحب والدموع ، ولا غرو ، فأنا ثمرة أحشائها ،
 وسند ضعفها ، وخادم هنائها وشيخوختها . أما أختى فتثال الانعطاف الفائق والدائم
 والشافى ، فى حين لست ثمرة أحشائها ، ولا سند ضعفها ، ولا خادم هنائها ،
 ولا رفيق شيخوختها . . .

الفتى « يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته » ، والفتى يهجر أهله وموطنه ومبادئه . . . من أجل أنانيته . أما الفتاة الأخت التى تسمى بنكران ذاتها على العصافير والأرواح والملائكة ، فطفل ، أينما كانت وحيثما تذهب ، تائقة إلى موطنها ، متلهفة لوالديها وإخوانها ، متعطشة أبداً إلى نسمة بلدها أو قريتها أو مزرعتها .

هى مثال تعاليم المسيح العلوية .

هى جمال الحياة المعنوية الروحية .

هى الأب والأم والأهل والوطن .

هى — هى أختى ! » .

ونحن لا ندرى المناسبة التى أوحى إلى إيليا بكتابة هذه الكلمة ، ولكننا نرجح أنها كانت زواج جنى ، كما توحى إلينا به المقالة .

أما المقالة الثانية ، فقد نشرت بعد عام ونصف على نشر المقالة الأولى ، بالعنوان نفسه ، مصدرة هذه المرة بصورة جنى . والمقالة مرثاة تفجع فيها إيليا على شقيقته حين وعده من لبنان خبر وفاتها ، وهى عروس ، إثر ولادتها الأولى .

وكان على قدر حبه لجنى مقدار تفجعه عليها .

كتب يناجيها ، ونفسه فى منتهى الألم والحزن :

« يا أختى !

جاء نيسان (أبريل) يبشر الناس بولادة الأزهار فى الحماثل والروابي ، وجاعنى بمصرعك ، وأنت أحب إلى من كل ريحانة وزهرة .

وجد الناس ربيعهم ، أما أنا فقد أضعت فى نيسان ربيعى .

ونبت الورد والبنفسج والأقحوان فى الحدائق ، وعلى ضفاف الأنهر ، وجوانب الغدران ، ونبت الشوك والعوسج والقتاد فى قلبى .

وكان بينى وبينك هذا الأقيانوس الذى تجتازه السفن الكبرى والصغرى فى أيام ، فأصبح بينى وبينك أوقيانوس لا يعبر بالسفن ولا بالطائرات فى دهور ، هو أقيانوس الأبدية .

لا أقول كما يقول الناس إن الموت جبار غشوم ، وظالم لا يرحم ، ولكني أقول إن الإنسان مخلوق ضعيف .
وأنا ، يا أختي ، إنسان .

وددت ألا أبكي ، وددت ألا أتألم ، فكأنني وددت أن أكون جماداً .
وما لي أن أكون كما أشاء لأن أمرى ليس في يدي ، وإن خالت أنه في يدي .
وددت ألا أبكي ، فإذا صوت خفي في نفسي يهيب بي ، كأنه يبرر
ضعفي : « لم خلق القلب إذا كان لا يتزلزل ؟ ولم خلقت الدموع إذا كانت
لا تسيل ؟ »

فأحنيت رأسي خاشعاً وبكيت !

مضى على زمان طويل بالنسبة إلى عمري ، أو إلى عمر الإنسان ، وأنا أعلل
الحياة والموت بما يعلمهما البشر ، ولكن في لحظة واحدة كلمح الوهم ، أضعت كل
ما عرفته من المقاييس العقلية ، وصرت كل قلباً دامياً يتوجع .
ذلك يوم قيل لي إنك انتقلت من الحيز الذي أنا فيه .

وكننت أحسب أن الدمع يجلب الدمع ، والأسى يجلب الأسى ، وأن في
ذلك السقم والضمنك والحسرة . ولكنني أدركت ، ويا هول ما أدركت ، أن الحزن
لا لغة له إلا الدموع ، وأنها ألفاظ لا توجد في المعاجم ، بل حيث القلوب الصديعة
والأرواح المعذبة ، وإنه إذا كانت قوة الألفاظ في اتساقها وانتظامها ، فقوة الدموع
في انفراطها وانتثارها . فأنا لو اجتمع لي كل ما في الكتب من صور المعاني ،
لما استطعت أن أترجم عن أيسر ما خامرني من الحزن عليك ، يا أختي ، فهو ليس
أسف النفس على ضائع ، ولكنه حزن يخالطه الخوف على حب فوجئ بالزوال .
هو جزع النفس على أسى وأعذب ما تحيا به وتسر ، على حب الأخت ، الذي
إذا ذهبت الأخت ذهب معها جزء من الروح ، وهو هذا الحب .

وطالما قال لي عقلي ، فأقنعني : « إن الحياة أول الموت ، وإن في الحجيء
الذهاب ، وفي الشروق الغياب ، وإن الموت غاية كل حي » . فكنت هكذا
أقول لكل من فجع بحبيب ، أو أصيب بنسيب ، لكي أصرفه عن اليأس .
ولكنني لما نعت إلى ، خذلني عقلي ، وخذلني لساني ، وأدركت أن ما كنت

أداوى به اليأس ، وأعالج به الجزع ، هو هو اليأس نفسه ، والجزع كله .
ذلك يوم تيمنت أنى . هذه الدنيا بلا أخت .

وكنت أقول لنفسي ، إن البكاء ضعف ، وإنه يهد عزم الباكي ، ولا يجدى
المبكي ، وإن بعض الدموع فى بعض المواقف إهوان . ولكنى لما فاجأتى النعى
لم أستطع أن أبحم جواد الدمع فبكيت . وكان دمعى سخيناً حاراً كأنما مقلتاى
ذبيحان يشخبان بالنجيع .

عجز عقلى عن ضبط العاطفة ، لأنه محدود ، وهى غير محدودة .
هى زوبعة لا تقيد بسلاسل .

هى نار سرمدية لا تكافح ولا تغلب .

لذلك لم يستطع العقل ، وهو السلطان الأكبر ، أن يمنعها من العويل
والصراخ ، وعجزت أنا عن أن أكون أصم .
ذلك يوم قال الناعى : ماتت « جنى » !

إننى أحس كأن الحزن يعتصر قلبى زفرات ، ويستقطره عبرات ، وأشعر
كأن روحى طائر مهيبض فى أشراك ، أو زهرة تخنقها الأشواك ، وكأنى لما بى من
الحزن عليك أرسف فى قيود من الحديد ، ولا قيود ولا أغلال . ولكنها الحشرات
فى النفس تثقل الخطى ، وتوهن القوى .

كنت . ذنباى كالحالم يرى نفسه سائراً فى المروج الخضراء ، لا يقع بصره
إلا على مشهد جميل ، ولا يطرق سمعه إلا صوت رخيم . فلما جاءنى نعيك استيقظت
لألمس الأشواك فى روحى ، وأحس بوخزها وأبكى .

عزيز على ، يا أختى المحبوبة ، وأنت أختى الوحيدة ، أن تكون هذه خاتمة
الرجاء بلقائك بعدما مرت السنوات على هذا الرجاء .

وعزيز على أن يغيب ذلك المحيا الوسيم تحت أطباق الثرى .
ووجيع أن يقف ذلك القلب عن الخفقان .

ولكنى على ما بى من الحزن المذيب أشعر أنك لا تزالين جزءاً من نفسى .
فأنت حية عندى ما دمت أنا حياً .

وأكبر ما يعزىنى هو أنك عشت كريمة ومت كريمة .

أنا لا أعرف ما بعد الموت ، وربما كان ليس لى أن أعرف . ذلك سر خفى ، ذلك هو اللغز الأكبر . ولكنى أعرف أن فى العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس . وفى كليهما تعزية للروح الكثيبة مثل روحى .

الأولى ، فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين إن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، أبهى وأجل ، وأسمى وأكمل ، وإن الموت هو الجسر الذى يعبر عليه الناس إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية ، هى فكرة الفلاسفة الذين يشبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان مادة ، وأن المادة لا تفسى ، وأن ما يكون اليوم ولا يكون غداً ، هو كائن موجود ، ولكن فى شكل غير شكله الأول .

فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التى لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أستق شجرة الأمل فى نفسى إلى أن تنطلق من قفصها الترابى ، فتلتقى روحى وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمناً بوجودك إيمانى بوجودى ، ولا أرى فى التحول بأساً عليك ، فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل ، لأنك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، وما فيك إلا الجميل الحسن .

سأعطف على الزنبقة فى الحقل لأنها نقية مثلك ، ولعل قطرات الندى اللامعة عليها بعض أمانيك .

وأفتح باب روحى للفجر لعله ابتسامتك .

وألثقت إلى البرق المتهلل ، منتبه الحواس ، لعله خطرة من خطرات روحك .

وأصغى بكليتى إلى النسيم السارى فى الرياض لعله يحمل أنفاسك .

وأميل بسمعى إلى كل طائر غرد لعله يردد اسمك .

وأستزير الأحلام فى الكرى لعل فيها خيالك .

سأراك فى الزهرة النظرة ، وقطرة الندى ، والفجر الضاحك ، والطائر

الغرد ، والكوكب المتألق ، لأنك كنت لى هذه كلها فى حياتك .

وسوف يتجدد حزنى عليك ما قال قائل : « يا أختى !! » .

هذه هى مرثاة إيليا فى جنى ، وهى فى الحق قصيدة عاطفية مثورة نلمس فيها مدى معزة إيليا لأخته ، وعمق الأثر الذى تركته وفاتها فى حياته .

(٣)

بقى أن نتحدث عن دوروثى ، المرأة الثالثة والأخيرة فى حياة أبى ماضى . ودوروثى ، أو « دورا » كما تُدعى تدليلا ، هى البنت الكبرى لنجيب موسى دياب وكاترين سابا . وهى أخت عابدة وسلمى وأولغا وأليس وجورج . تعرّف عليها إيليا عام ١٩١٨ ، حين عمل محرراً بجريدة والدها - جريدة «مرآة الغرب» النيويوركية ، ثم خطبها فى ٤/١٥ من نفس العام ، وبعد عامين اقترن بها فى ١٩٢٠/٤/٢٥ ثم وهو على وشك إتمام الحادية والثلاثين ، فأنجبت له رتشرد فى ١٩٢٢/٢/٢٣ ، وإدوارد فى ١٩٢٤/١/١٧ ، وروبرت فى ١٩٣٣/٥/١ ، وظلت إلى جانبه حتى وفاته ١٩٥٧ . فلا بد إذن أن يكون لدوروثى - وقد شاركت إيليا حياته أربعين سنة - أثرها فى حياة إيليا ، وبالتالى فى أدبه .

ولعله من المفيد ، قبل محاولة التعرف على دوروثى فى أشعار زوجها ، محاولة التعرف - قدر المستطاع - على أبى ماضى أيام عزوبته .

يظهر لنا من أشعار شاعرنا التى نظمها أيام الشباب الغض أنه كان شاباً مستقيماً ، لم يعاقر الخمر ، ولم يواصل النساء . اسمعه يقول عن نفسه ، فى أحد مطالعه ، وكان فى الثالثة والعشرين :

لا الغيد تصببني ، ولا الأقداح مهما تغالى فيهما المَدَّاح
واسمعه يقول ، وهو فى نفس السن :

أبت نفسى النزول إلى الدنيا ؛ وقلبي أن يميل إلى التصابي
فما دانيت أقداح الحميما ولم أهتم بغبنانية كعباب
وما منع الزهادة فى أنى حديد ناظرى ، غض لإهابى

وما كان الشباب ليزدهيني لأنى ما أمنت على شبابى
أضن به على الشهوات ضنى على «هند» بشعرى والـ «رباب»
ربيع العمر إن يذهب جزافاً أكن من بعده صفـر الوطاب
واسمعه يصف بعض أقران عصره ، وكان فى نفس السن أو دونها :

أهتهم الدنيا ، فهذا بالطلّى صب ، وهذا بالحسان متم
والخمر فاتكة ، فكيف بناعم ترف ، يكاد من النسائم يسقم ؟ !
قد أصبحوا وقفاً على شهواتهم يستسلمون لها ، ولا تستسلم
لم يفهموا معنى الحياة وكنهها إن البلية أنهم لم يفهموا
فليقلعوا عن غيهم ، إنى أرى خور الشيوخ بهم ، ولما يهرموا

واسمعه وهو فى الخامسة والعشرين يقول ، بعدما وصف تلك اللقاءات اللذيذة
البريئة التى قضاها مع حبيبة له فى « مسرح العشاق » :

ظن الأنعام بنا الظنو ن ، وما اجترحنا من نكير
قد صان بردتها الحيا ء ، وصاننى شرفى وخيرى
واسمعه مخاطباً « أخت المهابة » :

يا « هند » ، كم ذا الأنام تعذلنا وما أثمنا ، ولا بننا وزر
فابتدرت « هند » ، وهى ضاحكة : ماذا علينا ، وإن هم كثروا ؟
ذرهم ، وإن أجلبوا وإن صخبوا ولا تلمهم ، فها هم بشر
فقل لمن يكثر الظنون بننا : ما كان إلا الحديث والنظر

على أن مثالية أبى ماضى هذه فى حبه للمرأة ، كما تبديها لنا الأبيات السابقة ،
لا تنسجم وما جاء فى قصيدتين أخريين . قال فى « واقعة حال » ، وكان فى الثالثة
والعشرين أو دونها :

للوجد أضحى مسكناً قلبى ، وجسمى للضنى
وبات للآمال والـ آلام رأسى وطنى
فقدت صبرى فى الهوى ومهجتى ، والوسنى
وغادة ، لو قيل : من جن بها ؟ قلت : أنى

تَمْنَعُنِي الوصل كما يَمْنَعُنِي الدهر الهنا
عانقتها ، ولم أكن عانقت قبلا غصنا
وبت أجنى بفمى من فمها مثل المنى
والدهر عنها غافل ونحن في يقظتنا
ولا تسل عما جرى منها ، وكان بيننا

وقال في « حكاية قديمة » ، وكان في السابعة والعشرين :

وقربها منى وقربنى الهوى إلى أن ظننا أننا واحد فرد
كأنى ما ألصقت ثغرى بثغرها ولا بات زدى وهو فى جيدها عقد
ولم نشتمل بالليل ، والحنى نائم ولم نستتر بالروض ، والليل ممتد
ولا هنا شدو الحمام فى الضحى ولا ضمنا بيت ، ولم يحونا برّد

فكيف نفسر عدم الانسجام هذا ؟ أكثر الظن أن أبا ماضى كان أحد ثلاثة
فى هاتين القصيدتين : إما مقلداً ، وإما قاصّاً راوياً ، وإما شاطحاً بخياله .

استمع إليه فى « روح الصب » المجهولة يعارض أحمد شوقى (١٨٦٨ -
١٩٣٢) فى غزليته المعروفة « مضناك جفاه مرقده » ، وكان أبو ماضى وقتئذ فى
الثالثة والعشرين أو دونها :

أقوم الليل وترقده ؟ ظلم حاشاك تؤيبده
فارحم من بات على خطر وكفى بالهجر تهدده
ما ذنبى عندك ؟ ما وزرى ؟ قل لى فعساي أفندده
قسماً بالحب ، ومصدره عيناك ، وروحى مسورده
بالسحر ، وطرفك مكتمه بالورد ، وخدك مرقده
بالحسن ، وشخصك واحده بالشعر ، و « عبدك » سيده
ألا أشفقت على دنف قد أشفق منه عوده ؟
من كان رجاؤك يمسكه وأمسى واليأس يبيده
يطوى الأحشاء على حرق ويبيت أسى يتوسده
قمر كالرثم مقلده رثم كالغصن تأوده

وضَّاحُ الطَّلْعَةِ رَائِعُهَا
مَشْقُوقُ الْقَامَةِ أَهْيَفُهَا
أَوْشَكْتُ لِفَرْطِ مُحَاسِنِهِ
يَا رُوحَ الصَّبِّ وَمُهْجَتِهِ
أَيُّرُوقُكَ أَنْ يَفْنَى أَسْفَاً
مَرَّ طَيْفُكَ يَطْرُقُنِي سَحْراً
أَوْ عَدْنِي زَوْرَتُهُ وَامْطَلْ
بِسَامِ الثَّغْرِ مَنْضُدُهُ
مَفْلُوكُ الْخَصْرِ مَنْصَفُدُهُ
- غَفْرَانُكَ رَبِّي - أَعْبُدُهُ
مَا ضَرُكَ لَوْ تَتَعَهَّدُهُ ؟
فِي الْحُبِّ وَيَبْقَى حَسَدُهُ ؟
أَحْمَدُ مَوْلَايَ وَأَحْمَدُهُ
كَيْ أَقْضِيَ عَمْرِي أَرْصُدُهُ

واستمع إليه بعد هذا في « حكاية حال » المجهولة ، وكان في نفس السن
عندما نظمها :

فَضِمْتُ خَصْراً قَدْ حَكَى بَدَنِي
وَإِذَا بِهَا مِنْ قَحْطِي نَفْسُوتِ
قَالَتْ : أَرَأَيْكَ أَسَاتُ . قُلْتُ : إِلَى
قَالَتْ : وَثُمَّ طَمَعْتُ . قُلْتُ لَهَا :
قَالَتْ : وَمَا تَرْجُو ؟ قُلْتُ لَهَا :
مَا ثَمَّ غَيْرَ الْوَصْلِ مِنْ طَلَبِ
قَالَتْ : رَجَوْتُ الْمُسْتَحِيلَ ، إِذَا
فَأَجَبْتُهَا - وَالْدَمْعُ مَنْسَجِمٌ :
لَا تَعَجَلِي فِي قَتْلِ نَفْسِ فَتَى
فَتَحَوَّلْتُ عَنِّي ، وَقَدْ ضَحَكْتُ
وَتَقَدَّمْتُ ، وَالثَّغْرُ مَبْتَسِمٌ
فَأَعَدْتُ مِنْ وَلَهِي لَهَا قَبْلِي
وَهَصَرْتُ قَدْ خَلَتْهُ غَضَبُهَا
بِالْيَلَةِ سَمَحَ الزَّمَانُ بِهَا
مَازَلْتُ أَبْصُرُ مِنْ مُحَاسِنِهَا
حَتَّى انْجَلَى جَنَحُ الظَّلَامِ ، وَقَدْ
حَلِمَ ، وَمَا الدُّنْيَا سِوَى حَلَمِ

أَرَأَيْتُمْ طَيْفَا يَضُمُ هَبَا ؟
فَلَزِمْتُ عِنْدَ نِفَارِهَا الْأَدْبَا
جَسَدِي الَّذِي حَمَلْتَهُ التَّعْبَا
فِي الْعَفْوِ مِنْكَ ، إِذَا اللِّسَانُ كَبَا
لَا فُضَّةَ أَبْغَى وَلَا ذَهَبَ هَبَا
إِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يَقْبَلُ الطَّلِبَا
أَخْشَى عَلَيْكَ الْوَيْلَ ، وَالْعَطْبَا
وَاحْسَرْتِي ، إِنْ لَمْ أَنْلِ أَرْبَا !
مَا زَالَ غَضّاً يَافِعاً رَطْبَا !
ضَحَكُ الرُّضَى ، وَتَمَايَلَتْ عَجْبَا
فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفِ الْغَضْبَا
فَأَعَارَ قَلْبِي خَدَهَا اللَّهْبَا
وَرَشَقْتُ رِقّاً خَلَتْهُ ضَرْبَا
وَوَقَّتِي ، فَدَرَدَ عَلَيَّ مَا سَلْبَا
رَوْضاً ، وَمِنْ إِحْسَانِهَا سَحْبَا
هَجَمَ الصَّبَاحُ ، أَفْقَتْ مَكْثُهَا
يَا حَبِذا لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذْبَا

لاحظ محمد عبد الغنى حسن على أبى ماضى وهو يكتب عن « نفحات الحب ولفحات العشق فى أدب المهجر » ، لاحظ عليه « أنه لم يتناول « الحب » فى شعره عن تجربة ، ولم يعالج العشق عن خبرة ذاتية ، وإنما تناوله عن حكمة نظرية ، وفلسفة غير عملية » ، ثم قال : « ولعله كان مشغولاً بفلسفة العشق عن العشق ذاته » .

ولاحظ زهير ميرزا الشىء ذاته تقريباً ، فقال : « إن شعر الشاعر — فى مختلف القصائد والمقطوعات — لا يعدو ما نسميه « النسب » من حيث إنه يقول دون أن نستشعر عاطفة الشاعر الخاصة تجاه مخلوقة بعينها ، أو حبيبة وقف عليها حياته وشعره ، وكأن الشاعر الكبير لم يعرف الحب ، ولم يستوحه فى منظومه ! » .

أما نازك الملائكة ، فقد علقت على شعر أبى ماضى عامة بقولها : « إن القصيدة عنده فكرة قبل كل شىء ، والعاطفة بإزائها ثانوية تماماً ، حتى إننا لنفتقد شعر الحب فى ديوان « الجدال » (١٩٢٧) افتقاراً شبه تام » .

فإذا بحثنا عن الأسباب التى أفقدت شعر الحب عند أبى ماضى — أو كادت تفقده عنده — قد نجد أن أوجهها هو ذلك التحول الجذرى المبكر فى مفهوم أبى ماضى للشعر ، أو — إذا استشهدنا برأيه وهو يقدم لـ « ديوان نعمة الحاج ، الجزء الأول » ، عام ١٩٢١ — هو ذلك الانتقال الطبيعى من « دور المجانسة والتقليد » إلى « دور الابتكار والتوليد » الذى يمر به كل شاعر حقيقى .

فبعد أن شب أبوماضى بالمرأة زمناً ، ونظم « فى الغزل والنسب » ، وأفرده لهذا الفن باباً مستقلاً فى « ديوان تذكارات الماضى » (١٩١١) ختمه بالبيتين :

أنا إمام الذين هـاموا وأى قوم بلا إمام ؟
فليس قبلى ، وليس بعـدى ولا ورائى ، ولا أمـامى

نراه ينبذ هذه « الإمامة » ، وشعرها معها ، من أجل الشعر الحق . اسمعه يقول فى « ديوان إيليا أبوماضى ، الجزء الثانى » (١٩١٩) ، الذى كان صدوره قبل زواجه بعشرة أشهر :

أنا ما وقفت لكى أشب بالطلئ مالى وللتشبيب بالصهباء ؟
لا تسألونى المدح أو وصف الدى إنى نبذت سفاسف الشعراء

لم يفهموا بالشعر إلا أنه قد بات واسطحة إلى الإثراء
 فلذلك ما لاقيت غير مشبب بالغانيات ، وطالب لعطاء
 شقى القريض بهم ، وما سعدوا به لولا هم أضحى من السعداء
 بعد هذا القليل الذى استخلصناه من أشعار أبى ماضى عن عزوبته ، أحب أن
 أقدم للقارئ قصيدة لشاعرنا ، خفيفة الروح مجهولة ، ترتبط بموضوعنا ، أوحاها إليه
 شيطان الشعر لينشدها فى حفلة عرس صديق له . قال ، وكان فى السابعة والعشرين :

أوحى لى الشيطان قبل النوم	كيما أحدثكم حديث اليوم
باسم العريس سألتكم ، يا قوبى	أن تسمعوا ، فصياحكم ينكىنى !
إن كان أغضب بعضكم تنبيهى	فلسوف أرضيه بما أرويه
من غير تزويق ، ولا تمويه	ولسوف أخلط جدكم بمجونى
إنى محدثكم عن العزاب	وأخص منهم معشر الأصحاب
فأنا بهم أولى ، وهم أولى بى	الله يعطيهم كما يعطينى !
يقضون جل الوقت فى القهوات	يتحدثون بحسن كل فتاة
هذا عن الماضى ، وذا بالآتى	من غير تقدير ولا تخمين
فتظنهم من طحتهم والجمعجه	فى معمعان وغى ، ولا من معمه
لكنما ملأت رؤوسهم الجعه	فعلا صياحهم وسب السدين
فإذا بهم مرت فتاة تهـرع	باتت قلوبهم هوى تنقطع
فتألبوا من حولها وتجمعوا	مثل الجيوش على «كروبتكين» *
هذا يقول لها : أنا مضناك	لولاك ما عرف الهوى لولاك
ويقول ذا : إنى قتيل هـواك	كُفنى الصدود ، فنظرة تكفينى
ولربما اختلفوا من الأشجان	مثل اختلاف القوم فى «البلقان»
فتشامتوا جهراً بكل لسان	وتطاعنوا بالفرد والسكين !

* كروبتكين هو القائد العام للقوات الروسية فى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) .

ولقد تكون قبيحة شوهاء
 قد خلّفت أبنائها الأبناء
 وكبيرة في سنّها شمطاء
 فكأنما كانت مع « التكوين »
 فإذا علت صيحاتهم في إثرها
 حتى إذا هي خبرت عن عمرها
 فتنّتهم يجمّالها المصنوع
 ما كان جمعهم سوى مخدوع
 راحت تنيه على عجائز دهرها
 قفزت من الستين للعشرين !
 فتوهموا أن الجمال طبيعي
 لم يعشقوا ، والله ، غير دهن
 يتقاتلون ، ولوسألتهم : لما
 لو يعقلون لما غروا ، لكنما
 لا عقل عند الأعزب المسكين
 وهم وإن سكتوا ولم يتكلموا
 « كاد المرّيب أن يقول : خذوني ! »
 في الدهر بين مصائب وصعاب
 أخشى تثير شجونهم وشجوني
 كم أعزب بالسهد أنك جسمه
 حتى إذا ضم الفراش وضمه
 نام الوري عنه ، فأرق همه
 طلع الصباح فهب كالمجنون
 ليري ، ولكن كي يبالي رذنه
 في الروض بين الورد والنسر
 ما من ينفس كربيه ولو اختنق
 ما حال من أمسى بغير خدين ؟
 وحبائل الشيطان تنهب فضته
 يوماً ، فقد غنيت في الطاحون
 ما خاف أن يأوى إليها المجرم
 فالنار برد مع وصال العين
 ياقوم ، هذي عيشة العزاب
 وسوى أمور تركها أخرى بي
 رهن الشقاء ، فليس يفتح جفنه
 ويظل يقرع سنه ، ولو أنه
 ما من يرقع ثوبه إما انخرق
 لا تسألوني عنه إن جن الفسق :
 الليل والحانات تنهب صحته
 إن جثت تنصحه ليترك خطته
 تالله لو تحوى النساء جهنم
 بل كان يأثم كل من لا يأتّم

ما الخلد كثره الذى يتبجس كلا ، ولا لألاؤه والسندس
لكنه تلك الجوارى الكنس الموجدات حيننكم وحيني
ولذا أهنيء صاحبي بقبرانه وأود من قلبي إلى أقرانه
من غيد هذا العصر أو شبانه أن يخلدوا بالعسر والتمكين

كان أبو ماضى على وشك إتمام التاسعة والعشرين عندما طَلَّقَ العزوبة ليخطب فتاة أحلامه دورا فى حفلة بدار والدها . وتعذر على نذرة حداد - صديق إيليا الذى كان يكبره بثمانى سنوات - حضور هذه الحفلة ، فأرسل إلى إيليا قصيدة عتاب طريفة ، جاء فيها :

قالوا عقلت ، فقلت وا لهنى على ذاك الصديق
من كان يؤنس وحشتي فى وده الصافي الحقيقى
ولكى و خَلَّفَ مهجتي بين التمزق والحريق
من لى بمُرْجِعِهِ إلىَّ ولو برى المنجنيق ؟
أنسيت يا « إيليا » ليا لينا وأوقات الرحيق ؟
ومجالساً كانت تضىء بشعرك الزاهى الرقيق ؟
نسلو بها ألم الحيا ة ، وما بها من شرضيق
نشكو العزوبة إنما شكوى الغريق إلى الغريق
أسنى عليها إنها لمعت ومرت كالبروق
ماذا دعاك إلى النوى وإلى مغادرة الرفيق ؟
إنى عهدتك خالياً والقلب ليس بمستفيق
لا يعرف الحب المذير ب ولا ممارسة الخفوق
عُدْ يا صديقى عن الجفسا ء ، بحمرة الود العتيق
وارجع ، ولا تطع الهوى مازلت فى نصف الطريق
ليس الهزار وإن شدا فى سجنه مثل الطليق

فما كان من إيليا إلا أن بعث إلى نذرة قائلاً - على الوزن والقافية :

يا صاحبي « ندره » الحبيب وأنت لى أوفى صديق

لا ترميني بالعقو ق فليست بالخل العقوق
 ما إن صددت ولا جفوت ولا سلوت عن الرفيق
 لكن حقوق الحب عندي أذهلتني عن حقوق
 ياليت يجري في عروقه مثل الكؤوس بلا رقيق
 إن القلوب بلا هوى ككالطريق بلا رفيق
 « ندره » وأنت الشاعر الس إياك أن تعصى الغرام
 إن الشباب وأنت من أخلق به طرح الزها
 فاذهب وفتش عن فسؤا د مثل قلبك في الخفوق
 بين الأزاهر في الربى أو في الغمام والبروق
 وارجع بمن تهوى إلى وكن رفيق في الطريق

كان أبو ماضي إذن ، كما نراه ، من المؤمنين بالزواج ، المُحبِّذين له ،
 المقدمين عليه ، ومن المُنبِّهين أيضاً - في ذات الوقت - بعدم خلوا الزواج من
 بعض المنغصات ، في بعض الأحيان . اسمعه في القصيدة الآتية المجهولة ، التي
 نظمها قبيل خطوبته بشهرين ، يروى حديث أحد الأزواج التجار :

رأيتُه مرتبكا كغارق في لجة
 فقلت : مالصاحبي في قلق وجيرة ؟
 أخائف من نكبة أم واقع في نكبة ؟
 أجاب : لا هذا ولا ذاك ، إنما بلبي
 صبيحة طائشة كحيرة التعنت
 وضعتهـا في مكنتي فحكمت في « رقبتي »
 ثرثارة ، لسان الحياة مثل لسان الحيّة
 سخيّة وإنما بسننهي وفضتي
 تنفق ممّا أكسبه في سنة ، في لحظة

على حذاء ، أو على
 أو حليقة غريبة
 كأنها ، ولم تكن ،
 خادمتي ، لكنها
 كأنني خادمتها
 إذا رأيت مليحة
 عضت على بناتها
 وأقبلت ككاشرة
 تنظر نحوى مرة
 حتى أرى منزلتي
 وتستشيط ضيفتي
 كم مرة نصحتها
 تريد أن أحبها
 وما لها من شيمة
 لكنني أخافها

ثوب جديد « الموضة »
 في الشكل ، أو قبعه
 شريكتي في ثروتي
 تأمرني بسلطة
 كأنها سيدتي
 جالسة في غرفتي
 ورقصت كاللوجة
 عن نابها كالذئبة
 ومرة نحو الى . . .
 حقيرة في مقلتي
 فأستحي من ضيفتي
 فرفضت نصيحتي
 كما أحب مهجتي
 تكسبها محبتي
 خوفي من المنية

* * *

فقلت : سريري :
 لو أنني مكـانه
 فمال عني ضاحكاً
 وقال : ما أنصفتني
 يا صاحبي ، كلفتني
 إنني إذا طردتها
 وأن تسوء سمعتي

هذا رجل كالأمة
 طردتها من خدمتي
 مستهزئاً بفكرتي
 ولم تكن ذا فطنة
 ما ليس في مقدرتي
 أخشى من الفضيحة
 فإنها عقيلي !

آن لنا أن نرجع إلى دوروثي ، ونحاول التعرف عليها في أشعار زوجها . ولكن
 هذا التعرف لن يكون سهلاً ميسوراً . ذلك لأن إيليا تجنب تسمية دورا في أشعاره ،
 كما تحاشى الإشارة إليها صراحة . فعل ذلك لأنه - كبعض الأدباء - أحب أن
 يقرأ الناس له ، وكره أن يعرفوا عنه .

وقع إيليا في غرام دورا أوائل ١٩١٨ ، على ما يظهر ، فلما تسنى له الخروج معها والجلوس إليها منفرداً ، نظم غراميته « بلاء أم نعمة ؟ » ، وفيها عبّر عن هواه لها ، ووصف ، في أبلغ وصف ، تَرَدُّدهُ وَتَهَيَّيْبُهُ في لقائه الأول معها اسمعه يخاطبها ، وقد كنى عنها : « ابنة كولومبس » لمولدها الأمريكي :

أحبّ معانقةَ النرجس	لعينيك يا « ابنة كولومبس »
وأهوى الشقيقَ ولثمَ العقيق	لحدك والنفسَ الألعس
أعندك إن غبتِ عن ناطري	مشيتُ من الصبح في حندس ؟
وأن الظلام ، على هوله ،	إذا جئتِ حال إلى مُشمِس ؟
وفي الصدر قلباً ، ولا كالقلوب ،	متى شئت يسعد أو يتعس ؟
وددتُ الإفاضة قبل اللقاء	فلما لقيتُكِ لم أنبس
وبتُ وإياك في معزل	كأنّي وإياكِ في مجلس
ولو أن ما بيّ بالطـود دكّ	وبالأسد الورد لم يقرس
هممتُ ، فأنكرني مقولى	وشاء الغرامُ فلم أهجس
كأنّي لستُ أميرَ الكلام	ولا صاحبَ المنطق الأنفس
جلالك ، والليل في صمته ،	فلا غرو أن رحتُ كالأخرس

* * *

ومـرت بنا ساعة خلطنا	خلعنا الجسمَ عن الأنفس
وأنّا من السروض في جنة	وأنّا من العشب في سندس
كذاك الهوى فعله في النفوس	كفعل المدامة في الأروُس
تنبه فيها وفيّ الهوى	فلو نعس النجم لم ننعس
وكل فؤاد شديد العرام	إذا رضته بالهوى يسلس
فمات فطرقها ساعدي	منعمة بضعة الملمس
وإن العفاف لني بـردّها	وإن الإباء لني معطى
وقلت - وكنت في كفها :	ألا صرحى لى أوفاهمسى
بلاء هو الحب أم نعمة ؟	أجابت : تجلد ولا تياس

واسمعه يقول لها في غرامية أخرى :

عيناك والسحر الذى فيهما
علمتني الحب ، وعَلَّمْتُهُ
صيرتاني شاعراً ساحراً
بدر الدجى والغصن والطائرا
إن غبت عن عيني ، وجن الدجى
سألت عنك القمر الزاهرا

واسمعه يقول لها بعد خمس سنوات تقريباً من العيش معها ، وبعدما دهمتهما

معاً بعض الرزايا والبلايا :

تعالى نسرق اللذات ما ساعفنا الدهر
وما دمننا وما دامت لنا في العيش آمال
يريد الحب أن نضحك ، فلنضحك مع الفجر
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أويجى ؟
تعالى قبلما تطمر أحلامى الأعاصير

واسمعه يقول لها ، وقد جاء العيد :

أى شيء في العيد أهدي إليك
أسواراً ؟ أم دملجاً من نضار ؟
ياملاكى ، وكل شيء لديك ؟
أم خموراً ؟ وليس في الأرض خمر
لا أحب القيود في معصميك
أم وروداً ؟ والورد أجمله عندي
كالتى تسكين من لحظيك
الذى نشقت من خديك
والعقيق الثمين في شفتيك
ليس عندي شيء أعز من الروح
وروحى مرهونة في يديك

واسمعه يتحسر على أيام لوه معها في غابة زالت :

لله في الغـابة أيامنا
طوراً علينا ظل أدواحها
مما عابها إلا تلاشيها
وتارة نلوهو بأعنايها
وتارة عطف دواليها
وإن تضاحكنا سمعنا الصدى
نسير من كهف إلى جدول
وتختبى « هند » ، فأشتاقها
وأختبى عنها ، فأغريها

كم أوهمتني الحروف من طارئ
فرحت أعدو نحدوها مشفقاً
فأعجب لأطوارى وأطوارها
يا لهفة النفس على غبابة
جنة أحلامى وأحلامها
أنا كما شاء الهوى والصبا
تشجى بذنا نفسى ، فتشجيهما
فكان ما حاذرت تمويهها !
نعبث منى وأجاربهما !
كنت و « هند » لالتقى فيها
ودار حبي وتصايبها
وهى كما شَاءت أمانيهما

واسمعه يتلهف أيضاً على أيام جميلة قضاه معها فى ميلفورد بنسلفانيا :

هذه « مفرد » ، قد لاحت رباها
ذهبت عشرون فى فرقتهما
كم جلسنا تحت عمه فصافاتهما
نتناجى ويدى فى يدهما
أنا دنيا من شباب وهوى
أحسن الأيام فى العصر انقضت
فأنس ، يا قلب ، الليالى وأذاها
ليتها فيها انقضت لافى سواها
أشتكى وجدى ، وتشكولى هواها
فإذا لاح خيال نيلامى
وهى كالروضة قد تمت حلاها
آه ، لو ينشرها من قد طواها

على أن دورا لم ترد فقط بهذه الصورة السلبية فى أشعار إيليا . فقد جاءت

أيضاً وهى تلومه وتعاتبه ، وتدفعه وتناقشه ، وتذكره وتحادثه . قال :

لم أنس حين مشيت إلى تلومنى
قالت : أنطرب ، والمنايا حووم
انظر ، فقد خلت البيوت من الشبا
فسألته : أو ليس من أجل العلى
يا هذه ، إذا بكيت لبعدهم
كنى الملام إذن ، فما أنا جاهل
لم أرأنى بأسماً منهللاً
فى الأرض ، كيف رمت أصابت مقتلاً ؟
ب ولا جمال لمنزل منهم خلا
وهناثنا ، خاضوا الوغى ؟ قالت : بلى
يتسمون ؟ أجابت الحساء : لا
ما تعلمين ، وكيف لى أن أجهلاً ؟

كسل إيليا فترة عن قول الشعر ، فإذا بدورا له

قائلة : هجرت الشعر حتى
أتى زمن الربيع ، وأنت لاه
ونفسك كالصدى قاع بثر
تغنى بالسخافات المغنى
وقد ولى ، ولم تهتف بلحن
ومثل الفجر ملتحفاً بدجن

فما لك ليس يستهويك حسن
أنسكت ، والشباب عليك ضاف
ركود الماء يورثه فســــــــــــاداً
الأنثى ، اتركيني في سكوني
وتواني مرة أخرى ، فعادت

تعانيني على
اثنان مالاقيت أفسى منهما
فأجبتها: أفسى وأهل منهما ،
قالت : أظنك قد نسيت . فقلت : لا
وأخذت تسأله يوماً :

... أي المذاهب مذهبي ؟
وأي نبي مرسل أقتدى به ؟
وقامت تُذكره مرة :

و... في وجهها ألقى الضمخني
قالت : أينسى النازحون بلادهم ؟
ولا نستبعد أبداً أن تكون دورا — أيام كانت خطيبته — هي تلك « المليحة »
التي ساجلتها وجادلته في قصيدة « الشاعر » افتتاحية ديوانه الثاني . أما تلك المرأة
« المتجهمة » ، المرأة ، المتحيرة ، الواجمة ، الذاهلة ، في قصيدة (الدمعة الخرساء) ،
والتي حاول أبو ماضي تسكين روعها ، فإنها دورا زوجته .

لنقرأ تسكين إيليا لدورا بعد أن استمع إلى حديثها :
لا تجزعي ، فالموت ليس يضيرنا
إنا سنبقى بعد أن يمضي الـورى
فالحب نور خالد متجدد
فلنا إياب بعده ونشور
ويزول هذا العالم المنظور
لا ينطوي إلا ليسطع نور

فإذا طوتنا الأرض عن أزهارها وخلا الدجى منا ، وفيه بدور
 فسترعين خميلة معطبرة أنا في ذراها بلبل مسحور
 يشدولها ، ويطير في جنباتها فتش إذ يشدو وحين يطير
 أوجدولا مترقبا مترنما أنا فيه موج ضاحك وخريبر
 أو ترجعين فراشة خطارة أنا في جناحيها الضحى الموشور
 أو نسمة أنا همسها وحفيها أبداً تطوف في الربى وتدور

لقد أحب إيليا دورا امرأته حباً ألهمه أن يخلد شخصها في شعره ، كما خلد فيه أمه سلمى ، وأخته جنى في نثره . ولا ريب في أن تخليد أبى ماضى لنسائه الثلاث ، في أدبه ، إنما هو تخليد متواضع ، لا افتعال فيه ولا عيب ، وهو يعكس بحق ما دعا إليه ، عام ١٩٢٩ ، في مقاله « المرأة في الشعر العربي » ، حيث كتب :

« تقرأهم - وهم الشعراء الذين دقت أفهامهم ، وصفت أرواحهم - فإذا المرأة عندهم إما طرف كحيل ، وخد أسيل ، وشعر طويل ، وخصر نحيل ، وإما بدر يضحك عن لؤلؤ ، أو غصن يرفل في الخروبمشى ويتكلم ، أو ظبية تفرس الأسود ، وتشق بالحافظها القلوب قبل الجلود !

ثم تقرأهم - وهم العشاق الذين لطفت مشاعرهم ، وأثار الحب قلوبهم - فيشجيك منهم أنهم لا يرون في المرأة غير ما يراه منها شاب جاهل ينظر إليها من نافذة الهوى الفانى . فهم إما هاجرة تتجنى - ولا شيء فيها غير أنها هاجرة تتجنى يجب استعطافها واسترحامها ، وإما ممنوعة دونها الرقباء - فيجب ذم الرقباء والشكوى منهم ، وإما أنها دائية مطاوعة - ولا شيء غير أنها دائية مطاوعة .

أما قلب المرأة وما فيه من الأحاجى والأسرار ،

وأما وجدان المرأة وما فيه من الأشواك والأزهار والآصال والأسحار ،

وأما عواطف المرأة وهى تيار لا يتكشف إلا عن تيار ،

وأما نفس المرأة وما فيها من نور ونار ،

وأما المرأة نفسها وهى ذلك الكائن العجيب الجبار ،

فليس لها أثرين في الشعر العربي منذ كان حذاء وخبياً ورجزاً ، إلى أن صار قصائد وموشحات على كل وزن ولحن . . .

إن المرأة التي عرفت في الشعر العربي هي التي كان يمكن أن يقال عنها إنها جميلة . أما المرأة في أدوارها الأخرى - في طفولتها وكهولتها ، وأما البنت والأخت والزوجة ، فقد خلا الشعر منها إلا قليلا لا ينقع غليلا . . .

وكيفما عللنا هذا الأمر ، فإننا نرى في الشعر العربي القديم صورة صادقة للزمان الذي قيل فيه . ولا يعاب شعرهم على ما فيه من الفراغ الهائل من هذه الناحية . . . أما الذين يحق لنا أن نلومهم فهم الشعراء العصريون الذين ما برحوا يصورون المرأة في شعرهم - على ما بلغت وبلغوا هم من الحضارة - كما كان يصورها شعراء الجاهلية وغيرهم ممن جروا على آثارهم . . .

إن المرأة أكثر من وجهها ، وشعرها ، وخديها ، وثغرها ، وجيدها ، ونحرها ، وقامتها ، وخصرها . . . فليس أحق من الشعراء بالتنقيب عما في نفس المرأة وقلبها من الكنوز الثمينة . فإذا لم يفعلوا - وهم الأمراء في مملكة الأرواح - حق للناس أن يثوروا عليهم ثورة هوجاء تدحرجهم عن عروشهم ، لأنهم لم يحسنوا سياسة مملكتهم . . .

لقد نبأت المرأة مكانها في الشمس ، فيجب أن تتبوأ مكانها في الشعر .

(٤) الحزب الوطنى المصرى وأبو ماضى

(بمناسبة ذكرى مرور قرن على ميلاد مصطفى كامل)

(١)

يوافق ١٤ أغسطس (آب) من هذا العام ذكرى مرور قرن على ميلاد المصرى الخالد مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) . ولعله من المناسب فى هذه الذكرى الطبية ، عرض صفحة منسية ، أو بالأحرى مجهولة ، من حياة المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧) تتصل اتصالاً وثيقاً بـ « الحركة الوطنية » التى كان مصطفى كامل باعنها فى مصر . أوائل هذا القرن .

والحديث عن أبى ماضى والحركة الوطنية يبدأ بعام ١٩٠٠ ، عام شاءت الأقدار فيه لإيليا أن يهاجر عن لبنان ، وأن ينزل مصر . وكان إيليا إذ ذاك صبيّاً فى الحادية عشرة من عمره ، متفتح قلبه للحياة .

ونزول إيليا بشعر الإسكندرية ، فى هذه السن المبكرة ، وفى تلك الفترة بالذات من تاريخ مصر ، ترك فيه أثراً أى أثر . فقد عرضه لأشياء ما كان ليتعرض لها لو أنه بقى فى ضيعة المحيدثة الوداعة التى ولد بها ونشأ ، وأمضى فيها ما يزيد على عقد من الزمان .

كان أول ما تعرض له إيليا ، حال نزوله فى الإسكندرية ، حديث الناس المتواصل عن « الاحتلال » ، وعن « الجلاء » ، وعن « مصطفى كامل » ، وعن « اللواء » . وعلم الفتى مما سمعه ، وكذلك مما قرأه - فقد كان قادراً على القراءة - أن فى ١١/٧/١٨٨٢ ، ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية بمدفعه ضرباً متوالياً . فلما سلمت المدينة ، أبحر الأسطول شرقاً ، وعبر قناة السويس حتى وصل إلى الإسماعيلية . وهناك نزلت الجنود البريطانية وباغتت أحمد عرابى وجنوده ، ثم فتحت طريقها إلى القاهرة العاصمة ، ودخلتها فى ١٤/٩/١٨٨٢ . فكان الاحتلال ، وكانت تولية البريطانيين لأنفسهم على مصر حكماً .

ولم يمض وقت يذكر على إيليا إلا وقد عرف أيضاً أن « اللواء » الذى يتخاطفه الناس حال ظهوره فى المدينة إنما هو جريدة يومية سياسية ، لها فى مصر من العمر ما له فيها . فقد بدأت تصدر فى القاهرة فى ١٩٠٠/١/٢ . وعرف إيليا كذلك ، أن « مصطفى كامل » الذى يتردد اسمه على الألسنة ، إنما هو صاحب « اللواء » ومحرمه الذى يكتب جله من ترجمة وإنشاء ، وأنه مؤلف له رواية « فتح الأندلس » (١٨٩٣) ، ومجموعة أعمال بعنوان « مصر والاحتلال » (١٨٩٦) ، وكتاب « المسألة الشرقية » (١٨٩٨) ، وأن له مدرسة فى القاهرة باسمه يديرها بنفسه . وهو محام فى ٢٦ ربيعاً ، نال شهادة الحقوق من فرنسا عام ١٨٩٤ ، ولكنه لم يحترف المحاماة ، بل وقف نفسه على خدمة وطنه . ثم هو بليغ بالفرنسية بلاغته بالعربية ، كثير السفر إلى أوروبا - فرنسا خاصة - ليخطب على منابرها ، وليكتب فى صحفها ، داعياً رجال السياسة والقلم الأوربيين إلى تعضيد مصر فى مطالبها .

فوق كل هذا ، لمس إيليا أن لمصطفى كامل منزلة خاصة لدى الإسكندريين ، سجلوها للأجيال القادمة فى هذه العبارة المختصرة التى حفروها على وسام من فضة ، أهدوه إياه عام ١٨٩٦ ، والتى تقول : « برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية ، للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

لقد كان مصطفى كامل فى الثانية والعشرين عندما منحه الإسكندريون هلم الوسام ، وكان ذلك عقب أول خطبة سياسية له فى مدينتهم ، خطبة قال عنها يومها محرر « المؤيد » : « الأول التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور ، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس ، بعد أن مر على الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاماً » .

انتهى إلى إيليا اليافع كل ما سبق ، فى سنته الأولى بمصر ، فبدأ يعجب بالسياسى الشاب مصطفى كامل ، وبالحركة الوطنية التى تزعمها ، وبـ « اللواء » الذى كان حجراً أساسياً فى بنائها .

ومر عام ١٩٠١ ، وجاء عام ١٩٠٢ ، واقترح مصطفى كامل على صفحات جريدته الاحتفال بالعيد المئوى لتولية الشعب محمد على والياً على مصر . وأقيم الاحتفال فى الإسكندرية ، وحضره ثلاثة آلاف ونيف . ودعى إليه مصطفى كامل

للخطابة . فوقف يذكر المصريين بالمجد الذى كان لهم فى الماضى القريب ، وبالذل الذى صاروا إليه :

« نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلء ، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور ، أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة .. »
 هذه حياة محمد على ، لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والمستقبال ، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان ، وأنها تكون كذلك لو طرقت أبواب الاتحاد والوئام ، وسلوكوا مسالك العزم والإقدام .
 كلمات قوية ، نطق بها شاب ، كان لها دويها داخل مصر وخارجها .
 ثم مر عام ١٩٠٣ ، وجاء عام ١٩٠٤ ، ومعه جاءت « مدام جوليت آدم » لزيارة مصر ، بناء على دعوة من مصطفى كامل .

وأمل مصطفى كامل يومها أن يكون لزيارة الكاتبة الفرنسية الشهيرة مفعولها فى الأوساط السياسية ، عند عودتها إلى بلدها . ولكنه خذل . فأكاد يعضى شجر على مغادرة « مدام آدم » مصر ، إلا وكانت فرنسا تعقد فى ٨/٤ « اتفاقاً وديناً » مع غريمته بريطانيا ، تتعهد لها فيه بإطلاق يد بريطانيا فى مصر ، مقابل تعهد بريطانيا بعدم عرقلة أمور فرنسا فى مراكش .

ثم مر عام ١٩٠٥ ، وجاء عام ١٩٠٦ مليئاً بالأحداث .
 فى فبراير (شباط) أضرب طلبة كلية الحقوق عن الدراسة احتجاجاً على سياسة التعليم التعسفية التى فرضتها عليهم السلطات المحتلة .

وفى أبريل (نيسان) افتتح « نادى المدارس العليا » الذى كان « من أعظم مظاهر الوطنية » ذلك العصر . . . فيه ظهرت قوة الشبيبة ووحدةها . . . وفيه تأسست « جمعية رعاية الأطفال » ، وفى قاعاته اجتمعت وقتاً ما لجنة إنشاء « الجامعة المصرية » ، وفيه تأسست « مدارس الشعب » لتعليم العامة ، وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها ، وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية . . . وكان فوق ذلك معهداً قومياً لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها فى نفوس الجيل .

وفى مايو (أيار) وقعت « حادثة العقبة » (حادثة طابة) . فقد طلبت بريطانيا

من تركيا ، باسم مصر ، سحب جنودها من « طابة » عندما عازمت تركيا على مد خط حديدي إلى العقبة ، رآته بريطانيا يهدد مصالحها في مصر . فلما سحبت تركيا جنودها ، ضاعفت بريطانيا قواتها الاحتلالية ، وزادت في نفقاتها العسكرية التي كانت مصر في غنى عن تحملها .

وفي يونيو (حزيران) وقعت « حادثة دنشواى » ، تلك الحادثة التي لا تنسى في تاريخ الاحتلال . فقد بدأت بخروج خمسة ضباط بريطانيين إلى بلدة « دنشواى » للتسلل بصيد الحمام ، وانتهت بالحكم على « واحد وعشرين متهما : حكم بالإعدام على أربعة منهم ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة » .

وقعت الحادثة المحزنة يوم ١٣ ، ونفذت الأحكام الظالمة يوم ٢٨ ، ومصطفى كامل يستشفى في باريس . فلما بلغته الأنباء ، غضب ، وثار ، وقام يدافع عن مصر وأهلها بكل ما أوتي من قوة ، غير عابئ بما تتطلبه منه صحته . فكتب مقالة بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » ، نشرتها جريدة « ل فيجارو » الفرنسية ، فصل فيها وقائع الحادثة وملايساتها ، وإجراءات المحاكمة ، وفضاعة تنفيذ الحكم ، وبعدها قال ما ترجمته :

« جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الإنسانية ، ماثلين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط ، إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة ، أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية في أعين العالم كافة !

جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون - بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاماً - إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية - بل أكثر من همجية - ليحكموا مصر ، ويعلموا مصر ماهية كرامة الإنسان » .

لقد « كانت هذه المقالة - كما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي - هي في ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية » .

ثم جاء عام ١٩٠٧ ، فاستقال « لورد كرومر » - أو بالأحرى أقيل - من منصبه كحاكم مصر ، ليخلفه « سير إلدن غورست » . أما مصطفى كامل ، الذي كانت شهرته وقتئذ قد بلغت الآفاق ، فيراه المصريون يصدر في القاهرة ، إلى جانب « اللواء » القديم ، « لواءين » جديدين بلغتين عالميتين : « ل تاندار إيجيبيان » بالفرنسية ، و « ذى إيجيبيان ستاندرد » بالإنجليزية ، ليتمكن من إيصال كلمة مصر إلى أبعد مدى .

ويرويه كذلك في نهاية العام يقف لآخر مرة في الإسكندرية ، أمام سبعة آلاف حاضر ، ليلقي أهم خطبة ألقاها في حياته ، ويختتمها داعياً « كل واحد منكم للدخول في « الحزب الوطني » حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر » .

ولكن العلة التي كانت قد تملكك من جسم مصطفى كامل لم تمهله أن يعيش طويلاً ليدعم حزبه بعد هذه الدعوة . ففي ١٠/٢/١٩٠٨ أسلم الروح ، بعد أن أهلك جسمه جهاده المستميت في سبيل مصر ، وكان في ربيع الرابع والثلاثين . فحزن عليه المصريون حزناً لم يحزنوا مثله على سياسي قبله . فكان البكاء ، وكان الرثاء ، وكان إيليا ظاهر أبي ماضي من الباكين ، ومع الرائيين .

بكيت ، ولكن بالدموع السخينة
على « الكامل » الأخلاق ، والنذب « مصطفى »
نعاه لنا الناعي ، فكادت بنا الدنى
وذابت قلوب العالمين تلهفاً
أجل ، قد قضى في « مصر » أعظم كاتب
فتى ، وأبى ، لو أن في الناس مثله
ولو كان يُفدَى بالنفوس من الردى
فتى مات غض العمر ، لم يعرف الحنا
وقد كان مقداماً جريئاً ، ولم يكن
وكان جواداً ، لا يضمن بحاجة
سلام على « مصر » الأسيفة بعده
وما نفدت حتى بكيت بمهجتي
فقد كان زين العقل ، زين الفتوة
تميد لهول الخطب ، خطب المروءة
وسالت دموع الحزن من كل مقلة
فخلف في الأكباد أعظم حسرة
هان علينا وقع هذى الرزية
جعلنا فداه كل نفس أيبه
ولم ينظروا في نفسه حب رية
ليبغى الردى غير النفوس الجريئة
لذلك أعطى روحه للمنيعة
فقد أودعت آمالها جوف حفرة

خطيب «بلاد النيل» ، مالك ساكتاً
تطاوات الأعناق حتى اشربت
نعم ، كنت لولا الموت فارج كربها
تفطرت الأكباد حزناً كأنما
وما حزنت أم لفقد وحيدها
تناديك «مصر» الآن ياخير راحل
عهدتك تأبى دعوة غير دعوتى
فقدتلك رياناً ، فيا طول لهفتى
أجل ، طالما دافعت عن «مصر» مثلما
فأيقظتها من رقدة بعد رقدة
وقويت فى أبنائها الحب نحوها
رفعت «لواء» الحق فوق ربوعها
لئن تك أترعت القلوب محبة
فم آمنناً وفيت قومك قسطهم
سبقت لك التاريخ ذكراً مخلصاً
عليك من الرحمن ألف تحية

وقد كنت تلقى خطبة إثر خطبة ؟
فهل أنت مسديها ولو بعض لفظه ؟
فيا للردى من غاشم متعنت
مما لك سهم حل فى كل مهجة
بأعظم من حزنى عليك ولو عتي
ويا خير من يرجى لدفع الملمة
فما لك تأبى «مصطفى» كل دعوة ؟
لقد كنت سيقى فى الخطوب وجنتى
يدافع عن مأواه نحل الخلية
وأنهضتها من كبوة تلو كبوة
وكنت لهم فى ذاك أفضل قنودة
فضم إليه كل ذى وطنيسة
فإنك لم تخلق لغير المحبة
فيا طالما ناموا وأنت ييقظهم
فقد كنت خير الناس فى خير أمة
ومن أرض «مصر» ألف ألف تحية

(٢)

أحدثت وفاة مصطفى كامل فراغاً هائلاً فى الحركة الوطنية سرعان ما ملأه
رجلان قديران ، كان محمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) واحداً منهما .
ومحمد فريد - كما يقول لنا مؤرخنا الراحل - « زميل مصطفى المخلص ،
وصديقه الوفى ، وعضده الأكبر فى بعث الحركة الوطنية . لازمه وأيده فى جهاده
(منذ تعاها عام ١٨٩٦) ، وبذل له ما بذل من العون الأدبى والمادى ، وظل
وفياً له طول حياته . وقد صحبه فى كثير من رحلاته ، واجتمع بها معاً برجال السياسة
والصحافة وكتابها المشهورين ، وناب عنه خلال صيف ١٩٠٧ فى الإشراف على
« اللواء » وإدارة جريدتى « ليتندار إيجيپسيان » و « ذى إيجيپسيان استاندرد » حينما

سافر مصطفى إلى أوروبا ، وكان يراه خير خليفة له في قيادة الحركة الوطنية ، فاختره وكيلا للحزب الوطنى فى أول جمعية عمومية له (انعقدت فى ١٩٠٧/١٢/٢٧) ، وأوصى بانتخابه رئيساً بعده .

فلما انتخب محمد فريد رئيساً للحزب فى ١٩٠٨/٢/١٤ ، كان أول عمل قام به لإرسال برقية إلى «سير إدوارد جراى» ، وزير خارجية بريطانيا ، ينبئ فيه بأن : « الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيساً بدل المرحوم مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى بأن أجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تنى إنجلترا بوعودها » .

واتضح لبريطانيا ، أن الحركة الوطنية التى أمّلت لها الخمود بموت مصطفى كامل لن تمحى ، بل ستشتد ، ولهذا قررت أن تقاومها بـ «سياسة الوفاق» التى قوامها التعاون بين «سير إدوارد غورست» ، حاكم مصر الفعلى ، وبين الخديوى عباس حلمى الثانى (١٨٧٤-١٩٤٤ ، حكم ١٨٩٢-١٩١٤) ، حاكمها الشرعى . وتصدى محمد فريد لهذه السياسة فى خطب ومقالات ، كان بعضها شديداً للهجة ، أخرجت الخديوى والاحتلال معاً ، كما واصل أيضاً سياسة سلفه ، فسافر إلى أوروبا فى ١٩٠٨ وفى العامين التاليين ، للدفاع عن قضية مصر .

على أن أهم سفره قام بها محمد فريد للدعاية لمصر فى الخارج ، بعد ما تولى رئاسة الحزب ، كانت سفرته عام ١٩١٠ . إذ أنه فى هذه السفره — كما لخصها الرافعى — « ظل بعيداً عن الوطن نحو ثمانية أشهر قضاهما متنقلاً بين عواصم أوروبا ، مجاهداً مدافعاً عن القضية المصرية . . . فقد وقف خطيباً فى باريس ، ثم فى ليون ، ثم فى لندن ، يعلن للرأى العام حقيقة المطالب الوطنى ، ويرجم عن آمال مصر ، ويدافع عن حتمها فى الحرية والاستقلال . ثم حضر مؤتمر السلام فى استوكهلم ، ورفع صوت مصر بين مجموعة الأمم التى اشتركت فيه ، ورجع إلى باريس يعد معدات المؤتمر الوطنى الذى اعترم عقده فيها ، حتى إذا منعت الحكومة الفرنسية بادر إلى عقده فى بروكسل . وبعد انتهاء المؤتمر عاد إلى باريس ، ثم قصد إلى ألمانيا ، ليعت المسألة المصرية فى صحافتها ودوائرها السياسية ، وعرج على الأستانة لكى يُحكّم روابط الود بين مصر وتركيا ، ويحبط مساعى إنجلترا فى دفع تركيا إلى إيليا أبو ماضى

الاعتراف بالاحتلال ، هذا إلى أحاديثه في مختلف الصحف الأوربية ، ومقالاته في الصحف المصرية عن مشاهداته وخواطره وملاحظاته في رحلاته ، وما تضمنته من الدروس الوطنية والآراء السديدة .

ويتابع الرافعى كلامه عن محمد فريد فيقول : « قام الزعيم بهذه الجهود الموفقة مدة غيبته عن الوطن ، فلا غرو أن قوبل من الشعب عند عودته بأعظم مظاهر التقدير والخفاوة ، فاستقبله المواطنون بالإسكندرية استقبالا رائعا يوم ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) على ظهر الباخرة ، وعلى رصيف الميناء ، وفي الطريق إلى فندق « متروبول » على شاطئ البحر ، ثم منه إلى المحطة حيث استقل القطار في اليوم نفسه ، وهناك احتشدت الجماهير ، وتعاقب الخطباء يشكرون الزعيم على جهاده للوطن » .

ولقد حركت عودة محمد فريد من أوروبا شعور أبى ماضى الشاب ، كما حركت شباباً كثيرين ، فنظم القصيدة التالية المجهولة التى أنشد زعيم الحزب إياها ، فى محطة السكة الحديد بالإسكندرية ، إعجاباً به :

اليوم يذهب هم جد فى طلبى	حتى عييت وحتى كاد يذهب بى
حييت من آتب لولاه ما حفلت	بالأنس نفسى ولا اشتاقت إلى الطرب
أقسمت ما الروض فى إبان نصرته	إذ مسرح الطرف بين النور والعشب
ولا الغزالة تبدو للعيون ضحى	كأن أسلاكها صيغت من الذهب
أبهى وأجمل مرأى منك منقلباً	غب اغترابك عنا خير منقلب
لأنظمن القوافى فىك أبدة	كالشمس ، خالدة كالدهر والحقب
أنت الهمام الذى فى الله رحلته	والحق ، لا فى سبيل اللهو واللعب
جبت المخاطر والأهوال مغترباً	يالىت مثلك منا ألف مغترب
يعتدو بهم فى فجاج الأرض ذو لجب	والفلك تجرى بهم فى البحر ذى العيب
إذ ذاك تبلغ « مصر » ما نحن له	وبصبح « النيل » فى أمن من العطب
لله درك فى حـل ومـرحـل	ودر سعيك فى بعد وفى قرب
طوراً خطيباً على الأرواح محتكماً	بالسحر يأخذها فى صورة الخطب
إن شاء طابت عن الأيام راضية	وإن أبى امتلات سخطاً ولم تطب

وتارة ذا يراع دونه خطراً
أطاعه كل معنى رائق حسن
ومن رسائل تزجيتها مديحة
ما كنت أبغى إذا كنى بها ظفرت
تعنى بـ «مصر» ومن أبنائها نفر
إن يطلبوا عندها فخراً فقد خدعوا
أو يبتغوا زينة فيها فقد وهموا
فليتقوا الله في «مصر» بسلامهم
بات المرائي مع الحمار يسلبها
حاتم صنوف الرزايا حولنا فرقاً
لولا الشيبية ما طاف الرجاء بنا
جزيت عن «مصر» خيراً لأنها بلد

إذا انتضاه شبا الصمصامة الحذب
واختاره كل لفظ شائق عجب
كالخور ترفل في أثوابها القشب
مطارف الخز ذات الوشي والعصب
تعنى بهم ، وهم يعنون بالرتب
الفخر بالفضل ليس الفخر باللقب
ما زينة المرء غير العلم والأدب
« كنانة » الله ذات المجد والحسب
هذا العقول وذاك خالص النشب
وأصبحت «مصر» في سور من الريب
وحسن سعيك ما حنت إلى أرب
لا يحصد الشوك فيه غارس العنب

(٣)

تطلع محمد فريد حوله ، عام ١٩٠٨ ، بعد أن أصبح رئيساً للحزب ، إلى رجل يتابع معه نضاله الوطني ، ويحمل عنه أعباء رئاسة تحرير جريدة « اللواء » وإدارة سياستها ، فلم يجد أكفأ من الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٢ - ١٩٢٩) الذي تعرف عليه ، عام ١٩٠٥ ، في مدينة الجزائر ، في أثناء انعقاد مؤتمر المستشرقين ، والذي كان يعمل ، منذ ١٩٠٦ ، مفتشاً في وزارة المعارف .

والشيخ جاويش من عائلة بنغازية . ولد ونشأ بالإسكندرية ، حيث درس أيضاً في جامع الشيخ إبراهيم . فلما بلغ السابعة عشرة ، انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر ثم بدار العلوم . فلما تخرج عين مدرساً .

غير أن الشيخ جاويش ، ذا الثقافة الإسلامية العربية ، ما لبث أن تعرض بعد ذلك للثقافة « الأنجلوساكسونية » مدة سنواته التي قضها دارساً في جامعة « برورود » أولاً ، ومدرساً في جامعة « أكسفورد » ثانياً ، فأضاف بهذا إلى علمه بطبيعة البريطانيين كمحتلين ، خبرته إياهم كشعب وكفكرين .

ولم يكن الشيخ جاويش ، حتى إسناد إدارة جريدة الحزب الوطنى إليه فى ١٩٠٨/٥/٣ ، عضواً فى هذا الحزب ، ولكنه - كما يقول سالم عبد النبى قنير فى كتابه القيم عن الشيخ - « كان من القوة والصلابة بحيث استطاع ، فى وقت قصير ، أن يبعث القلق فى نفوس القائمين على مصالح الاحتلال فى مصر ، ويدفعهم إلى محاكمته ، ولما يمض الشهر الأول لتوليته تحرير « اللواء » ، فى قضية سياسية ، كانت من القضايا المهمة فى ذلك العهد » .

ذلك أنه على أثر قيام فتنة الشيخ عبد القادر ، بناحية « الكاملين » بالسودان ، وقتل عدد كبير من أتباع هذا الشيخ ، وجر عدد آخر إلى المحاكمة ، كتب جاويش فى « لواء » ١٩٠٨/٥/٢٨ ، مقالة بعنوان « دنشواى أخرى فى السودان : ٧٠ مشوقاً و ١٣ سجيناً » ، تلاها فى عدد ٥/٣١ بمقالة « الحكم على أتباع الزعيم عبد القادر » . وقرأت لندن المقاتلين ، وأبرقت فى الحال إلى القاهرة بمحاكمة جاويش . فاستندعى الرجل ، وحقق معه ، وصدر فى ٧/٨ الحكم ببراءته من تهمة الخبر الكاذب فى المقالة الأولى ، وبمعاقبته بغرامة قدرها عشرون جنيهاً عن تهمة إهانته وزارة الحربية فى المقالة الثانية .

ولم يرض جاويش عن الغرامة فاستأنف ، كما استأنفت النيابة لقلّة العقوبة . وكان نتيجة الاستئناف أن حكمت المحكمة ببراءة جاويش من التهمتين ، وعلى هذه البراءة يعلق الراقى فيقول : « كانت هذه القضية فوزاً كبيراً للحركة الوطنية ، وجاء الحكم فيها ضربة شديدة أصابت هيبة الوزارة » .

ولا يمر عام على هذه القضية حتى تستدعى النيابة جاويش ثانية ، وتقدمه للمحاكمة على ما جاء فى مقالته « ذكرى دنشواى » التى نشرها فى « لواء » ١٩٠٩/٦/٢٨ . وبعد سماع مرافعة النيابة ودفاع الشيخ ، حكمت المحكمة ، فى ١٩٠٩/٨/٥ ، على الشيخ بغرامة قدرها أربعون جنيهاً . وأعاد الشيخ الكرة ، فاستأنف الحكم ، كما استأنفته النيابة كذلك . ولكن ، كم كانت دهشة الشعب واستيائه عندما سمع هذه المرة ، أن محكمة الاستئناف قضت ، فى ١٩٠٩/٨/٢٥ ، بتعديل حكم الغرامة إلى حكم بالحبس ثلاثة أشهر ، وبأن نقض هذا الحكم الاستئنافى قد قضى برفضه أيضاً فى الشهر التالى .

وتتعمد الوزارة ، فترسل ، يوم ٨/٢٥ بالذات ، إنذاراً إلى « اللواء » بخصوص مقالات شديدة كانت الجريدة قد نشرتها مؤخراً . وكان هذا الإنذار أول إنذار صادر لصحيفة ، بعدما أحيت الوزارة ، قبلها بخمسة أشهر بالتمام ، « قانون المطبوعات » القديم ، المقيد لحرية الكتابة .

لهذا ثار الرأي العام ، وبعث ببرقيات احتجاج ملأت أعمدة صحف الحزب الوطني ، كما « بادر الشعراء إلى إبراز مشاعرهم وعطفهم على الحركة الوطنية ، وما أصابها من الاضطهاد في شخص الشيخ جاويش » .

ولم يكن إيليا ظاهر أبي ماضي أقل وطنية ، في هذه المناسبة ، من أحمد نسيم أو الشيخ علي الغاياني مثلاً . إذ أننا نجد ينظم قصيدة تنشرها « اللواء » في ٩/٤ ، تحت عنوان « إلى بطل الوطنية » ، خاطب فيها عبد العزيز جاويش في سجنه قائلاً :

لئن حججوك عن مقل البرايا	فما حجبوا هواك عن الصدور
وإن تلك قد حبست وأنت حر	فكم في الحبس من أسد هصور
كبير القوم أكثرهم خطوباً	لذاك رميت بالخطب الكبير
لقد أعليت قدر السجن حتى	أحب السجن سكان القصور
ولا عجب إذا أسكنت فيه	فكم في الليل من قمر منير
تعددت الطيور فلا حبيس	سوى الغرد الجميل من الطيور
يقول الشامتون : « السجن يزرى »	لئن صدقوا فبالخاني الكفور
وما في صحبة الأشرار عيب	على الداعي إلى ترك الشرور
فصبراً يا نزيل السجن صبراً	فما عرف الهناء سوى الصبور
وحسبك عطف هذا الشعب فخرا	وحسب عداك توبيخ الضمير

وازداد الشعب عطفاً على الشيخ جاويش ، فتبرع الكثيرون لعمل وسام ذهبي مرصع بالأحجار الكريمة ، قلده إياه « اعترافاً بوطنيته الصادقة » في احتفال أقاموه له يوم خروجه من السجن .

على أن السجن الذي ودَّعه جاويش فجر ٢٢/١١/١٩٠٩ ، عاد ففتح

للشيخ أبوبه ، في ٧/٨/١٩١٠ ، ليقضى فيه ثلاثة أشهر آخر ، عقاباً له على كلمة « الشعراء » التي قرط بها ديوان « وطنيتي » للشيخ علي الغاياني ، أحد محرري جريدة « اللواء » .

والحق أن هذه الكلمة التي ظهرت أولاً في جريدة « العلم » بتاريخ ١٦/٦/١٩١٠ ، ثم صدر الغاياني بها ديوانه عند نشره ، لم تكن لتستحق محاكمة وعقوبة ، ولكنها حكومة محمد سعيد التي قرأت في تقرير الأستاذ الشيخ ، وفي تقرير محمد فريد لنفس الديوان أيضاً ، أشياء لا نقرؤها نحن في التقارير .

وخرج جاويش من سجنه في ٤/١١/١٩١٠ محفوفاً بالحفاوة ، لتصله ، ضمن التهانى ، قصيدة من أبى ماضى المعجب به ، عنوانها « نجوى شاعر » ، جاء فيها :

« عبد العزيز » تحية من شاعر	ما قال إلا أطرب الجمهورا
إن شاء زف لك اللآلى أحرفاً	أو شاء ساق لك النجوم سطورا
ففسى فداؤك ، وهى نفس حرة	تأبى الهوان وتكره التصغيرا
لما حبست حبست طرفى أن يرى	وكنمت من ألم الفراق سعيرا
قالوا : « شهور لا تطول وتنقضى »	يا ويحهم سما السنين شهورا
لا غرو إن طال الزمان مع الزوى	ليس اليسير مع البعاد يسيرا
ما شان قدرك منزل أنزلته	أنى أقام الحر كان كبيرا
فلقد وجدت السيف يقطع مغمداً	حذراً ، ويقطع حده مشهورا
والبدر يجمل سافراً ومقنعاً	والليث يعظم مطلقاً وأسيرا
حتام يشمت حاسدوك ولا أرى	لهم على أيامهم تخيسيرا
مادام هذا الدهر يعقب صفوه	كدرأ ، ويعقب عسره التيسيرا
لا يسلم الإنسان من آفاته	حتى يكون مع الأثير أثيرا
فاصفح عن الواشين شيمة قادر	فلأنت أسمع ما تكون قديرا
وأعد إلى الأقلام سالف مجدها	وإلى الصحافة عزها المشهورا
وانفض من الأحقاد أفئدة الورى	واملاً قلوب الناشئين شعورا

(٤)

كانت الفترة التي عاشها أبو ماضي في مصر فترة تكوينه العقلي ، كما كانت فترة تكوينه البدني . فإن الصبي ذا الحادية عشرة الذي نزل البلاد غرا عام ١٩٠٠ ، ودَّعَها عام ١٩١١ شابا في الثالثة والعشرين ، وقد تحدت معالم فلسفته للحياة بمفاهيمها الاجتماعية والسياسية . وكانت الفترة ذاتها فترة تكوين الحزب الوطني . فإن هذا الحزب الذي كان موجوداً فعلاً في مصر منذ ١٨٩٤ - كما ذكر مصطفى كامل - أصبح عام ١٩٠٧ حزباً رسمياً منظماً ، له لائحته ، ورئيسه ، ومجلس إدارته ، وأعضاؤه .

فكان أبا ماضي كان على موعد مع الحركة الوطنية لينمو وإياها في وقت واحد ، حتى إذا ما بلغت هي كمالها ، وبلغ هوسن الرشد ، اختار أن يكون لها . وكيف لا ، والحركة حركة الشباب ، وحركة الأغلبية الشعبية التي هو منها ، وقضية مصر قضية عادلة إلا - كما قال هو - « معترض في قلبه مرض » . فوق هذا ، كان لمصر على أبي ماضي حق : فإنها استضافته ، فترعرع بين ربوعها ، ونعم بنجرها ، وطال مقامه فيها لأن أهلها قوم كرام ودادهم على الأيام باق وجارهم عزيز لا يضمام فلا عجب إذن ، أن يتعلق بها ، ويعطف عليها كواحد من أبنائها ، ويعمل شيئاً من أجلها ليرد إليها بعض جميلها .

سمع الإسكندريون أبا ماضي مرة يلتقي بحماس ، في احتفال ، قصيدة جاء فيها هذه الأبيات التي تذكرنا كلماتها وموسيقاها بالأناشيد الوطنية :

أيا « مصر » أفديك بالأنفسين بروحي وما ملكته يدي
أحبك حتى تجف البحار وعمشى الفناء إلى الجلمد
وما أنا وحدي الحب الأمين فكم بي في الناس من مقتد

ونسلمه ، ونحن نقرأ في « ديوان تذكارات الماضي » ، يخاطب النيل بعدما ملأ هذا النهر الخالد نفس شاعرنا هيبة ، لإثروقفه على شاطئه ، فيقول له :

وما أنا بالعبد الذى يرهب العصا
أيا «نيل» فامنحنى على الحق قوة
وهبنى بأساً يسكن الدهر عنده
ثم ينتقل أبو ماضى بعد هذه الأبيات إلى وصف المحتل الظالم وعونه ، وإلى وصف
شعب مصر المظلوم ، فيقول :

ف «غورست» فى «مصر» يسدد سهمه إليه ، و «قناص الوحوش» يضافره
يلجون فى إعناته ، فإذا شكوا يصيحون : إن الشعب قد ثار ثائره
لقد هزأوا لما تنبه بعضه ، فلم ذعروا لما تنبه سائره ؟
رعى الله من أبنائه من يذود عن حماه ، ومن أضيافه من يظاهاه
هم بعثوا فيه الحياة جديدة فشدت أواخيه ، وعزت أواصره
وهم أسمعوا الأيام صوتاً كأنما هو الرعد تدوى فى السماء زماجره
وهم أطلقوا أقلامهم حين أصبحت مكبله أقلامه ومحابرهم
كذلك إن يعدم أخو الظلم ناصرأ فلن يعدم المظلوم حرأ ينصره
ونسمعه كذلك فى قصيدة « عام ١٩١٠ » يقول :

إن لم أزد عن أرض «مصر» موقفاً أودى بآمالى الزمان موقفاً

ولقد دهش بعضهم وقتها من موقف أبى ماضى هذا ، ومن اندفاعه فى الدفاع
عن بلاده لم يولد فيها ، ولا يدين بدينها ، ومن إيمانه الصادق بإرادة شعبها ، فاستنكر
عليه الأمر ، و « وافى يسوق إليه التعنيف والعذلا » ، ويسأله :

حتام تدفع عن « مصر » ولست لها بابن ولا ناقة تبغى ولا رجلاً ؟

ولكن أبا ماضى الشاب العاقل المتزن لم يأبه بهذا اللوم ، ويقول لنا :

فلذت بالصمت حتى لاح لى علم ضاف تداعبه أيدى الصبا جذلا
وقلت : انظر ! فولى شطره فرأى رسم الهلال ، فوارى وجهه خجلا
وعدت أرئى له مما ألم به وعاد يعثر فى أذباله خيلا

ويمضى أبو ماضى فى نظمه لينقل إلينا فى الأبيات التى تلى هذه جوابه على سؤال
أحد الياسين المتخاذلين :

وقائل : كيف ترقى « مصر » ؟ قلت له : حسب « الكنانة » شعب يعشق العمال
 يقظان لا جزعاً مما يحاذره فمن يخف فشلا في سعيه فشلا
 ثبت العزيمة لا يلوى بهمته كيد الطعام ، ولا بعد المرام ، ولا
 شعب يسابق نحو المجد هاجسه إلى وجدت التواني يخاق الكسلا
 شعب أحب إليه الموت محترماً من أن يعيش طوال الدهر مبتذلاً

(٥)

كان أبو ماضى واحداً من أولئك الشعراء الذين عرفوا ما لـ « فنهج الجميل »
 من فاعلية في تحريك النفوس ، فكرسوه في ذلك العهد للإسهام في إذكاء جذوة
 الحرية بتلك الوطنية التي قرأها لهم معاصروهم بإعجاب على صفحات الجرائد ،
 وقرأنا نحن بعضها مجموعة في دواوين .

والمتصفح « ديوان تذكاري الماضي » الذي طبعته لأبي ماضى المطبعة المصرية ،
 بالإسكندرية ، في النصف الأول من عام ١٩١١ ، لن يفوته ملاحظة أن هذا
 الديوان قد تضمن قصائد سياسية دون أن يتضمن « باباً للسياسة » . ذلك أن
 شاعرنا تعمد ستمها ، على ما نعتقد ، عدم إفراد مثل هذا الباب في ديوانه ،
 كما تخشى أيضاً إيراد قصائد معينة له فيه ، حتى لا يوجه أنظار الرقابة إليه ،
 فتنال منه كما نالت من غيره . فهو قد رأى كيف صودر « وطنيتي » ، وكيف
 طورد الغاياتي ، وكيف حوكم الشيخ جاويش والزعيم محمد فريد ، وكيف
 حبس الأول ثلاثة أشهر مرتين والثاني ستة ، وكيف كانت الجرائد توقف ، وكيف
 كان أصحاب المطابع يستدعون ، وكيف . . . ، وكيف . . . ، فاحتاط من
 بطش رقابة الاحتلال الغاشمة التي قال عنها في بائنة له مجهولة :

كنى « مصر » أن الغاصبها حقوقها أعادوا لها زمان « المراقب »
 فعند شروق الشمس نكبة شاعر وعند غروب الشمس نكبة كاتب
 لهذا نرى أبا ماضى أدرج قصيدة « وقال » في باب « الأدب والاجتماع » ،
 عندما قدم ديوانه للنشر ، وأدرج « الذئاب الخاطفة » و « أيها القلم » ،
 و « مصر والشام » ، و « عام ١٩١٠ » ، و « أيا نيل » في باب « أغراض شتى » ،

متناسياً في الوقت نفسه قصيدة « مصر والاحتلال » اتقاء ما قد يترتب على إدراجها .
 بيد أن المبررات التي حكمت على أبي ماضي ، عهدئذ ، بأن يتناسى قصائد
 له نظمها ، لا تحكم علينا نحن الآن بأن نتناساها أيضاً . فليس من الإنصاف ،
 لا للحركة الوطنية حين نؤرخها اليوم ، ولا لأبي ماضي حين ندرسه في شبابه ،
 أن تظل قصيدة مثل « مصر والاحتلال » مدفونة بعدما نشرتها « الشعب »
 القاهرية ، في ٢٧/٣/١٩١٠ بمقدمة تم ، برغم إيجازها الشديد ، عن رأي
 أسرة تحرير هذه الجريدة في أبي ماضي . قالت هذه الجريدة ، وكانت لسان
 حال الحزب الوطني ، ما نصه :

« تفضل حضرة الشاعر الكبير المطبوع صاحب الإمضاء فأرسل إلينا هذه
 القصيدة العصماء يصف فيها مركز مصر إزاء الاحتلال بما عهد فيه من رقة
 الشعر وجزالته ، فنشكر له هذا الإحساس الشريف ، ونفى عليه الثناء الجميل . »

فإذا لاحظنا أيضاً أن « الشعب » نشرت القصيدة على يسار مقالة « حول
 الدستور » لمحمد فريد — ولم يأت ذلك عفواً على ما نظن — ثبتت لنا تلك المكانة
 التي وصل إليها أبو ماضي ، عن جدارة ، واعترف له بها مبكراً في حياته .

ف « مصر والاحتلال » إذن تستأهل نقلها هنا كاملة ، لأنها من أحسن وطنيات
 تلك الحقبة ، ومن عيون « مصريات » أبي ماضي ، ولأنها بمفردها ، تشهد على
 ما كان لناظمها في شبابه من طبيعة شاعرة ، وشجاعة نادرة ، ووطنية صادقة .

أنا لا أرضى لـ « مصر » أن تُضاماً	خلّني أستصرخ القوم النياماً
هاجـه العابث بالحق فلاماً	لا تَلُمُ في نصرة الحق فتي
زدت في تعنيفه زاد هياماً	أوفلّمْني إن قلبي كلّمَـا
ربما خففت الشكوى السقاماً	سوف أشكو الهم إن أخرجني
نقري « النيل » التحايا والسلاماً	وقفـة في شاطئ « النيل » معي
منعوها ماءه إلا لماماً	وأناجيه أماني أمة
قوة تبعث في الشعب اعتزاماً	علّه يبعث من أسرارـه
ما بنفسي من جوى سال ضراماً	قسماً بـ « النيل » لو أن بهـ

والأسى يدفع عن عيني المناما
 مثل ما يرقب راعيها السواما
 ما الهوى بغية من بالجد هاما
 بأنى « مصر » ومن فيها أقاما
 أمن الله بها « البيت الحراما »
 عركوا الدهر فتيةً وغلاما
 نقضت عهداً ولا خانوا ذماما
 يعصم الحر فلا يخشى اهتضاما
 إنما يهتضم الدهر الكراما
 لست أعنى بالعدا إلا الطغاما
 بيننا تجمع « مصر » و« الشاما »
 مثلما يرتقب الصادى النغاما
 ما رمت سهماً ولا سلّت حساما
 ما شكت غير هموداء عقاما
 وأغاضوها من الرى الأواما
 جعلوا القانون فى فيها لجاما
 « رب ذى لب عن الحق تعامى »
 أحمول إنها تهوى السلاما ؟
 شقوة « النيل » سوى عشرين عاما
 فإلام أيها القوم إلا ما ؟
 وامنعوا الألسن والصحف الكلاما
 فى وثام فانشروا فىنا الخصاما
 فى حياة فابعثوا فىنا الحماما
 أو فكونوا أنتم المسوت الزواما
 ضده إن جاوز الأمر التماما

لست أنسى ليلة بت بها
 أرقب الأعمار فى أفلاكها
 لم يؤرقنى اشتياق أو هوى
 راع نفسى أن « مصر » روعت
 حسب « مصر » أنها الأرض التى
 وبينها لإنهم نسل الألى
 كرمت « مصر » وأهلوها فما
 كان للأحرار فيها مؤئل
 ثم هاض الدهر من جانبها
 أربى « مصر » على رغم العدّا
 لست مصرياً ولكن نسبة
 أمة ترتقب استقلالها
 ما لهم يسعون فى إيدائها ؟
 زعموا لإصلاحها وهى التى
 حبسوا « النيل » على نفعمو
 فإذا ما صرخت تشكو والصدى
 أنكروا خطوتها نحو العلا
 ورموها بالتوانى ويحهم
 قد خلت تسعة أعوام على
 وانقضى العمر ولا تنجلوا
 كبلوا أفلاننا جهدكمو
 وإذا عز عليكم أننا
 وإذا عز عليكم أننا
 ينزع الأرواح من أجسادها
 إنما ينقلب الأمر إلى

(٦)

ولنا أن نتساءل إذا كان أبو ماضى قد دخل فعلاً الحزب الوطنى ، وصار عضواً مقيداً فى قائمة أعضائه . فما لا شك فيه أنه آمن بوطنية الحزب ، فجاهر بها تماماً كما جاهر بها شعراء الحزب الرسميون . وفى أشعاره التى نظمها فى الفترة المصرية من حياته صدى واضح لمطالب هذا الحزب ، ولسياسته ، ولنشاطه ، ولأقوال رجاله .

طالب أبو ماضى المحتلين بالجلء فى قصيدته السابقة ، فقال :

قد خلت تسعة أعوام على شقوة النيل سوى عشرين عاماً
وانقضى العمر ولما تنجلوا فإلام أيها القوم إلا ما ؟

وطالب بالدستور فى قصيدة « مصر والشام » ، بعد « معاهدة بانكوك » التى عقدت فى ١٠/٣/١٩٠٩ ، والتى ألغيت بمقتضاها الامتيازات البريطانية فى سيام ، فقال :

إلام تمنع الدستور « مصر » وقد كادت تفوز بـ « سيام » ؟

وكان الجلء والدستور مطلبين الحزب الأساسيين . إلا أن الجلء ، الذى أصر عليه الحزب الوطنى « حتى صار أصبح تعريف له أنه « حزب الجلء » ، لم يلقَ من أبى ماضى الاهتمام نفسه الذى لقيه الدستور منه . ونعزو هذا إلى أن زعامة الحزب الوطنى كانت هى المطالبة بالجلء ، باسم الشعب ، على حين كان الشعب نفسه هو المطالب بالدستور ، تحت إشراف الحزب .

فى أوائل عام ١٩٠٨ ، قامت فى مصر « حركة إجماعية للمطالبة بالدستور » أسفرت عن جمع عشرات الآلاف من العرائض ، وقع عليها ٤٥ ألف مواطن ، قدمها محمد فريد إلى الخديوى نفسه فى ٢٥ أبريل (نيسان) . وصادف أن قامت أيضاً ، فى نفس العام ، حركة فى تركيا كان نيتها إعلان عودة الدستور العثمانى فى ٢٣ يوليو (تموز) ، بعد إلغاء مؤقت دام ثلاثين سنة . فألهب هذا الإعلان حماس الشعب المصرى ، وحفزه إلى جمع دفعة جديدة من التواقيع لتقديمها

إلى الحديوى ، هذا فى حين بدأ الشعراء الوطنيون يؤهلون بعودة الدستور منتظرين نظيره فى مصر . وفى هذا المجال نظم أبو ماضى « تحية الدستور العثمانى » التى منها :

إلى حيث ألفت يا زمان المظالم	ولاعدت ياعهد الشقا المتقادم
ثلاثون عاماً والنواب فوقنا	خيمة مثل الغيوم القوام
وبأيها الدستور أهلاً ومرحباً	«على الطائر الميمون ياخير قادم»
طلعت علينا كوكباً غير آفل	على حين أن الشرق مقلقة هائم
أهبت ففر الظلم بالأرض هارباً	ونكس خزيّاً رأسه كل ظالم
توهم قوم أنما الشرق واهم	وأنتك يادستور أضغاث حالم

وفى ميمية أخرى مجهولة ، عنوانها « غادة الحرية » خاطب أبو ماضى الضباط الأحرار الأتراك ، عقب نجاح حركتهم ، وذكرهم بمدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٤) ، « أبى الدستور العثمانى » ، الذى نفاه السلطان عبد الحميد (١٨٤٢ - ١٩١٨) ، (حكم ١٨٧٦ - ١٩٠٩) إلى الطائف حيث لاقى مصرعه ، فقال :

معشر الأحرار أنتم خير من	يرتجى فينا إذا الخطبُ ادلهم
ولأنتم أرجح الناس حجبي	ولأنتم أجمل الناس شيم
إن بـ « الطائف » قبراً واضحاً	جاد ذاك القبر منهل الديم
لودرى ساكنه ، من طرب ،	جاءكم يسعى على غير قدم
قدسوه إن فيه ملكاً	واسألوه تستفض منه الحكم

وفى قصيدة أخرى مجهولة أيضاً ، عنوانها « عيد الحرية العثمانى » ، نشرتها فى ١٩١٠/٧/٢٤ « العلم » ، لسان حال الحزب الوطنى ، تغنى أبو ماضى بعيد الدستور ، وبشهر يوليو (تموز) ، شهر الحرية الذى تُعَيِّدُ فيه الولايات المتحدة الأمريكية باستقلالها منذ ١٧٧٦ ، وفرنسا بثورتها منذ ١٧٨٩ ، فقال :

عيد إذا عُدَّ فى الأعياد زينها	كالشمس فى الشهب ، هل للشمس أمثال ؟
عبد رآه ذوو الحاجات فابتسموا	شوقاً ، وكم لذوى الحاجات آمال
تفاءلوا أن « تموز » يكون لهم	عيداً كغيرهم ، قد يصدق ألفال
« تموز » أنت منيل الشرق بغيته	فى حين أسمع قوم فيه بخال
بتنا نود شهور العام أجمعها	« تموز » ، وأن يوم العيد أجيال

(٧)

« كانت الأشهر الأولى من عودة الدستور — كما يقول توفيق على برو في كتابه « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني » — ممتلئة بروح الحماس والنجبة والأخوة بين الطوائف ، وعَبَّرت الجماعات والأفراد عن شعورها بمختلف الوسائل . فقد أعرب السوريون في الأرجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتاب عام للتبرع بسفينة حربية هدية للبحرية العثمانية ، وشكل أهالي بيروت حرساً وطنياً لمساعدة الجيش عند الزوم ، وفي العراق ، ابتاع طالب بك النقيب ، نائب البصرة الجديد من ماله الخاص ، مركباً بخاريّاً ، أهداه إلى الحكومة كى تستخدمه في المحافظة على شط العرب . . . وفي طرابلس الشام تضافرت أيدي الترك والعرب ، وأصبحوا يساهمون معاً في الأعمال الخيرية . وحتى عبد الحميد نفسه أعرب عن إخلاصه للدستور ورغبته بالحفاظ عليه . »

أما في مصر ، فيفيدنا قنير بأن محمد فريد خطب بالإسكندرية فهنا الأمة العثمانية بإعلان عودة الدستور ، منادياً « ولتكن الآستانة كعبتنا السياسية من الآن ، فنحن من الأمة العثمانية ، لنا امتيازات لا نخرجنا عن كوننا عثمانيين » . واستنكرت بعض الأحزاب هذا التصريح الذى لم يكن جديداً في سياسة الحزب الوطنى . فقد أكد الحزب ، منذ ظهوره ، تبعية مصر لتركيا — لكسب الخلاء ، وحارب من يدعو إلى الانفصال عنها . وفي هذه المناسبة ، شارك أبو ماضى في التعبير عن شعوره ، وعن شعور العرب إجمالاً ، والحزب الوطنى خاصة ، بالولاء لتركيا ، عندما خاطب السلطان « عبد الحميد بعد إعلان الدستور » قائلاً :

أبا الشعب اطلع من حجابك يلتقى	بطرفك مثل العارض المتدفق
تَطَلَّعَ تَجَدَّه حول قصرِكَ واقفًا	يُحَدِّقُ تَحَدِّقُ المحب الموق
يَهْشُّ لمراك الوسيم ، وإنعسا	يُهَشُّ لمراى الكوكب المتألق
ويعشق منك البأس والحلم والندى	كذلك من ينظر إلى الحسن يعشق
تفرق عنك المفسدون ، وطالما	رموا الشعب بالتفريق خوف التفرق
وكم أقلقوا فى الأرض ، ثم تراجعوا	يقولون : شعب مقلق أى مقلق

يطارحك الحب الذي أنت أهله وحسبك منه الحب غير مزوق
وها جيشك الطامى يضحج مكبراً بما نال من عهد لديك وموثق
ويأياها الملك المقيم : « يلدز » ملكت قلوب الناس بالعرف فاعتق
وياحبذا عيد الجلوس فإنه أجمل الذي وكلّى وأجمل ما بقى

ولكن عبد الحميد سرعان ما تنكر للدستور ١٩٠٨ كما تنكر للدستور ١٨٧٦ من قبل ، فقامت حركة في الآستانة ، عام ١٩٠٩ ، لتخلعه ، وتخرج أخاه « رشاد » (١٨٤٤ - ١٩١٨) من سجنه ، وتولييه سلطاناً باسم « محمد الخامس » (١٩٠٩ - ١٩١٨) . وفي هذا ينظم أبو ماضي « فتنة ١٣ أبريل (نيسان) » التي بارك فيها الحركة ، ولا م عبد الحميد ، ثم قال :

يا « رشاد » الملك تهنته بالذي أوتيت — نعم
أنت كـ « الصديق » أسكنه فضله في السجن من قِدم
كن لهذا الشعب « يوسفه » ينج من عدم ومن عدم
أنت للشورى نعم — وذها بك من عات ومن نهم
فقلد سيف جدك « عث حان » ، جد البيض والحذم
وتولّ المُلْك من أمم وبحبل الله فاعتصم
دمت يسـا خير الملوك له غير ما هم ولا سقم

وازداد أبو ماضي ولاء للسلطان الجديد ، فتمثله ، في عامه الثاني من حكمه ، هارون الرشيد ، وتمثل الآستانة ، مقر الخلافة الإسلامية وقتذاك ، بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فقال في « عيد الحرية العثماني » :

المُلْكُ لاق به من كالأ « رشاد » حجي هيئات ما لـ « رشاد » الملك أمثال
« دار السلام » سقتك السحب هامية ما دام للسحب في الأكوان تجوال
لني أرى فيك « بغداداً » ، وأبصر في برد « الرشيد » « رشاد » الملك يختال
يا درة الشرق دمت الدهر حالية فالشرق لولاك أمسى وهو معطل

(٨)

« في أواخر سنة ١٩٠٩ ، وأوائل سنة ١٩١٠ - يقول الرافعي - شغلت الرأي العام مسألة كبرى ، تتصل بحياة البلاد المالية والسياسية ، ونعني بها مشروع مد امتياز قناة السويس . وفحوى هذا المشروع أن المستشار المالي البريطاني « مستر بول هارفي » ، أخذ يفكر - بهواه - في وسيلة يسد بها حاجة الحكومة إلى المال . فدخل في مفاوضة مع شركة قناة السويس ، لمد امتيازها أربعين عاماً (من ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٨) ، تلقاء أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة للحكومة . . . وقد ظل المشروع في طي الخفاء زهاء سنة ، وكان في عزم الوزارة إنفاذه بسرعة ، حتى لا يزعجها احتجاج الصحف الوطنية . ولكن « فريداً » تمكن من الحصول على نسخة من المشروع في أكتوبر (تشرين أول) ١٩٠٩ ، فبادر إلى نشرها « اللواء » ، ثم قفى على أثرها ببيان أسرار المشروع وأسبابه ، ومبلغ الغبن الذي يصيب مصر من ورائه ، وشرح ذلك في سلسلة من مقالات مستفيضة . »

وتبع ذلك أن شن الكتاب والشعراء الوطنيون حملة عنيفة على المشروع ، كان من جرائها رفض « الجمعية العمومية » المشروع بإجماع الأعضاء ، في جلستها بتاريخ ١٩١٠/٤/٧ .

وكان لهذا الرفض وقع حسن في نفوس المصريين . ورأى بعضهم ، في الإسكندرية ، أن من واجبه تكريم نوابه الذين يرجع إليهم فضل رفض إنفاذ المشروع ، فوجه « دعوة إلى الإسكندريين » ، في « الشعب » القاهرية ، ١٩١٠/٤/١٧ ، هذا نصها :

« تعلمون - حفظكم الله - مقدار ما أبلاه البطلان العظميان إسماعيل باشا أباطة ، وعبد اللطيف بك الصوفاني ، وزملاؤهما ، من البلاء الحسن في « الجمعية العمومية » ، ومدافعتهم عن حقوق الأمة ، ورفضهم « مشروع القنال » ، بعدما أظهروا للعالم أجمع مقدار ما يصيب الأمة من الأذى والمضار إذا قبلته . تعلمون عن كل تلك الأعمال التي أحرست ألسنة كل مكابر ناكر لكفاءة الأمة وعظيم مقدرتها ، تلك التي برهنت بأقوى دليل على أن المصري لو أعطى من الرأي النافذ

والحرية فى العمل فى شؤون بلاده لخدمها بأحسن ما يخدم به المرء بلده ، ولَسَمَّا بها إلى أعلى عليين .

ولقد اقترح حضرة الوطنى الغيور « محمود أفندى حمدى السخاوى » ، على صفحات « الشعب » ، عمل مظاهرة يقوم بها الإسكندريون تكريماً لنوابهم الأماجد الذين جاهدوا فى سبيل أمتهم خير جهاد ، وطلب من كل وطنى حر الاشتراك معه فى القيام بهذه المظاهرة قريباً .

ونحن نستحسن هذا الاقتراح غاية الاستحسان ، ونضم صوتنا إلى صوته ، ندعو إخواننا الإسكندريين لمساعدته للقيام بالواجب نحو نوابهم الأحرار ، لأن مثل هذه المظاهرات أعظم مشجع لهؤلاء الأبطال على السير فى طريق جهادهم ، وتعدُّ بمثابة شكر واستحسان لما أتوا به من جلائل الخدمات . وأملنا فيهم — وهم المشهورون بالغيرة الوطنية والحمية الملية — أن يسرعوا لإجابة هذه الدعوة ، وإنا لذلك منتظرون . وفقنا الله جميعاً لصالح الأعمال . آمين » .

وقد وقَّعَ هذه الدعوة وطنيون ستة ، هم : محمد عوض جبريل السكندرى ، محمود حسن الدرسل ، السيد الشيمى ، محمد طاهر ، محمد على منصور وكيل « المنار » ، إيليا ظاهر أبو ماضى بشارع راغب باشا .

ولا يكتفى أبو ماضى بالاشتراك فى توجيه هذه الدعوة ، بل يسجل نصر الوطنيين فى معركتهم ضد مد امتياز القنال ، فينظم فى قصيدة « عام ١٩١٠ » :

وسعوا إلى سلب « القناة » فأخفقوا	سعيًا ، وشاء الله ألا نخفقا
عرض الحساب « المستشار » ولم يكن	لولا السياسة حاسبًا ومدققًا
أىكون غاصبنا ويزعم أنه	أمسى علينا محسنًا متصدقًا؟!

ويسجله ثانية فى قصيدة « أيا نيل » ، التى نشرتها « العلم » نفس العام ، فيقول :

ألم يك فى يوم « القناة » ثباته	دليلا على أن ليس توهى مرأثره ؟
يعز على المصرى أن يحمل الأذى	وحاضره يأبى الهوان وغابره

(٩)

تطورت الحركة الوطنية في مصر ، أواخر ١٩٠٨ ، من حركة سياسية بحتة إلى حركة سياسية اجتماعية تبغى إصلاح مصر اجتماعياً ، قدر ما كانت تبغى سياسياً . فنشط الحزب الوطني - معتمداً على كفاءة أعضائه وغيره مؤيديه - في مجالين رئيسيين : مجال العمال وأرباب الحرف ، ومجال التربية والتعليم .

أما العمال ، فأول ما قام به الحزب نحوهم - قبل دعوته إلى وضع التشريعات لحمايتهم وإنشاء نقابات لهم - هو إنشاء مدارس ليلية مجانية لتزويدهم وتوعيتهم ، سماها « مدارس الشعب » . وافتتحت أول هذه المدارس في حي بولاق بالقاهرة ، في ١٩٠٨/١١/٧ ، وتولى التدريس فيها كبار أعضاء الحزب ، وعلى رأسهم الشيخ جاويش نفسه . وتبع ذلك افتتاح ثلاث مدارس مماثلة في ثلاثة أحياء أخرى بالعاصمة .

وفي أبريل (نيسان) ١٩١٠ ، اتفق نخبة من الوطنيين في الإسكندرية على تأليف « جمعية مدارس الشعب » لإنشاء هذه المدارس بالثغر . فَوَجَّهَ الصيدلي عبد الله محمد ، صاحب « أجزخانة عبد الله » المجاورة للجامع سلطان ، دعوة لاجتماع عام يبرز الجمعية إلى حيز الفعل . وأسفر هذا الاجتماع ، الذي عقد عند الصيدلي مساء ٤/١٣ ، عن انتخاب لجنة تحضيرية للجمعية ، ثم عن انتخاب لجنة الجمعية وسكرتيرها وأمين صندوقها ، في اجتماع اليوم التالي . ولم يكن أبو ماضي قريباً إلى هذه الجمعية عند تكوينها لأن مركزها صيدلية متاخمة لدكانه ، ولكن ، لأنه كان من أوائل الذين قاموا لمناصرتها . فما كادت « الشعب » ، الناطقة بلسان الحزب الوطني ، تنشر في عدد ٤/٨ كلمة ، تحبذ فيها فكرة مشروع مدارس الشعب بالإسكندرية ، وتحث فيها أكابر الثغر وأدبائه ، وسائر أهاليه إلى تعضيد هذا المشروع ، حتى كان أبو ماضي قد نظم « هديتي إلى مدارس الشعب بالإسكندرية » ، وبعث بها إلى الجريدة . فنشرت هذه ، في عدد ٤/٢٤ ، مهددة لها بالمقدمة الآتية :

« أرسل إلينا حضرة الشاعر المحيد ، صاحب التوقيع ، هذه القصيدة العصماء ، وقد عارض فيها قصيدة الشاعر الكبير حافظ أفندى لإبراهيم التى قدمها إلى « جمعية رعاية الأطفال » (فى حفل أقيم ٨/٤/١٩١٠ ، فى دار « الأوبرا » بالقاهرة) . ولا ريب أن أمثال هذه المواضيع الأخلاقية لما يجدر بالشعراء المجيدين طروقها ، بشأ لروح الفضيلة فى النفوس ، وتنمية لمكارم الأخلاق فى الأمة . فتشئ على هذا الشاعر الفاضل ، ونأمل أن يكون لسائر شعرائنا جولة مشهودة فى هذا الميدان المحمود . »

والقارئ لـ « هدية أبى ماضى » سيجد أنها من الشعر الاجتماعى الذى — عَرَفَهُ بدوى طبانة بقوله — « يعالج أحوال المجتمعات الإنسانية ، ويصف عللها وآلامها ، ويشرح أمانيتها ومطالب حياتها » . وسيجد قارئها أيضاً أن ناظمها كان مصدوع الفؤاد حينما ندب فيها حالة العمال ، مما جعله يختمها بهذا النداء الإنسانى :

فخذوا بناصرهم فإن حياتهم	فى مأزق حرج من الأهوال
ما أجدر الجهلاء أن يتعلموا	فالعلم مصدر هبة وجلال
فاسعوا لنشر العلم فيهم ، إنما	فضل الغمام يبين فى الأحوال
إن الجهول إذا تعلم واهتدى	بث الهدى فى صحبه والآل
يا قوم ، إن لم تسعفوا فقراءكم	فلنم ادخاركم إذاً للمال ؟
هلا رضيتم بالحامد قنية ؟	إن الحامد قنية المفضل
أو لستم أبناء من سارت بهم	فى المكرمات روائع الأمثال ؟
جودوا ، فغير الحمد غير مخلد	ما المال ؟ إن المال طيف خيال
هيهات ، ما يبق ولو عدد الحصى	أننى يدوم وره لزوال

(١٠)

رأى الحزب الوطنى ، حين انبرى لإصلاح مصر إصلاحاً اجتماعياً ، أن التعليم هو عماد هذا الإصلاح الذى كان يهدف إليه ، أو هو « خير دواء يصلح الخلل » — حسب تعبير أبى ماضى . فقام الشيخ جاويش ، وهو المربي الذى انقلب سياسياً ، بوضع برامج تعليمية عصرية لتقويم التعليم المصرى فى جميع مراحلـه وبكل أنواعه .

ولم يَنْسَ هذا الشيخ الأزهرى ، وهو فى غمرة التخطيط ، تحديث الأزهر ، معهده الدينى القديم ، وكذلك تعصير رجاله . فأوجد مشروع « البعثة الأزهرية » الذى من شأنه أن يرسل أزهريين ، بشكل منتظم إلى فرنسا ، لتلقى علوم الرياضة ، والكيمياء ، والطبيعة ، والاقتصاد السياسى ، والتاريخ . ونجح المشروع ، وجمَعَ له من المال ما سمح بإرسال بعثة من ثلاثة مشايخ ، رافقها الشيخ جاويش .

وقبل إبحار البعثة من الإسكندرية ، فى يناير (كانون الثانى) ١٩١١ ، أقام الوطنيون بالغر احتفالاً فخماً لوداعها ، فى فندق « متروبول » ، دُعِيَ إليه أمثال المصريين وذوو الفضل والعلم . وفى هذا الاحتفال أنشد أبو ماضى قصيدة له مجهولة ، خاطب فيها المبعوثين فقال :

وبأيها الظاعنون الكرام	إلى « الغرب » فى طلب السؤدد
إذا ما ركبتم غداة السفين ،	مطايا بنى الأرض ، فى المزبد
وأصبحتم فى بلاد الألى	متى ينذروا دهرهم يرعد
ألا فاذكروا أنكم أمة	على ضعفها جمّة الحسد
وأن « الكنانة » ترجو بكم	نصيراً على الجائر المعتدى
تطالبكم « مصر » أن تعملوا	ألا فاعملوا ، يارجال الغد
خذوا بالعلوم وأسبابها	فلتعلمُ خير من العسجد
هو الكثر لكنه خبالد	إذا نفد المال لم ينفد
أنحو العلم حر وإن لم يكن	وذو الجهل ما انفك فى الأعبد
ولو لم يكُ الله سبحانه	عليم السرائر لم يعبد
وكم أطلق العلم مستعبداً	وكم خفض الجهل من سيد
وكم أمة وجدت عزها	به ، وهى لولاه لم توجد
ألم يكُ فى الشرق مصباحنا	فلما فقدناه لم نهتد ؟
إلى الملتقى ، أيها الراحلون	فليس اللقاء بمستبعد
كفى « مصر » أنكم رسلها	وحسبكم شرف المقصد

(١١)

كان لعبد العزيز جاويش أثره في أبي ماضى كما كان له أثره في نخبة من شباب العصر . إلا أن أثر جاويش في أبي ماضى ما كان نتيجة الاتصال الشخصى المباشر — فالظروف لم تتح للشاعر أن يتأثر بشخصية الشيخ كما أتاحت له لربه طه حسين (١٨٨٩ — ١٩٧٣) مثلاً — وإنما كان نتيجة قراءة أبي ماضى لنتاج الشيخ اليومى في الجرائد ، قراءة مستوعبة .

فعندما صدر القرار الوزارى فى ٢٥/٣/١٩٠٩ ، لتقييد حرية الكتابة ، نشرت « اللواء » فى اليوم التالى مقالة لجاويش ، جاءت فواتح فقراتها كما يلى :

« أيها القلم ، لو كنت سيفاً لأغمدتك فى صدور من يحاربونك .

أيها القلم ، استلنا عريكته .

أيها القلم ، أسكون بعد حركة ؟

أيها القلم !! أهذا آخر عهدك بالقرطاس ؟

أيها القلم ! تشيعك اليوم أفئدة أيقظتها .

فلتكن ، أيها القلم ، كما شاءوا لك .

وأنت يارب القلم ! » .

ولقد أوجت هذه المقالة النارية — التى أحدثت ردود فعل فى « إيجيبيشان جازيت » ، جريدة الاحتلال ، وفى جريدة « المؤيد » التى كانت وقتها موالية للسلطة الحاكمة — أوجت إلى أبي ماضى أن ينظم قصيدة بعنوان « أيها القلم » ، وأن يناجى فيها يراعه فيقول :

والله ، ما فيك إلا النصيح والحكم	ماذا جنيت عليهم أيها القلم ؟
لولاك فى الأرض لم تثبت لهم قدم	إنى ليحزننى أن يسجنوك ، وهم
فما القيود ؟ وما الأصفاد واللجم ؟	خلقت حرّاً كموج البحر مندفعاً

إلى أن يقول :

وأرهقوا الصحف والأقلام فى زمن يكاد يعبد فيه الطرس والقلم
ولعل تأثير الشيخ جاويش يظهر جلياً فى تلك الأبيات التى ندد فيها أبو ماضى

بالربا وبالخمر . ففي أوائل سنة ١٩٠٨ ، تعرض الشيخ لموضوع الربا ، كما فوه عن الخمر ، في محاضرات ألقاها بنادى دار العلوم ، لمدة أربعة عشر يوماً . ونشرت « المؤيد » أول هذه المحاضرات ، مثنية على الشيخ ، ونشرت « اللواء » بقيتها . وكان أن استهل جاويز محاضراته متعجباً أشد العجب من الذين أصبحوا « يشربون الخمر . . . ويؤكّلون الربا ولا يأكلونه ، فكأنهم قضى عليهم أن ينجسوا الدنيا والآخرة » .

وفي هذا المعنى نظم أبو ماضى ، فقال فى قصيدته لمحمد فريد :

فليتقوا الله فى « مصر » بلادهم « كنانة » الله ذات المجد والحسب
بات المرائى مع الخمار يسلبها هذا العقول ، وذلك خالص النشب

وقال فى قصيدته « إلى الشبان المتفرجين » :

ألهتهم الدنيا ، فهذا بالطلّى صب ، وهذا بالحسان متيم
والخمر فاتكة ، فكيف بناعم ترف ، يكاد من النساء يسقم ؟
قد أصبحوا وقفاً على شهواتهم يستسلمون لها ولا تستسلم
لم يفهموا معنى الحياة وكنهها إن البلية أنهم لم يفهموها

ووصف فى « هديتى » ما شاهده فى حانة أثناء سيره ليلاً فى أحد شوارع

الإسكندرية ، فقال :

فاستوقفنى ضجة فى حانة حبست مقاعدها على الجهال
حاموا على الصهباء يرتشفونها كالطير حول مصفق سلسال
نهب الكؤوس عقولهم ونضارهم نهب المدير الخادع الختال
أمسى يسوق إليهم آجالهم وحشوفهم فى صورة الجريال
شر الشراب الخمر ، يصبح صبها قيد الضنى ، ويبيت رهن خبال

ثم خاطب الخمار ، فقال له :

ياسالب الأرواح ، بعض ترفق يكفيك أنك سالب الأموال
لا تدفعن تلك النفوس إلى الردى إن النفوس - وإن صغرن - غوال

ولا يقف أبو ماضى عند هذا ، بل يحمل معه إلى الولايات المتحدة ، وأواخر

١٩١١ ، كرهه للربا . فيقول في قصيدة « خواطر شاعر » (نزوة ألم) ، بعد ما رأى عياناً حالة المهاجرين التعسة ، ورأى الربا فاشياً بينهم :

وما همى سوى شعب تعيس	شتيت الشمل ، جم الاضطراب
يحاول رزقه في المدن أنا	وأنأ في السباسب والهضاب
ولو عرف السحاب يدر مالا	لأصبح راكباً من السحاب
رمته الحادثات بكل سهم	وخدشه الزمان بكل ناب
فراح كأنما هو شعب موسى	غداة التيه في القفر الياب
نأى عن أرض « مصر » حذارضيم	ففر من العذاب إلى العذاب
بليتنا صحافي مراء	يداجينا ، ومالى مرابى

ويصعب على ، بعد هذا القليل الذى عرضته ، أن أضيف شيئاً مفصلاً يوضح أثر جاويز فى تكوين أبى ماضى الفكرى . ذلك لأن أثر الشيخ فى شاعرنا أعمق من أن أقدر أنا على سبره ، وأشمل من أن أقوم بحصره . لهذا أجمال فأقول : إن جاويز ، بكلمة « الشعر والشاعر » التى كتبها لـ « وطنيتى » وبسبها سجن ، كان العامل المساعد ، إن لم يكن المسئول الأول ، الذى عَجَّلَ بأبى ماضى إلى الخروج من نطاق مفهوم الشعر والشاعر العتيق الضيق ، الذى كان سائداً وقتذاك ، إلى مفهوم جديد رحب ، مفهوم لم يغب لحظة عن بال شاعرنا منذ أن ترك مصر متجهاً إلى أمريكا . وقد مكَّنَ أبى ماضى من تحقيق هذا المفهوم فى المهجر طبيعته المتقبلة للأفكار ، التواقة إلى الإبداع وطبيعة الأدب المهجرى نفسه النزاعة إلى التجديد .

وثمة كلمة ثانية نلمس أثرها فى « ديوان تذكارات الماضى » بالذات ، هى كلمة محمد فريد التى أتحف بها « وطنيتى » ، وبسبها سجن هو أيضاً . هذه الكلمة ، « تأثير الشعر فى تربية الأمم » ، التى كان ظهورها أولاً فى جريدة « الشعب » ١٩١٠/٦/٨ ، جاءت فى ختامها النصيحة التالية :

« فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح . . . وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن يصرفوها فى

خدمة الأغنياء ، وتمليق الأمراء ، والتقرب من الوزراء . فالحكام زائلون ، والأمة باقية . والسلام على من سمع ووعى ، ووفق لخدمة بلاده وسعى ، ف « إن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزّاه الجزاء الأوفى » .

وانتصح أبو ماضى ، فخرج ديوانه المصرى خالياً من قصائد المديح ، مرفوعاً « إلى الأمة المصرية ، الأمة الودود . . . لا طلباً للمثوبة ، ولا ابتغاء للشكر ، ولكن إظهاراً لما تكنه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك . . . » . ولقد يكون لى أن أهديه إلى أحد أفرادك من ذوى الفضل ، جريباً مع العادة ، ولكنى رأيت المجموع خيراً وأبقى » .

(١٢)

كان على أبى ماضى أن يتفكر فى مصيره فى مصر حين رأى الضربات القواصم تتالى على الحزب الوطنى . فهو قد ارتبط بهذا الحزب ارتباطاً — مهما بدا لنا اليوم متواضعاً — ما كان ليغيب وقتذاك عن من تابع قراءة قصائد له فى صحف الحزب المختلفة ، ومن تتبع نشاطه الوطنى فى الإسكندرية . واسترساله فى وطنيته — فى فترة من تاريخ مصر خضعت الصحف فيها للرقابة الشديدة ، وانتشرت شبكة الجاسوسية حتى بين الأصدقاء — أصبح محدقاً بالمكاره والشدائد لا محالة . زد على هذا أنه كان شاباً هائماً بالمجد — كما قال هو ، تائقاً إلى مركز فى عالم السياسة — على ما نطن نحن ، فليس غريباً ، وقد شعر أن الظروف فى مصر لن تواتيه بغيته ، أن يرجع صيف ١٩١١ إلى موطنه الذى ظل يهواه ويحن إليه طوال سنى اغترابه . قال أيام كان فى الإسكندرية :

نحن إلى بلاد « الشام » نفسى	أقطر « الشام » حياك الغمام
وما غير « الشام » وساكنيه	لبانتنا ، وإن بعد « الشام »

وقال :

أشتاقه ، وكنى بشوقى أنه	شوق الغريب الفرد للأوطان
وأحبه حبي الحياة ، ومثبه	حبيه حب الزهر للبلستان

قيدت قلبي في هواه ، فلم أعد
وقال :

أهوى بلادى دانيًا أو نائيًا
«لبنان» لست أب ، ولست فثاك إن
زعم العواذل أن سلوتك ، ويحهم
ما إن هجرتك عن قلبي ، لكنما
«لبنان» ، حسبي أننى لك أنتمى
أشدوبذكرك ما بقيت ، ومرفعى
قالوا: سكت ، فقلت : ليس بضائرى
فلربما صمتت شفاه ذوى الهوى
وقال :

بلاد قد طبعت على هواها
أحسن إلى لقائهم وأصبو
يكاد الشوق ينقلنى إليهم
تُرى ، هل عندهم أنى ودهرى
فنى أرق إذا غفلوا وناموا
وقال :

« لبنان » بلادى وكفانى
وطنى المحبوب له وقف
بأبى « لبنان » ومن فيه
أهتز لذكراه طربًا
وأكاد أميد فأحسبى
لكنى صبب بطربى
ردد ذكراه على سمعى
أفنييت شبابى مغتربًا
فخرًا أن أدعى لبنانى
قلمى وحسائى ولسانى
فيه وبهم يعلو شافى
ما أحلى ذكرى الأوطان
نشوان ، ولست بنشوان
ما يطرب كل فتى عان
واترك نغمات الألحان
يا ويحى مغتربًا فان

رجع أبو ماضى إلى لبنان وهو متشبع بالروح الوطنية ، وعالم بحال لبنان
وطنه الصغير . فقد تابع أخبار هذا الوطن وهو في مصر ، وزاره أكثر من مرة
— على ما يظهر لنا — ما بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ، وأفرد له قصائد بكاملها ،
مثل : « في سبيل الإصلاح » ، و « نفثة مصدور » ، و « حنين الغريب » ،
و « نجوى لبناني » ، تناول فيها مشاكل هذا الوطن . وكما أن حال لبنان لم تعجب
أبا ماضى عام ١٩٠٨ ، فهي لم تعجبه أيضاً صيف ١٩١١ .

كان لبنان ، منذ ١٩٠٧ ، تحت حكم يوسف باشا فرنكو ، المتصرف
العثماني المرسل من قبل الآستانة . « وكان يوسف باشا — كما قال عنه إلياس
الحويك — مستسلماً لحيطيه وأذنايه ، وواقعاً تحت انتداب زوجته الحسناء . . .
امتاز بممالأته الدولة (العثمانية) على خرق نظام لبنان ، وفعل أموراً كثيرة لم
يكن النظام يميزها ، ودون أن يأخذ موافقة المجلس » .

أما الخوري إبراهيم حرفوش ، فقال : « ولم يحقق يوسف باشا الآمال بما كان
ينتظر منه من الحزم وإصلاح الشئون ، بل ظهر ضعيفاً قاصراً في الإدارة .
وقد وقعت في أيامه حوادث هامة مشهورة » .

كان لا بد إذن لأبي ماضى الشاب القائل :

إني امرؤ كلف بإدراك العلى دأبى الجهاد وغايتى الإصلاح
أن ينضم ، بُعِيدَ رجوعه إلى لبنان ، إلى حركة المعارضة ، وأن يرفع صوته
معهما مطالباً بالإصلاح . ولم يَرُقْ هذا بعض أولى الأمر ، فراح يناصب أبا ماضى
— ومن هو منهم — العدا ، ويتهمة وإيأهم بأشياء ، هو وهم منها براء :

وطن أردناه على حب العلى	فأبى سوى أن يستكين إلى الشقا
أمسى وأمسى أهله في حالة	لو أنها تعرف الجهاد لأشفقا
أو كلما جاء الزمان بمصلح	في أهله ، قالوا : طغى وتزندقا ؟ !
وعصابة ما إن تزحزح أحقما	عن رأسها حتى تولى أحقما
راحت تناصبنا العدا كأنما	جئنا فرياً أو ركبنا مبقا
وأبت سوى إرهابنا فكأنما	كل العدالة عندها أن نرهقا

قيل اعشقوها ، قلت : لم يَبْقَ لنا
 إن لم تكن ذات البنين شفيقة
 معها قلوب كي نحب ونعشقا
 هيهات تلتى من بينها مشفقا
 فلما صعد أبو ماضى نشاطه الإصلاحى ، لاقى فى لبنان بلده خلال أشهر
 ما لم يُلاقِه أبداً فى مصر مدة سنين . قال فيما بعد يصف ما لاقاه :

قَوِّمى ، وقد أطربتهم زمناً ، ساقوا إلى الحزن والكمدا
 هم هددوني حين صحت بهم صيحاتى الشوعاء منتقدا
 ورأيت فى أحداقهم شرراً ورأيت فى أشداقهم زبدا
 وسمعت صائحهم يقول لهم : أن اقتلوه حينما وجدا
 فرجعت أحسبهم برابرة فى مهمه ، وأظننى ولدا
 مرت ليال ما لها عدد وأنا حزين باهت كدا
 أرتاع إن أبصرت واحدهم زعر الشويهة أبصرت أسدا
 وإذا رقدت رقدت مضطرباً وإذا صحت صحت مرتعدا
 لا تذكرهم لى ، وإن سألوا لا تذكرنى عندهم أبدا

أمام هذه التهديدات وهذه الحال ، لم يَبْقَ أمام أبى ماضى إلا الرحيل عن
 لبنان خوفاً على نفسه من « سياسة يوسف باشا الانتقامية من معارضيه ومن
 ينتمون إليهم » . ولكنه لم يشأ أن يرحل دون أن يهاجم ، للمرة الأخيرة ،
 « السلطات والأوضاع الشاذة التى كان الوطن يعيش فيها » . فنظم قافيتهُ الجارحة
 « وداع وشكوى » ، وعرضها على أستاذه القديم الشيخ إبراهيم المنذر ، الذى قاد
 عام ١٩٠٨ معارضة شعبية عنيفة ضد المتصرف . فهذبها المنذر له ، وألقاها
 أبو ماضى فى إحدى المناسبات ، ثم أبحر بعدها على الفور هارباً إلى الولايات
 المتحدة « لعله بالغرب ينسى المشرق » . وبعد رحلة استغرقت عشرين يوماً ، نزل
 أبو ماضى أواخر ١٩١١ فى مدينة نيويورك ليختم بعدها قافيتهُ المقذعة قائلاً :

أصبحت حيث النفس لا تخشى أذى أبداً ، وحيث الفكر يغدو مطلقا
 نفسى اخلدى ، ودعى الحنين ، فلنما جهل بُعِيدَ اليوم أن نتشوقا
 هذى هى « الدنيا الجديدة » فانظرى فيها ضياء العلم كيف تألقا
 إني ضمنت لك الحياة شهية فى أهلها ، والعيش أزهر مونقا

وبختام هذه القصيدة التى نشرتها له مجلة « الزهور » القاهرية فى يونيو (حزيران) ١٩١٢ ، وصادف نشرها فشل فرنكو فى تجديد حكمه ورحيله للنهائى عن لبنان فى الشهر التالى ، ختم أبو ماضى - فى رأينا - أخطر مراحل حياته . فقد كانت المرحلة الشرقية ، أو بالأحرى المرحلة المصرية من حياته ، هى مرحلته المصيرية التى فيها غرس « خمائله » ، ومنها جرت « جداوله » .

المراجع

- ١ - «الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر» : عبد العزيز جاویش ، ١٨٧٢ - ١٩٢٩ « تأليف سالم عبد النبي قنير : بنغازی ، دار مكتبة الأندلس ، ١٩٦٨ .
- ٢ - «أمير شعراء المهجر : إيليا أبو ماضي ، ١٨٨٩ - ١٩٥٧ » بقلم جرجى إبرهیم نصر ، « المشرق » ، بیروت ، نشرین الثاني - كانون الأول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٦٩ ، ص ٦٤٧ - ٦٦٠ .
- ٣ - «إيليا أبو ماضي» بقلم جیور عبد النور ، « الآداب » ، بیروت ، شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، ص ٣٨ - ٤٢ .
- ٤ - «إيليا أبو ماضي يقول . . . » بقلم خيرية خيرى ، « الجیل » ، القاهرة ، ١٤/١١/١٩٥٥ ، ص ٣٥ .
- ٥ - «خمسة من شعراء الوطنية : أحمد محرم ، أحمد نسیم ، أحمد الكاشف ، عبد الحلیم المصرى ، على الغایانى » . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
- ٦ - «ديوان إيليا أبو ماضي ، الجزء الثاني» . نیویورك ، مطبعة «مرآة الغرب» اليومية ، ١٩١٩ .
- ٧ - «ديوان تذكّار الماضي» نظم إيليا ظاهر أبو ماضي . الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ .
- ٨ - «الزهور» ، القاهرة ، ١٩١٢ .
- ٩ - «الشعب» ، القاهرة ، ١٩١٠ .
- ١٠ - «شعر» للشيخ إبراهيم المنذر . الجزء الأول . بیروت ، منشورات مكتب الدراسات العلمية ، ١٩٧٣ .

- ١١ - « العرب والترك في العهد الدستورى العثمانى : ١٩٠٨ - ١٩١٤ » تأليف توفيق على برو . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ .
- ١٢ - « العلم » ، القاهرة ، ١٩١٠ .
- ١٣ - « عهد المتصرفين فى لبنان : ١٨٦١ - ١٩١٨ » بقلم لحد خاطر . بيروت ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٧ .
- ١٤ - « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ « بقلم عبد الرحمن الرافعى . ط ٣ . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .
- ١٥ - « مرآة الغرب » ، نيويورك ، ١٩١١ و ١٩١٢ .
- ١٦ - « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ » بقلم عبد الرحمن الرافعى . ط ٤ مزيدة ومكبرة . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ .
- ١٧ - « وطنيتى » بقلم على الغايانى . ط ٣ . القاهرة ، مطبعة « منبر الشرق » ، ١٩٤٧ .
- ١٨ - أشعار لأبى ماضى مخطوطة لم تنشر فى ديوان .

(٥) الصحافة في أدب أبي ماضي

كانت الصحافة ، لا النظم ، عمل المهجرى إيليا ظاهر أبي ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) اليومي ، ومهنته التي كسب منها قوته وقوت أسرته لمدة متواصلة تزيد على أربعين سنة ، من صيف ١٩١٦ ، عندما جاء إلى مدينة نيويورك لتحرير « المجلة العربية » ، حتى ربيع ١٩٥٧ ، عندما حجب جريدته « السمر » وباع مطابعها . ومع ذلك فإن أبا ماضي لم يشتهر عندنا كصحافي قدر شهرته كشاعر . فقد طغت شاعريته على صحافيته حتى كدنا ننسى الأخيرة .

والتصفح دواوين أبي ماضي الخمسة المعروفة ، ليلاحظ أنها لم تخل من ذكر الصحافة فيها ، وأن هذا الذكر جاء مبكراً جداً في أشعاره . فهو يرجع إلى سني استيلائه مصر ما بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ، أيام كان يبيع السجائر والدخان في ثغر الإسكندرية . ففي مصر تفتح ذهنه على « صاحبة الجلالة » ، وعرف دورها ، وفهم قدرها ، ورأى فعلها ، ولعله هناك أيضاً تفتح قلبه لها وحلم باحترافها يوماً . ولكي نخرج برأى أبي ماضي في الصحافة ، تعال معي أيها القارئ العزيز نتبع ذكرها في أدب أبي ماضي المعروف وكذلك المجهول .

قال شاعرنا ، ص ٧٩ ، في « ديوان تذكاري الماضي » (ط ١٩١١) الذي أهداه إلى الأمة المصرية ، يصف سلوك المحتلين الإنجليز تجاه المصريين ، في قصيدة عنوانها « عام ١٩١٠ » :

سلوكوا بنا	كل واد ضيق	حتى قنطنا أن يصيبوا ضيقا
منعوا الصحافة أن تبث شكائنا	منعوا الكواكب أن تبين وتشرقا	
لو أنصفوا رفعوا القيود ، فإنما	يشكو الأسير الأسر إما أرهاقا	

وقال يصفهم أيضاً في نفس الديوان ، ص ٧٥ ، في قصيدة « أيها القلم » ، بعد أن صدر ، في ٢٨/٣/١٩٠٩ ، قرار وزارى بإعادة العمل بـ « قانون المطبوعات » القديم :

وقيدوها لعل القيد يسكتها
وأرهبوا الصحف والأقلام في زمن
وعز أن يسكت المظلوم لو علموا
يكاد يعبد فيه الطرس والقلم
إن يمنعوا الصحف فينا بث لوعتنا
فكلنا صحف في « مصر » ترسم

ونحت عنوان « مصر والاحتلال » ، نظم قصيدة لا زالت مجهولة ، لم يضمها ديوانه السابق ، نشرتها له جريدة « الشعب » القاهرية ، لسان حال الحزب الوطني المصري ، في ٢٧/٣/١٩١٠ ، ص ٤ ، خاطب في ختامها الإنجليز قائلا :

كبلوا أقلامنا جهدا
وإذا عز عليكم أننا
وإذا عز عليكم أننا
يتزع الأرواح من أجسادها
إنما ينقلب الأمر إلى
وإمنعوا الألسن والصحف الكلاما
في وثام ، فانشروا فينا الحصاما
في حياة ، فابعثوا فينا الحماما
أو فكونوا أنتم الموت الزؤاما
ضده إن جاوز الأمر التماما

وعندما خرج الشيخ عبد العزيز جاويز (١٨٧٢ - ١٩٢٩) من السجن في ١١/٧/١٩١٠ ، بعد أن أمضى به ثلاثة أشهر لأنه قرظ ديوان « وطني » للشيخ علي الغاياتي (١٨٨٥ - ١٩٥٦) ، أرسل أبو ماضي إلى الشيخ قصيدة - ما زالت ضمن مخطوطاته - عنوانها « نجوى شاعر » ، جاء فيها :

« عبد العزيز » تحية من شاعر
نفسى فداؤك ، وهى نفس حرة
لما حبست ، حبست طرفى أن يرى
قالوا : « شهور لا تطول وتنقضى »
ما قال إلا أطرب الجمهورا
تأبى الهوان وتكره التصغيرا
وكتمت من ألم الفراق سعيرا
ياويجهم ، سمو السنين شهورا

إلى أن يقول :

فاصفح عن الواشين شيمة قادر
وأعد إلى الأقلام سالف مجدها
وانفض من الأحقاد أفئدة الورى
فلأنت أسمع ما تكون قديرا
وإلى الصحافة عزها المشهورا
واملا قلوب الناشئين شعورا

هذا ما نظمه أبو ماضي في الصحافة في أثناء الفترة المصرية من حياته ، والى تمييز عن غيرها من فترات حياته اللاحقة بتكرار ذكر الصحافة فيها

والدعوة إلى حريتها ، وهى دعوة لم يتفرد بها شاعرنا أيام كان فى مصر ، فقد جاهر بها كتاب وشعراء الحركة الوطنية فى ذلك الحين .

أما الفترة التى يمكن تسميتها بالفترة المصرأمريكية (١٩١١ - ١٩١٩) ، والتى تنتهى بنشر « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » ، فذكر الصحافة فيها لم يأت إلا فى قصيدة « نزوة ألم » ، ص ٩٤ من هذا الجزء ، حيث يقول فى ختامها :

بليتنا صحافى — راء	يداجيننا ، ومالى مرانى
وصحف لست أدعوها بصحف	فما هى بالقشور ولا اللباب
أرى أنهارها — فأظن ماء	كذلك العين تخدع بالسراب
فلم أعثر على لفظ سليم	ولم أظفر بمعنى مستطاب
ولا حسن هناك ولا رواء	وأنى الحسن للطلل الخراب
فإن تشكوا من الشعراء عابا	شكا القراء منها ألف عاب

* * *

ذوى الأقلام إنا فى احتياج	إلى غير الشتائم والسباب
(وودعنا بحفظ الله « زيد »	و« عمرو » جاء أهلا بالجناب !!)
فهل من قائد فيكم حكيم	يشيرنا إلى القصد الصواب ؟
فنظفر بالرجاء على يديه	ويظفر بالأمانى والثواب

فإذا تذكرنا أن « مرآة الغرب » النيويوركية ، كانت قد نشرت « نزوة ألم » أصلا ، بزيادة بيت ، فى ٦/١٢/١٩١١ ، ص ٤ ، بعنوان « خواطر شاعر » ، وكان ذلك عقب وصول شاعرنا مباشرة إلى أمريكا ، واستقراره فى مدينة سنسنانى بولاية أوهايو ، خلصنا إلى الاعتقاد أن أبا ماضى كان يصف لنا فى الأبيات السابقة حال الصحافة المهاجرة فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، بعد أن وقع بصره عليها ، وبعدما وصف لنا حال المهاجرين فى الأبيات التى سبقتها ، حيث قال :

وما همى سوى شعب تعيس	شتيت الشمل ، جم الاضطراب
يحاول رزقه فى المسدن آتأ	وأتأ فى السباب والهضاب
ولو عرف السحاب يدر مالا	لأصبح راكباً متن السحاب
رمته الحادثات بكل سهم	ونخدشه الزمان بكل ناب

فراح كأنما هو شعب « موسى »
غداة التيه في القفر الياب
نأى عن أرض « مصر » حذار ضيم
ففر من العذاب إلى العذاب

أما في « الجداول » (ط ١٩٢٧) ، فقد نشر ، ص ٨١ ، تحت عنوان
« عيد النهى » ، تلك القصيدة التي أرسلها من المهجر عام ١٩٢٦ إلى يعقوب
صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) لتلقى في الاحتفال باليوبيل الذهبي لمجلة « المقتطف »
(١٨٧٦ - ١٩٥٢) ، وقد جاء فيها :

أبناء « مصر » الناهضين تحية
كودادكم إن لم أقل كودادى
من شاعر كلف بكم وبأرضكم
أبدًا يوالى فيكم ويعادى
خلع الشباب على « الكنانة » مطرفاً
هو كالربيع على ربي ووهاد
ما زال يقحم في الجهالة نوره
حتى تقاصر ليلها المتدادى
بصحيفة نور العيون سوادها
وبياضها من ناصع الأجياد
ينبوع معرفة ، وهيكل حكمة
وعاء آداب ، وكنز رشاد
إلى أن يقول :

ما العيد للخمسين ، بل عيد النهى
وفنونه ، والخاطر الوقاد
عيد الصحافة والصحافة كلها
في « مصر » ، في « بيروت » ، في « بغداد »

على أن ذكر أبي ماضي للصحافة والصحافيين في أشعاره ، لم يكن متسماً
دائماً بطابع الجدية الخالص الذي نلمسه في الأشعار السابقة . فقد تناول صحافينا
الشاعر هذا الموضوع الخطير بخفة ودعابة أيضاً ، محببتين إلى النفس ، دون أن
يقلل في الوقت نفسه من جسامته هذا الموضوع الخطير . نسمعه في القصيدة التالية
المجهولة ، يصف لنا عن خبرة شخصية ، ما يعانيه الصحافي يومياً في مهنته .

قال ، وقد ألقى هذه الأرجوزة في حفلة أقامتها « جمعية حاملات الطيب » ،
في مدينة نيويورك ، عام ١٩١٧ ، وكان الحر يومها مديباً :

ياسيداتي « حاملات الطيب »
ويا رجال الفضل والتهذيب
لا تحسبوني قد وقفت موقفي
للمدح والإطراء والتزلف
فإن هذه عادة يأساده
مقنونة ، تبتاً لها من عادة
كان عليها الناس في القديم
أيام كان الحكم للظلم

تكرهها نفوس أهل الفضل
فالحب لا يكون بالأقوال
وبعد هذا الاعتذار الكافي
لا سيما أمثالكم من مثلي
ولأنما يكون بالأعمال
أخبركم عن حالة الصحافي

* * *

عن ذلك المعتزل المنقطع
عن الذي يعيش بالخيال
عن تاجر ليس له عميل
عن ملك ليس له رعيه
عن كائن نظمه جمادا
يبكى مع الأم على بنيتها
مع ذاك فهو بائس متروك
يسامر الأسفار في النهار
ظمان لا يروى ، وليس الماء
يشقى مع الأمة كيلا تشقى
والناس ، ما أقسى قلوب الناس ،

لا من تقي فيه ، ولا من ورع
ولا ييالى بالذى تبالى
وزارع ليس له حقول
وقائد جنوده وهميه
وهو أرق قومه فؤادا
وحمل الهموم عن ذوبها
ليس له في يؤسه شريك
وفي الدجى يسامر الدرارى
حاجته لكنما العلياء
وقد يبيد نفسه لتبقى
ما فيهم آس ، ولا مؤاس

* * *

وهاكم ، يا سادتي ، مثالا
مزجت فيه الجلد بالمجون

مجسما لا يقبل الجدا
خوفاً من الدمع على العيون

* * *

قد أقبل الصيف ، وجاء الحر
هذا إلى شواحق الجبال
وانطلقت جماعة الثراء
تنقلهم من موضع لموضع
تركض في المروج والوهاد
حيث ارتدت حلتها الطبيعة
وكشفت عن صدرها السماء
فغمرت أنوارها التلولا

وخشى الناس الأذى فقرروا
وذاك نحو البحر والرمال
في طلب الراحة والهناء
مراكب مثل البروق اللع
وتارة على ضفاف الوادى
وليست زينتها البديعه
ونشرت رايتها ذكاء
والنهر والأدغال والحقولا

تَمُوجُ مِثْلَ الْبَحْرِ إِذْ يَمُوجُ
فِي الْأَرْضِ مِثْلَ اللَّوْثِ الْمُسْقِ
عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَحْلَامُ الصَّبِيِّ
بَلَى ، هُنَاكَ الْأَمْنُ وَالصَّفَاءُ
فِي اللَّيْلِ تَحْمِيهِمْ عَيُونُ الشَّهْبِ
مَهْرُولا كَالْخَائِفِ الْمَذْعُورِ
بَيْنَ الزُّهُورِ النَّاضِرَاتِ الْغَضَةِ
أَوْقَاتِهِمْ فِي الْهَوِ وَاللَّذَاتِ

هُنَاكَ الْغَابَاتِ ، وَالْمَرْجِ
تَفْتَرِقُ الطَّيْرَ بِهَـا وَتَلْتَقِ
كَأَنَّهَا حَائِمَةٌ فَوْقَ الرِّبِيِّ
هُنَاكَ لَا غَمٌ وَلَا ضَوْضَاءُ
حَيْثُ يَنَامُ الْقَوْمُ فَوْقَ الْعُشْبِ
حَيْثُ يَسِيرُ الْمَاءُ فِي الْغَدِيرِ
عَلَى بَسَاطٍ أَبْيَضٍ كَالْفَضَةِ
هُنَاكَ يَقْضَى مَعَشَرُ السَّرَاةِ

* * *

يَحْتَمِلُ الْهَمُومَ وَالْحَرَارَةَ
ضَيْقَةً مَظْلَمَةً كَالْكَهْفِ
وَضَعْفًا صَائِدَهَا فِي شَبْكِهِ
قَدْ عَلِقَتْ بِقَمْعِهَا الصَّنَارَةَ
إِنْ كَانَ بَرْدُ قَارِسٍ أَوْ حَرُّ
مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى الْغِيَابِ
مَعَ حَبْرِهِ السَّائِلِ فَوْقَ الْوَرَقِ
شَيْئًا فَشِيئًا ، دَمْعَةً فِدْمَعَهُ
وَيَسْتَفِيدُ غَيْرَهُ بِالسَّلْوَى
فَزَادَ فَوْقَ حَمْلِهِ الدِّيُونَا
وَالْبُؤْسَ لَا يَنْفَكُ ذَا رَجَاءٍ
أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ الْبَلَاءَ الطَّامِي
سِرٌّ سِرُّورِ الْأُمِّ بِالْوَلِيدِ
وَعَرَفَ الطَّالِبَ وَالْمَطْلُوبَا
رَاكِضَةً كَأَنَّهَا الْحَيَاتِ
يَطْلُبُ أَنْ تَنْشُرَهَا الْجَرِيدَةَ
وَتَرْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مَقَالَتِهِ

وَالْكَاتِبَ الْمُسْكِينَ فِي الْإِدَارَةِ
فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ كَالْكَفِّ
يَدُورُ حَوْلَ ذَاتِهِ كَالسَّمَكَةِ
أَوْ طَائِرٍ فِي قَفْصٍ ، أَوْ فَارِهِ
لَيْسَ لَهُ مِنْ شُغْلِهِ مَفْرَ
مَا تَأْتِي عَيْنَاهُ فِي الْكِتَابِ
فَنَفْسُهُ تَسِيلُ مِثْلَ الْعَرَقِ
وَهَكَذَا يَذُوبُ مِثْلَ الشَّمْعَةِ
يَتَعَبُ كَالضَّرْسِ بِغَيْرِ جَدْوَى
وَمَا كَفَاهُ حَمْلُهُ الشَّجُونَا
لَكِنَّهُ مَعَ شِدَّةِ الشَّقَاءِ
يَأْمَلُ مِنْ قَرَائِنِهِ الْكَرَامِ
فَإِنْ أَتَاهُ حَامِلُ الْبَرِيدِ
حَتَّى إِذَا مَا فَتَحَ الْمَكْتُوبَا
تَسَاقَطَتْ مِنْ فَمِهِ اللَّعْنَاتِ
وَرَبُّ ذِي مَقَالَةٍ بَلِيدُهُ
وَقَدْ تَمِيدَا لِأَرْضٍ مِنْ ثِقَالَتِهِ

وزائر يلزمه^١ كالم
 يشكو إليه قومه ودهره
 من الضحى حتى طلوع النجم
 وكلبه وديكه وهـره
 وقد يدب النوم في أجفانه
 والضيف لا يبرح في مكانه
 وغير هذى قصص كثيره
 تضيق عنها الصحف الكيره

في هذا القلب الشعري اللطيف ، سجل لنا أبو ماضى انطباعاته الطرية الأولى عن مهنة الصحافة ، وما لمسه فيها من متاعب وهموم أول عهده بمزاولتها ، وقبل أن يكرس بقية حياته لها في المهجر .

على أن أبا ماضى قد ترك لنا أيضاً رأيه في الصحافة عامة والصحافيين المهجريين خاصة ، في كلمة له منسية ، ألقاها في حفلة تأبين الصحافى المهجرى سلوم مكرزل (١٨٧٩ - ١٩٥٢) ، الذى رأس إدارة وتحرير جريدة « الهدى » النيويوركية (تأسست ١٨٩٨) بعد وفاة أخيه نعوم عام ١٩٣٢ .

وكلمة أبى ماضى المجهولة هذه ، كلمة لها قيمتها ، لأنها جاءت قبل وفاته بخمس سنوات ، وبعد أربعة عقود تقريباً من الجهاد فى المجال الصحافى ، استطاع فيها أن يملك أمر « صاحبة الجلالة » ، وأن يتربع على عرشها مطمئناً . فلا بد إذن من إثباتها هنا كاملة ، ليتسنى للقارئ التعرف على مفهوم أبى ماضى الناضج للصحافة والصحافيين ، ومدى تقدير شاعرنا أيضاً للحرفة التى اختار هو بنفسه أن يعيش لها وبها .

« أيها السادة :

نحن الآن فى مآتم رجل من رجال الفكر ، وجندى من جنود دولة اليراع . وموت رجل الفكر ، من أى شعب وفى أى مكان ، خطب جارح ورزء فادح على القوم الذين هو منهم ، وعلى المحيط الذى هو فيه ، وعلى حرفة القلم التى يمارسها ، وعلى اللغة التى يكتب بها .

وهذا الخطب يزداد هولاً وفداحة إذا ذهب رجل الفكر ، ولم يكن منه عوض ولا بديل ، كما هو الحال معنا نحن المهاجرين أبناء الضاد ، كلما مات كاتب منا ، وغاب شاعر عنا .

لذلك أستطيع القول إن موت الصحافي المجاهد سلوم مكرزل نكبة جلى ،
وخسارة عظمى ، ليس على أسرته وذويه وحدهم ، ولا على جريدة « الهدى »
وحدها ، ولا على رفاقه فيها ، والأصدقاء والأنصار حولها وحدهم ، بل على الصحافة
العربية فى المهجر بوجه عام ، بل على اللسان العربى والقلم العربى .

وتتجلى جسامه الرزيثة للمتأمل ، عندما يستعرض فى ذمته كيف انفرط عقد
الأدباء الماهدين فى هذا المهجر ، وهم الكتاب والشعراء الذين أنشأوا فى هذا
الشاطئ الأمريكى مدرسة جديدة للأدب العربى ، تتلمذ لها الناس فى كل قطر
عربى ، حتى أصحاب الطرائق القديمة ، ومشى الأدب ذاته فى ضروب ما كان
له بها سابق علم .

وقد كان للصحافة العربية فى نيويورك الفضل الأكبر فى نشر وترويج
ما أنتجته قرائح الموهوبين الذين كانوا رسل الأفكار الجديدة الحرة الطليقة ،
الموقظة للهمم ، الحافزة للأرواح ، المحررة للعقول ، الهادية إلى الحق والجمال
والخير فى الحياة .

كذلك كان للصحافة اليد الطولى فى بقاء جمرة الحنين متقدة فى صدور
النازحين من الوطن الأول . فما نزلت هناك نكبة أو جائحة إلا وفاضت لها الدموع
هنا ، وفاضت منها الأيدي بالإعانات والهبات .

وعند ذكر هذه النوازل والنكبات ، يسجل التاريخ فى كتابه صفحات
نيرة لامعة لجريدة « الهدى » .

وهل « الهدى » غير اليد التى تديرها ، والعين التى ترعاها ، والقلب الذى
ينبض فى كل حرف من حروفها ، والقلم الذى يحورها ؟

بل ، هل أية جريدة عربية غير صاحبها ؟

إذن ، فكل مأثرة « للهدى » فى عهد سلوم مكرزل هى مأثرة لسلوم مكرزل .

وكل مدح يساق إلى جريدة « الهدى » هو فى الواقع ثناء على هذا المجاهد
الراقد فى نعشه . فهو الذى استبقاها ، وأحيها ، وقواها ، ورد إليها عصر صباها .

قلت إن الصحافي جندى من جنود الفكر . وأزيد على ذلك أنه جندى يمتاز
بأمور كثيرة عن الجندى المحارب بالسيف والمدفع . فهو لم تجنده الدولة ، بل
جند نفسه — وعن طواعية ورضى — للدولة والأمة ، ووقف ذاته على خدمة قومه
والمكافحة عن وطنه ، لا لسنة واحدة ، ولا لبضع سنوات ، بل العمر كله .

ويختلف هذا الجندى عن حامل السيف بأنه لا يرتدى بزة خاصة ، ولا يحمل
الشارات والشرائط والأوسمة ، ولا يتوقع لقاء جهاده مكافأة ولا ضمناً .

إن هذا الجندى هو فقيد الصحافة العربية فى المهجر المرحوم سلوم مكرزل .

وهو جندى لا يمكن أن يستعاض عنه بسواه . وهذا أمر يحزننا كلنا ، ويحزننا
جداً .

أيها السادة :

لقد ظهر فى المهجر جبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) واحد ،

وأمين ربحانى (١٨٧٦ — ١٩٤٠) واحد ،

ورشيد أيوب (١٨٧٢ — ١٩٤١) واحد ،

ونسيب عريضة (١٨٨٧ — ١٩٤٦) واحد ،

ونجيب دياب (١٨٨٠ — ١٩٣٦) واحد ،

ونعوم مكرزل (١٨٦٣ — ١٩٣٢) واحد .

ومثل هؤلاء الأفذاذ أفذاذ آخرون يضيق المجال الآن عن ذكرهم .

وكل هؤلاء الراحلين لم يتكرر منهم أحد .

ولم يرجع إلينا أحد منهم .

واليوم ينطق مصباح آخر من المصابيح القليلة الباقية فى هذا المهجر ، وينطوى
علم من أعلام الفكر الذين بنوا لغة العربية فى أرض « كولومبس » عصرًا جميلًا
مشرفًا ، مثل العصر العربى فى الأندلس ، دون أن يتقدمهم فاتح قطارق بن زياد ،
ودون أن تساندهم وتساعدهم ملوك وأمراء كمارك وأمراء غرناطة وقرطبة وطابطة ،
بل كانوا هم الفاتحين ، والمناحين ، المتقدمين حتى على الملوك والأمراء .

فعلى المصباح الذى خبا سلام .

وعلى البطل الذى هوى سلام .

وألف سلام على رجل الجهاد الراحل . إنه السابق ونحن اللاحقون . لقد أكل سعيه ، وأتم جهاده ، وحان له أن يستريح . فله الرحمة والثواب الجزيل . ولبناته ، وشقيقته ، وأصهاره ، ورفاقه فى « الهدى » ، ولأسرة الصحافة كلها حسن العزاء وطول البقاء .

إنا لله ، وإنا إليه راجعون » .

كانت هذه كلمة صاحب جريدة « السمير » ومحررها ، فى تأبين زميله الصحافى الراحل . ومن يدرى ؟ فلعل أبا ماضى كان يؤمن نفسه ضمناً بهذه الكلمة البليغة الوافية عندما وقف يلقيها يومها فى الحفلة ، وهو يرى أمامه قرب نهاية الطريق .

(٦) رسالة من أبي ماضى إلى طه حسين

فى يوليو (تموز) ١٩٢٧ ، صدر فى مدينة نيويورك عن مطبعة جريدة « مرآة الغرب » اليومية ، وفى ١١٢ صفحة ، ديوان « الجداول نظم إيليا أبو ماضى » (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ، تنصدره مقدمة كتبها ميخائيل نعيمة ، زميل أبي ماضى فى « الرابطة القلمية » .

ولم يكن هذا الديوان - وهو أصغر دواوين أبي ماضى الخمسة المعروفة ، إذ هو يحتوى على ١٢٠٢ من الأبيات - إلا مجموعة قصائد اختارها شاعرنا مما نظمه فى المهجر بين ١٩١٩ و ١٩٢٧ فى أوقات متفرقة ، وظهر له فى « السائح » النيويوركى - بما فى ذلك « السائح الممتاز » - ، و « مرآة الغرب » النيويوركية ، و « المقتطف » القاهري ، ثم ألحق بها مطولته « الطلاس » .

وانتشر الديوان الصغير بعد هذا بين قراء العربية ، وتناوله بعضهم ، لإثر ظهوره ، بالنقد على صفحات بعض جرائد ومجلات المهجر والوطن . فكان من بين الذين نقدوه ولهم كاتسفليس فى « مرآة الغرب » (١٩٢٧/٨/٨) ، ص ٤) وفى « السائح » (١٩٢٧/٨/١١) ، ص ٧ - ٨) ، وجيب إبراهيم كاتبة فى « مرآة الغرب » (١٩٢٧/٨/٢٥) ، ص ٤ - ٥) ، وإدوارد فارس فى « المقتطف » (نوفمبر) تشرين الثانى (١٩٢٧ ، ص ٣١٢ - ٣١٧) .

أما نقد طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الذى نقرؤه فى الجزء الثالث من « حديث الأربعاء » - والذى لم يذكر لنا كاتبه فى هامشه مكان نشره وتاريخه ، كما فعل فى أحاديثه السابقة - فترجح أن نشره كان فى جريدة « السياسة » القاهرية فى أوائل الثلاثينيات ، وبعدها كسبت « الجداول » وناظمها صيتاً .

ولعل طه حسين ما كان ليكتب عن « الجداول » وينقدها هذا النقد اللغوى العنيف ، لو لم يقرأ نبذة عن صاحبها فى كتاب بالإنجليزية عنوانه « زعماء الأدب العربى المعاصر » ، تضمن أيضاً نبذة مفصلة عن طه حسين نفسه . وقد كتب هذا

الكتاب طه الحميرى بالاشتراك مع جيورج كامبفماير - اسمان ذكرهما طه حسين في سياق حديثه - ونشر عام ١٩٣٠ كجزء من المجلد التاسع من مجلة « عالم الإسلام » التي كانت تصدرها وقتذاك « الجمعية الألمانية للمعارف الإسلامية » ببرلين^(١).

ويظهر أن طه حسين - كما نستخلص من مقالته - لم يعتمد في نقده لـ « الجداول » إلا على الديوان وعلى تلك النبذة .

ثم مرت الأيام ، وشاءت الأقدار أن يلتقى ناظم « الجداول » بكاتب « الأيام » التلقاء غير منتظر ، في أواخر ١٩٤٨ ، عندما دعى الرجلان إلى لبنان لحضور مؤتمر اليونسكو الذي انعقد في بيروت وقتذاك . وفي هذا اللقاء القصير تبادل الاثنان حديثاً ، نظن أن أكثره كان حديث مجاملات . وافترق الأديبان بعد هذا اللقاء . فرجع طه حسين إلى مصر ، وأبوماضى إلى أمريكا ، ونسى الواحد الآخر بمشاغل الدنيا .

وجاء ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٠ ، وأسند حزب الوفد وزارة المعارف العمومية إلى طه حسين . ووصل الخبر أبا ماضى . فرأى هذا أن من واجبه كصحافى ، ومن واجبه تجاه أديب عربى آخر ، أن ينقل هذا الخبر إلى قرائه فى المهجر . فكتب إليهم ينبؤهم بالمكانة العالية التي تبوأها طه حسين فى عالم السياسة ، وبما تؤمله مصر على يديه فى عالم الثقافة ، مذكرهم فى الوقت نفسه بما حققه الوزير فى عالم الأدب ، وما أمد به عالم الفكر .

وينتهز ذات الفرصة - على ما نظن - ليكتب رسالة شخصية إلى طه حسين ، يستنجزه فيها وعداً مضى عليه عام دون أن ينى به ، ويرد فيها أيضاً على نقد طه حسين القديم لـ « الجداول » .

إلا أن هذه الرسالة ، التي نجد مسودتها ضمن أوراق شاعرنا المهجرى وبخط يده ، ينقصها للأسف شيئان : ختامها وتاريخ تحريرها الذي قد يكون آخرها^(٢) . وهذا بالطبع يدعونا إلى تساؤل نخرج منه باحثين : إما أن يكون أبوماضى قد أتم فعلاً كتابة الرسالة ، وبعث بها إلى الأديب الوزير ، ثم ضاع ختام مسودتها من بين أوراقه التي احتفظ بها وبقيت بعده ، وإما أن الرسالة لم

تجد طريقها إلى الأديب الوزير لأنها كانت مشروعاً أعرض عنه شاعرنا لسبب من الأسباب ، فظلت بتراء بشكلها الحالي .

وسواء أرسل أبو ماضي رسالته إلى طه حسين أم لم يرسلها ، فالرسالة ، كما هي عليه بين أيدينا ، تبقى مستنداً يفيدنا بعدم رضاء الشاعر عن أجزاء من نقد طه حسين لـ « الجداول » - وهو عدم رضاء شاركة فيه آخرون - ووثيقة نقرأ فيها تصحيح أبي ماضي لبعض ما ورد في هذا النقد .

وإلى القارئ الرسالة^(٣) مع بعض التعليقات :

الرسالة

سيدى الأديب الكبير والوزير الخطير الدكتور طه حسين ،

لعلك تذكر - وأنت صاحب الذاكرة النادرة التى تلتقط الصور والأحداث فتسبقها ، لكى تعود فتحيتها ، أو تعود إليها لتفنيها - أنك التقيت فى مدينة بيروت ، وفى أواخر سنة ١٩٤٨ ، بكاتب هذه الرسالة الذى أعجب بك أديباً قبل أن يراك ، وأعجب بك أديباً وخطيباً بعدما رآك . وأحب أن يبرهن عن هذا الإعجاب فى نفسه ، فترك بين يديك ديوانه « الحمائل »^(٤) ، رغباً إليك أن تطالعه لعله يخفف من نعمتك على الشعراء ، ثم لعلك - وأنت تطالعه - تتذكر كيف جمع بيننا القدر فى لبنان على غير موعد سابق ، وعلى غير توقع منك أو منى ، فتحصى ذاك اللقاء من حسنات الأيام ، أو تحصى فى عداد السيئات والذنوب !

ولما رجعت إلى نيويورك ، وجاء الخبر بارتقائك إلى منصب وزير المعارف ، اغتبطت كثيراً لأنى أحب مصر وأهلها ، وأرجوها الخير والفلاح على أيدي رجالها النوايع ، وأنت فى طليعتهم . وقد أنشأت فى جريدتى « السمر » اليومية فصلاً حول ذلك الخبر ، دلت فيه القراء على مكانتك العليا ، ومقاصدك السامية . ولم أبعث به إليك مخافة أن تحسبه نوعاً من الملق والزلفى . ولكنى وددت لو وقع إليك عفواً ، لتضيفه إلى كلمات التحييد وأقوال التنشيط .

أما الآن فقد أتيت أستنجزك الوعد الذى بذلته لى عندما التقينا فى دار الإذاعة اللبنانية ، وهو أن يتفضل كاتبهم أسرارك بإرسال مؤلفاتك لى ، فهذه المؤلفات لم يصل منها شيء لى . فإن لم يكن أدرك صاحبك النسيان ، فلا شك فى أنه أضاع العنوان ، أو أن تلك المؤلفات نفذت نسخها كلها فما استطاع أن ينجز الوعد .

وكيفما كان الأمر ، وسواء استقام للسكرتير أو لم يستقم عذر ، فإلى ما زلت أنتظر أن أحظى بنتاج قلمك وثمار ذهنك ، حتى « حديث الأربعاء » الذى وقع لى أمس اتفاقاً ، فطالعت فيه مقالاً ، ولا أقول رأيك فى « الجداول » وفى صاحب « الجداول » . فما وجدتك وفيت الديوان حقه من النقد ، لأنك — كما يبدو لى — شغلت عما فيه بما فى نفسك وما حولك ، فكنت عنه وكأنك تكتب عن أحد الشعراء الذين فى محيطك . وانصرفت عن النظر فى معانى قصيدة « الطين »^(٥) التى لم تنظم ليغنيها عبد الوهاب ، ولا لتنشدها أم كلثوم بل للتعبير عن فكرة ، وتقريبها لى الأفهام . وقصيدة من طراز قصيدة « الطين » يجب أن يكون لها عند أديب كبير مثلك شأن أكبر من مؤاخذه ناظمها لأنه « اختار لها الدال الساكنة التى ينقطع عندها النفس » .

ألا تظن أنك لم تحسن الرماية فى هذا المجال ، وأنتك عندما شعرت بأنك لم تحسها ، طرت لى دنيا الجاهلية لتجىء بأبيات بالية مهجورة تستشهد بها على جمال الحركة فى آخر « أم معبد » ، وفى نهاية « تهمد » ، وخفى عليك العيب الفاضح فى بيت البحترى « لج هذا الحبيب فى الهجر جداً » . فكلمة « جداً » لا تليق بشاعر عربى كالبحترى أن ينصب منها قافية فى مطلع قصيدة ، وكلمة « هذا » ، فى البيت ذاته ، حشو بليد . والشطر كله كلام عادى لا يصعب لى تلميذ مدرسة أن يأتى بمثله . فواعجباً لك ، كيف انتقيت هذا البيت ، وأنت صاحب الذوق العالى والفن الأنيق .

ولكن ما لنا وللبحترى ، وللدريد بن الصمة ، ولخطيئة ، عفا الله عنهم ، وعنا . لقد عملوا ما كان حسناً فى زمانهم ، أو قل عملوا ما يتفق مع الزمان الذى عاشوا فيه . ولذلك لا تجد فى دواوينهم كلها قصيدة كقصيدة « الطين » تدور

حول فكرة مستمدة من الحياة ذاتها .

إن لى سؤالاً صغيراً أطرحه عليك ، وأترك الجواب عليه لضميرك ووجدانك ، وهو : هل رأيت فى كل ما رأيت من الدواوين الحديثة التى صدرت باللغة العربية قبل « الجداول » ديواناً كـ « الجداول » يحوى فكراً وشعراً وفلسفة فى قصائد لم يسبق أن نزل مثلها فى ديوان الشعر العربى كله ؟ ! ^(٧)

أقرأت « العنقاء » ؟ وهل تبهرت فى تفهم معانيها ؟ وقصيدة « السجينة » ، أقرأت مثلها من قبل ؟ و « المساء » ^(٨) ، ألم تعجبك ؟ و « الضفادع والنجوم » ، و « التينة الحماقة » ، و « الغدير الطموح » ، وغير هذه مما يجدر بك أن تعود إلى « الجداول » تطالعه من جديد ، وبنفس مجردة عن الهوى الإقليمى ، وعن النزعات العارضة ، وعن مؤثرات المحيط ، وعن الرغبة فى الغمز من قناة أحد . وليتك سألت ، لعلمت إذن أن صاحب « الجداول » ، لم ينس وطنه الأول لبنان ، بل له فيه قصائد لم يقل مثلها شاعر فى وطن ، ولا سيما قصيدة « الشاعر فى السماء » التى تقرؤها فى « الحمائل » .

لو سألت ، لما فاتك أن تعلم أن لصاحب « الجداول » غير « الجداول » وإذن لما حاولت أن تغضب أصدقاءك اللبنانيين ، ولا أن تستفزهم إلى المجادلة والمناضلة عن شاعر هو لمصر ، ولكل قطر عربى مثلما هو للبنان . شاعر يعترف بفضل لبنان الذى أنبته ، وبفضل مصر التى قضى فيها أحسن أيام الصبا ، وبفضل أمريكا التى نعم فى أرضها بالحرية المطلقة . فإذا كان « الجداول » خلا من قصائد فى لبنان ومصر ^(٩) ، فما خلا منها ديوانه الأول وديوانه الثانى ^(١٠) .

واسمح لى أن أقول لك إن تفسيرك هذا البيت ^(١١) :

كلما أفرغت كأسى زدت فى كأسى دنا

هو تفسير خاطئ يدل على ضعف الخيال عندك ، بل أنا أؤكد أن الخيال عندك ضعيف ، ولولا ذلك لكنت شاعراً لا ناثراً ^(١٢) .

فما الكأس والخمر فى هذا المقام غير رمزين يقصد بهما أن الفكرة تنمو

وتزداد وتتكاثر كلما كثر حفاظها وناقلاوها ورواتها . فهي إذن لا تفنى بالإفناء ، بل تفنى بالإمساك .

إذن ، فأنت ترى ، أنك في تفسيرك الخاطئ لهذا البيت كنت واحداً من اثنين : إما أنك تعمدت أن تستحدث عيباً بهذا البيت ، لتبرهن على قدرتك في استحداث العيوب ، وإما أنك لم تجد في البيت غير ما وجدت من ظاهر الكلام ، فكنت ناقداً غير موفق ، وغير متعمق .

كذلك دورانك حول هذا البيت (١٢) :

لست منى إن حسبت الشعر ألفاظاً ووزناً
فالواقع الذى لا ريب فيه أنك تقدر أن ترصف ألفاظاً إلى ألفاظ ، وأن تجعل لها أوزاناً ، ولكنها لا تكون شعراً . وعندنا كثير من الكتب المسجعة والأراجيز والمقامات . والغاية من هذا البيت تبيان خطأ القائلين إن الشعر هو « الكلام المقفى الموزون » . فكثير من الكلام المقفى الموزون ليس شعراً ، وكثير هو الشعر الذى لا يمكن أن يقال عنه إنه كلام مقفى موزون . فكيف غاب هذا عن نظرتك الوفاة وذهنك النير ؟!! كيف ؟

تعليقات

Tahir Khemiri and Georg Kampffmeyer. Leaders in con- (١)
temporary Arabic literature : a book of reference. (Die Welt des
Islams, Berlin, vol. 9. 1930, parts 2-5).

(٢) كان أبو ماضى أحياناً يضع تاريخ تحريره الرسالة في آخر الرسالة بدلاً
من أولها . راجع رسالته إلى محسن جمال الدين في « الأديب » البيروتية ، فبراير
(شباط) ١٩٥٨ ، ص ٦٨ .

(٣) تكرم صديقي الدكتور روبرت ماضى ، نجل الشاعر ، فسمح لي بنشر
هذه الرسالة وينشر صورة الصفحة الأولى منها بخط والده ، فعلى هذا أشكره .

(٤) من المرجح أن أبا ماضى ترك بين يدي طه حسين الطبعة الثانية من
« الحمائل » التي أخرجتها مكتبة صادر ببيروت ، والتي وافق ظهورها زيارة
الشاعر للبنان ، لا الطبعة الأصلية التي صدرت في نيويورك عن مطبعة جريدة
« السمير » اليومية ، عام ١٩٤٠ . ولعل أبا ماضى كان يؤمل أن تحظى « الحمائل »
بكلمة من طه حسين تخفف مما قاله في « الجدال » .

(٥) ظهرت هذه القصيدة أول ما ظهرت في « المقتطف » القاهري ، عدد
١٩٢٥/٢/١ ، وبعد ثلاثين عاماً أثارت ضجة . ففي أوائل عام ١٩٥٥ ،
نشر روكس بن زائد العريزي مقالات اتهم فيها أبا ماضى بأنه سرق معاني
وألفاظ هذه القصيدة من شاعر بدوى اسمه على الرميثي ، قيل إنه عاش في
البادية الأردنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم نشر هذا الاتهام في
كتاب « فريسة أبي ماضى : أول دراسة علمية للشعر في البادية » ، عمان ،
مطبعة الاتحاد ، ١٩٥٦ ، ص ٧٠ . وقام أبو ماضى ين عن نفسه التهمة .
فكان مما كتبه مقال ظهر في « الأديب » البيروتية ، يونيو (حزيران) ١٩٥٥ ،
ص ٦٤ - ٦٥ . أما عيسى الناعوري ، فدافع عن أبي ماضى في كتابه
« إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربي الحديث » ، بيروت ، منشورات عويدات ،
١٩٥٨ ، ص ١٢٣ - ١٤٢ .

(٦) لم يكن أبو ماضى مغالياً في قوله هذا . فقد كان متنبهاً تماماً إلى ما أحدثه من التغيير في عالم الشعر العربي . وهو قول يذكرنا بما كتبه نازك الملائكة في « ملامح عامة في شعر إيليا أبو ماضى » ، في مجلة « شعر » البيروتية ، عدد ربيع ١٩٥٨ ، ص ٩٨ و ١٠٠ ، إذ قالت :

« لعله ليس كثيراً أن نحكم بأن إيليا أبو ماضى قد كان أول من جدد ، القصيدة العربية بالمعنى الذى نفهمه اليوم من التجديد ، حتى ليستطيع الناقد الأدبى أن يؤرخ به فترة جديدة في الشعر العربى . . . »

ونأتى إلى الخصائص التى تميز شعر أبو ماضى فنجد أبرزها ذهنية الانجاء أو الميل إلى التفكير عبر القصائد . إن القصيدة عنده فكرة قبل كل شيء ، والعاطفة بإزائها ثانوية تماماً ، حتى إننا لنفتقد شعر الحب فى ديوان « الجداول » افتقاراً شبه تام .

(٧) كان أبو ماضى معجباً بهذه القصيدة إعجاباً تاماً حتى آخر أيام حياته . فهى القصيدة التى أظهر فيها شعوره تجاه أمه سلمى وخلد فيها اسمها .

(٨) استهل طه حسين مقالته بهذه الجملة : « لست أدري أيرضى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم الجميلة فى الشاعر الذى أتحدث عنه اليوم ضعيف جداً » .

(٩) أصدر أبو ماضى ديوانين قبل « الجداول » : « ديوان تذكارات الماضى » ، الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ ، ص ٨٥ ، و « ديوان إيليا أبو ماضى الجزء الثانى » ، نيويورك ، مطبعة « مرآة الغرب » اليومية ، ١٩١٩ ، ص ١٩٢ .

(١٠) البيت فى « الفاتحة » .

(١١) اعترف طه حسين اعترافاً صريحاً بهذا الضعف فى كتابه « تجديد ذكرى أبى العلاء » فى أثناء حديثه عن « ذهاب بصر المعرى » . إذ قال (ص ١١٣ ، ط ٦ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣) :

« ثم هو بعد ذلك كله قد حرم التمتع بلذة يكبرها الناس ، وجهله إياها
يضاعف خطرها في نفسه ، فإن تعاطى صناعة الشعر أو الوصف فإن هذا
الحرمان قد استتبع ضعف خياله ، وحال بينه وبين مجازاة الشعراء والواصفين
فيما يتنافسون فيه ، إلا أن يكون مقلداً أو محتدياً » .

فلا ريب إذن أن تلك « الآفة المحتومة التي لحقت في أول حياته » قد
منعت طه حسين من متابعة قرض الشعر ، بعدما حاول في شبابه ، وألزمته
التزام النثر .

(١٢) البيت في « الفاتحة » .

(٧) الشيخ إبراهيم المنذر وأبو ماضي

(١)

عزيزي الأستاذ المحترم ألبير أديب ،

طلع علينا عدد مايو الماضي من « أدبيكم » الغراء ، وفيه تعليق لنسيم نصر (ص ٤٧) على « ديوان الشيخ إبراهيم المنذر » (١٨٧٥ - ١٩٥٠) الذي قدمه أمين نخلة ، فتذكرت لتوى تلك المكانة التي كانت للمنذر عند المهجريين ، والتي أشير إليها في كتاب سماح طليع « الشيخ إبراهيم المنذر شاعر الجليل الجديد » (بيروت ، ١٩٦١) . فالشيخ ، كما جاء في ص ٣٦ ، « اهتم بالمغتربين من أمته ، وكن لهم الحب والوفاء ، وعنى بأحوالهم ، فبادلوه حباً بحب ، ووفاء بوفاء ، وبات اسمه عندهم مرادفاً للصدق والتجرد والعقيدة الصافية ، فهم يذكرونه بالخير كلما ذكروا هذه الصفات ، وتذكروا في أي عهد كافر جاهر بها » .

فإذا أردنا بعد هذه الكلمة أن نأتي بدليل مادي على العواطف النبيلة التي كان يحتفظ بها للمنذر المهجريون الذين عرفوا الرجل وعاصروه ، فهو خبر تلك الساعة الذهبية التي أهده إياها شبيبة المحيثة بالولايات المتحدة ، عام ١٩٢٦ ، كرمز لاعترافها بفضلها . وقد رافقت هذه الهدية هدية أخرى ، هي قصيدة نظمها ابن المحيثة ، إيليا ظاهر أبي ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ، بعث بها من المهجر لتلقى في حفلة تكريم المنذر . وهذا نص القصيدة لمن لا يعرفها :

سلام عليك فتي المكرمات	كفاء الغمامة بل أظهر
من الذاكـرين ليلى الحمى	إذ العيش مثل المنى أخضر
وإذ نحن نجمل هذا الفراق	ومن كان يجمل لا يعذر
لقد قصر الدهر عمر اللقاء	فيا ليت أعمار النوى أقصر

ولكننا إن نكن غيباً
بعدنا ولم تبعد الذكريات
فنمسي من الوجد والاغتياب
نقول : ألا ليت نـوابنا
رأيناك تزار دون الحمى
وتخدم قومك عفو الضمير
وتجهر بالحق والأكثرون
فصغنا الهدية من عسجد
فإنك كالذهب الصـرف لا
ولما وجدناك مثل الزمان
جعلنا الهدية مقياسه
تدق وتنض مثل القلوب
ولو لخالك شئنا الكناية
ولكن هديتنا مظهر
وفي قطرة الماء معنى الغدير
مع وافر تحياتي واحترامى .

(٢)

بمناسبة صدور الجزء الأول من ديوان الشيخ إبراهيم المنذر (١٨٧٥ - ١٩٥٠) أشرت في كلمة سابقة (نشرتها «الأديب» في عدد يوليو الماضي ، ص ٥٤) إلى تلك المكانة التي كانت للشيخ عند المهجريين ، وإلى تلك المودة التي بادلوه إياها .

واليوم أعود فأسوق إلى المهتمين بدراسة حياة المنذر وأدبه ، وإلى المهتمين بالأدب المهجري ، أبياتاً من قصيدة أخرى في المنذر مجهولة ، نظمها إيليا ظاهر أبي ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) في سنيه الأخيرة في الشرق .
وليس واضحاً من هذه الأبيات ، أو من غيرها ، السبب أو الأسباب التي

دعت شاعرنا المهجرى - وكان شاباً يومئذ - إلى نظم هذه الأبيات مادحاً بها المنذر . كما أنه غير واضح أكان نظمه لها في مصر أم في لبنان قبل سفره النهائي إلى أمريكا . ولكن الواضح منها أن أبا ماضى كان يعرف الرجل معرفة وثيقة ، وأن ارتباطاً كان بينهما يتعدى مسقط الرأس المشترك ، مما سهل على بعضهم - على ما أظن - الوشى به إلى المنذر .

أصبحت مثل السيف غادر نغمه فرداً وجيش الهم حولي يحقد
لا أستقر ببلدة إلا على سفر إلى أخرى كأنى زئيق
وجرىمى في الدهر أنى شاعر والشعر فيه بضاعة لا تنفق
يا قلب ، ما فى الناس من تشكوله إلا « ابن منذر » المحب المشفق
الصاحب البر الوفى بعهده والكاتب الفطن الأديب المفلق
صحت مودته فليس يشوبها ريب ولا الأكدار فيها تعلق
وصفت خلأته فلو عايتها عاينت أقمار الدجى تتألق
شيم حكمت زهر الرياض وأوشكت لو أنه يذر التكم تعقب
رقت شمائله وهذب لفظه فحديثه السحر الحلال المطلق
صاحبته فصحت منه مهذباً وبلوته حرّاً يقول فيصديق
كالبحر إلا أنه مستعذب والبدر إلا أنه لا يمحى
ترب الكمال وإنه نسب له تهوى الثريا لوبه تعلق
ما فيه عيب قط إلا أنه متواضع فى قومومه مترقى
سمح كأن المال من أعدائه ولذا يفرق شمله ويمزق
ما تلك أغلله تفيض بماله بل تلك خمسة أبجر تتدفق
متأدب يعي ويفهم خصمه حججاً ويخرس دونه المتمنطق
ما راح يكتب فى الطروس يراعه إلا رأيت الدر كيف ينسق
قد لفق الحساد غنى عنده ووشى به عندى العذول الأحق
فازداد عندى قدره ، وازداد ود ى عنده ، وانحل ما قد لفقوا
لما رأونى باكياً يوم النوى طربوا وحثهم السرور فصفقوا
وتوهموا الأيام تخلق ودنا هيهات جبل ودادنا لا يخلق

يا صاحبي ، ولأنت أفضل صاحب
 بي من فراقك لوعة لا تنقضي
 أستنشق الأرواح على تحية
 حملتها ما عن سواك أصونه

يجلو به عهد ويصفو ميثاق
 أبداً وهم في الفؤاد مؤرق
 ممن أحب بطيئها تستنشق
 حذراً فسلها إنها لك تنطق

(٨) كلمة في كتاب عن أبي ماضي

(١)

كنت منهمكاً في كتابة تمة مقال عن الشاعر المهجري إيليا ظاهر أبي ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ، لمجلة « الأديب » الغراء ، عندما وقعت يدي على كتاب « إيليا أبو ماضي : حياته وشعره بالإسكندرية ، ١٩٠١ - ١٩١١ م ، مع ملامح من المدينة وصور من المجتمع الشامي في هذه الفترة » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ١٧٦ ص) . فنحيت مقالاً جانباً ، وأخذت أقرأ الكتاب مؤملاً أن أجد فيه جديداً عن الشاعر ، أضيفه إلى ما أعرفه عنه . ولكن ، كم كانت دهشتي - حين أتممت الكتاب - من بعض تلك النتائج التي خلص إليها عبد العليم القباني ، والتي مرجعها - كما سنرى - تفسير غير صحيح لبيت واحد في « ديوان تذكّار الماضي » .

كنت أود ألا أتناول هذا الكتاب لأن مؤلفه شاعرٌ مجيد ، نال جوائز على قصائد نظمها ، ومؤرخ أدب متفرغ للكتابة ، وصاحب مؤلفات أعرف منها : « شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية » (١٩٦٤) ، و « أشعار قومية » (١٩٦٦) ، و « مع الشعراء أصحاب الحرف » (١٩٦٧) ، و « البوصيري » (١٩٦٨) ، و « بقايا سراب ، شعر » (١٩٦٩) ، و « محمود بيرم التونسي » (١٩٦٩) ، و « زواد الشعر السكندري في العصر الحديث » (١٩٧٢) ، و « فخرى أبو السعود » (١٩٧٣) ، و « نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية » (١٩٧٣) .

و كنت أود ألا أتناول هذا الكتاب أيضاً لأن القباني تربطني به روابط وثيقة ، فهو ابن الإسكندرية مثلي - وإن ولدت أنا من أبوين شاميين لبنانيين ، وعضو في أسرة كلية جامعتي التي تخرجت فيها .

كنت أود ألا أتناول هذا الكتاب لهذه الأسباب ، ولكنني رأيت أنه من

واجبي - وأنا أعرف الكثير الثابت عن أبي ماضي الذي مرجعه دراسة نلت بها درجة الدكتوراه في يونيو (حزيران) ١٩٦٩ من جامعة جورجيتاون بواشنطن - أن أعلق على هذا الكتاب بكلمة فيها ما يرضى الحق ، ويرضى النقد الأدبي ، ويرضى الدراسات « الإيليامضية » ، مدركاً ومقدراً في الوقت نفسه ، تمام الإدراك والتقدير ، مدى الجهد الذي بذله عبد العليم القباني في تأليف كتابه .

(٢)

يبدأ عدد سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ من مجلة « الفنون » النيويوركية بالصفحة رقم ٢٨٧ وينتهي بالصفحة رقم ٣٨٤ . ولكن بين غلاف العدد وبين الصفحة الأولى رقم ٢٨٧ ، توجد ١٤ صفحة غير مرقمة ، لو جاز لنا ترقيمها « أبجدياً » لكانت أرقامها الأحرف ١ إلى ن . في هذه الصفحات ، وتحت عنوان « كلمة عن أدباء الفنون الظاهرة نفثات أقلامهم في هذا العدد » ، يجد القارئ ، في صفحة و - ز ، موجزاً عن « إيليا أبو ماضي » هذا نصه :

« شاعر قرص الشعر وهو في الرابعة عشرة من سنه ، فأصبح والشعر فيه ملكة والقوافي عبيد له خاضعة يقودها كيف شاء .

ولد في المحيثة ببلبنان سنة ١٨٨٩ ، وهاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ ، ومكث فيها منصباً على المطالعة والدرس لنفسه حتى سنة ١٩١١ ، فغادرها إلى أمريكا ، وسكن سنسنتي ، ثم جاء نيويورك في صيف هذا العام ليشغل بالأدب .

وله « ديوان أبي ماضي » ، طبع الجزء الأول منه في مصر ، والجزء الثاني سيهياً للطبع قريباً » .

هذا الموجز ، وهو أقدم موجز لحياة أبي ماضي انتهى إلينا حتى الآن ، كان مصدره بالتأكيد أبا ماضي نفسه . فنسب عريضة ، صاحب مجلة « الفنون » ، ما كان له أن يعرف هذه التواريخ المحددة في حياة أبي ماضي لو لم يمهده شاعرنا بها .

فإذا أردنا بعد هذا ، أن نحدد أيضاً يوم وشهر ولادة أبي ماضي

في سنة ١٨٨٩ ، قلنا إنه ١٥ مايو (أيار) ، وذلك بناء على ما جاء بعد تحقيق وتدقيق عن تاريخ ميلاد الشاعر ونشأته ، ص ٦٥١ ، من مقال بلحرجي لإبراهيم نصر ، في مجلة « المشرق » البيروتية ، عدد تشرين الثاني - كانون الأول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٦٩ .

نخلص من هذين المصدرين إذن إلى غير ما خلاص إليه القباني في كتابه . نخلص إلى : (ا) أن أبا ماضي ولد في ١٥ / ٥ / ١٨٨٩ ، (ب) وأنه كان إما في الحادية عشرة أو الثانية عشرة - نقول هذا لأننا لا نعرف شهر هجرته - عندما هاجر إلى الإسكندرية ، عام ١٩٠٠ ، بصحبة عمه « نعيم » ، (ح) وأنه كان قد أتم الثانية والعشرين عندما هاجر من مصر إلى أمريكا في نهاية ١٩١١ ، ماراً ببلبنان .

(٣)

يقول القباني في كتابه ، ص ٢٩ - ٣٠ ، ما نصه :

« إذا نحن قرأنا قصيدة الشاعر « مصر والشام » ، واستمعنا منها إلى هذا البيت الذي يقول فيه :

مضى عام علىَّ بأرض « مصر » وذا عام وسوف يجيء عام

عرفنا أنه نظم هذه القصيدة بعد أن أقام بالإسكندرية سنة ، ودخل في الأخرى ، وراح يرتقب الثالثة . وبعبارة مبددة نظمها سنة ١٩٠٢ . . . هذه نتيجة لا يجهد الفكر في الوصول إليها . ولكن الذي يحتاج إلى شيء من التعمق هو القصيدة نفسها . »

وليت القباني أعطى هذه القصيدة التعمق كله ، لا شيئاً منه فقط ، لأنه لو كان فعل لوضح له آتئذ أن تاريخ نظم أبي ماضي لـ « مصر والشام » ليس عام ١٩٠٢ كما حدده هو ، بل عام ١٩٠٩ . وإن شئنا أن نكون أكثر تحديداً - بناء على ما لدينا من الأدلة - قلنا بعد ٢٥ مارس (آذار) من ذلك العام . سيسألني سائل : ومن أين لك بالأدلة ؟ سأجيب : من القصيدة نفسها ، شرط أن نقرأها بنصها الكامل ، ص ٧٥ - ٧٧ ، في « ديوان تذكاري الماضي »

(ط ١٩١١) ، لا في كتاب القباني ، ص ٣٢ - ٣٣ ، لأن القباني لم ينقلها هنا بكل معانيها وأفكارها و صياغتها كما ذكر .
لنقرأ معاً هذا البيت المغفّل في نص القباني ، وقد وضعت بين قوسين ما يهمننا فيه :

أ (قانوناً) قيودهم تسمى ؟ إذاً قد أنث الرجلَ اللثامُ
ألا يشير هذا البيت إلى « قانون المطبوعات الصادر في ١٨٨١/١١/٢٦ »
الذي أحياه مجلس النظار (الوزراء) بقرار أصدره في ١٩٠٩/٣/٢٥ ، ونشره
في « الوقائع المصرية » ، ص ١ ، عدد ٢٧ / ١٩٠٩/٣ ، حتى يحذ من
حرية الجرائد ؟

ثم لنقرأ هذا البيت المثبت في نص القباني :
لأ مَ تمنع الدستور « مصر » وقد كادت تفوز به (سيام) ؟
ألا يشير هذا البيت إلى المعاهدة التي عقدت في مدينة « بانكوك » بين
« سيام » (« تايلاند » الآن) وبريطانيا ، في ١٠ / ٣ / ١٩٠٩ ، والتي بمقتضاها
أصبح البريطانيون المقيمون في سيام خاضعين لسلطة محاكم سيام الوطنية ،
وكانوا قبلها - بسبب الامتيازات الخاصة - خاضعين لسلطة محاكم غير
سيامية ؟

ثم لنقرأ الأبيات الآتية المختارة من القصيدة ، وعلى رأسها مطلعها (لاحظ
أن البيتين الثاني والخامس ساقطان من نص القباني) :

أطال الليل أم طال المقام ؟	أم (المحزون) خامره الهيام ؟
فبات يصعد الزفرات وجدّاً	ولما (ناح) أسعده (الحمام)
تجمعت (الهموم) عليه ترى	كما اجتمعت على الماء السوام
وأعوزه على (البلوى) معين	وأعوز ليله (القمر التمام)
كأن نجومه أجفان (باك)	كأن الليل صبّ مستهام

ألا تشير هذه الأبيات إلى حالة إيليا النفسية التي صار إليها عام ١٩٠٩
بعد وفاة شقيقه طانيوس ، « البدر الآفل » في الربع الأول من ذلك العام ، عام
أصاب القباني في تحديده ص ٢٣ ؟

ألا تقطع الأدلة السابقة مجمعة بأن « مصر والشام » نظمت ١٩٠٩ ،
ولم تنظم ١٩٠٢ ؟

سيسألني السائل : أتريد أن تقول إن أبا ماضي كان متغيباً عن مصر فترة
من الزمن عام ١٩٠٨ ؟ سأجيب : تماماً . فهذا ما أستطيع أن أثبت لك ،
وبسهولة ، من « ديوان تذكارات الماضي » أيضاً ، وإن أنا عجزت — في ذات
الوقت — أن أحدد لك بالضبط تاريخ هذا التغيب ومدته وكذلك سببه .
افتح الديوان ص ٤٣ ، واقرأ معي في باب « الغزل والنسيب » ، هذه الأبيات
المتتابعة من قصيدة « لقاء وفراق » :

أصبو إليها وأصبو كلما ذكرت	عندى اشتياقاً إلى « مصر » وأهلها
أرض سماء سواها دونها شرقاً	فلا سماء ولا أرض تحاكيها
رقت حواشيتها واخضر جانبها	وأجمل الأرض مارقت حواشيتها
كأن أهرامها الأطواد باذخة	هذى إلى جنبها الأخرى تساميتها
كانها كعبة حج الأنعام لها	لولا التي قلت فيها : جل بانيتها
و « نيلها » العذب ما أحلى مناظره	والشمس تكسوه تبرأ في تواريها

ألا تدل هذه الأبيات على حين أبي ماضي إلى مصر ، وتحرّقه شوقاً
إليها ، يوم كان بعيداً عنها عام ١٩٠٨ ؟

(٤)

كان إذن أبو ماضي في آخر العشرين من عمره ، أو أول الحادية
والعشرين ، عندما نظم « مصر والشام » ، ولكنه كان في آخر الخامسة
عشرة حينما دارت « معركة شمولبو » في ١٩٠٤/٢/٩ ، وكان في السادسة
عشرة عند « سقوط بورت أرثور » فاتحة ١٩٠٥ ، وكان في بداية السابعة
عشرة لما توفي الشيخ محمد عبده في ١١ / ٧ / ١٩٠٥ . فهل كان أبو ماضي
قادراً ، في هذه السن المبكرة ، أن ينظم ما نظمه في هذه المناسبات الثلاث ؟
أم أن قصائده التي نقرؤها في « تذكارات الماضي » لهذه المناسبات ليست القصائد
الأصلية نفسها التي نظمها في حينها ، بل القصائد الأصلية بعد أن تناولها أبو ماضي

بالتنقيح ، وربما أيضاً بالتطويل ، قبل نشرها في ديوانه ، في النصف الأول من عام ١٩١١ ؟

أقول هذا لأننى لاحظت في أثناء دراستى لشعر أبى ماضى في أطواره المختلفة ، أن هناك اختلافاً في رواية بعض القصائد ، اختلافاً في الشكل و/أو في المضمون .

أما في الشكل ، فقد لاحظت اختلافاً في رسم بعض الكلمات ، وفي ترتيبها (تقديم وتأخير) ، وفي التشطير وعدمه ، وكذلك في تجزئ القصيدة .

أما في المضمون — وهو ما يهمنا هنا — فقد لاحظت اختلافاً في الألفاظ وفي الأبيات ، وفي طول القصيدة ، وكذلك في عنوانها .

خذ ، مثلاً ، قصيدة « صاحب القلم » (لكن مصرّاً) التي أرسلها الشاعر من الولايات المتحدة ، عام ١٩١٣ ، إلى مجلة « الزهور » القاهرية ، يحكي بها مصر ، ويحن فيها إلى وادى النيل . إنها ٣١ بيتاً في المجلة ، بينما هي بزيادة عشرة أبيات في « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثاني » (ط ١٩١٩) .

ونخذ « العميان » (نحن) . إنها ٢١ بيتاً في « مرآة الغرب » النيويوركية عدد ١٤/١٠/١٩١٩) ، لكنها بزيادة ١١ بيتاً في « الجداول » (ط ١٩٢٧) .

ونخذ « نار القرى » . إنها ١٨ بيتاً في « السائح الممتاز لسنة ١٩٢٧ » ، ولكنها ٢٤ بيتاً في « الجداول » .

ثم خذ « الزمان » ، وقارن نصها كما ورد في « الجداول » بنصها في مجلة « المقتطف » القاهرية (عدد ١/٧/١٩٢٤) ، وقارن كذلك نص « يارفاقي » في ديوان « تبر وتراب » بنصها في جريدة « النصر الجديد » الدمشقية (عدد ٢٢/١٢/١٩٥٢) .

بل قارن « شكوي فتاة » (الزواج التجاري) كما جاءت في « تذكارات الماضى » بها كما جاءت في « الهدى » النيويوركية (عدد ١٢/٨/١٩٠٩) .

ربما ما حدث بهذه القصائد ، التي سقناها هنا على سبيل المثال ، هو ما حدث أيضاً بالقصائد الثلاث التي نحن بصدددها — وربما أيضاً ببعض شعر

صبا أبي ماضى الآخر المنشور فى « تذكّار الماضى » — فحدّا هذا الأمر بالقبانى إلى أن « يستكثر » ، ص ٣٥ ، على أبى ماضى « أن يتسع أفقه فى السياسة الخارجيّة إلى الحدّ الذى ينظم فى أحداثها شعراً عربياً سليماً ، فيه جودة و شمول وعمق ، وإن لم تصل درجته بطبيعة الحال إلى حيث بلغ الشاعر فيما بعد » .

على أننا لا نريد أن نخلص ، ممّا ذكرناه أعلاه ، إلى تأكيد ما قاله القبانى ، ص ٤٣ — ٤٤ : « أن من المستحيل على صبي . . . حتى فى السادسة عشرة أن يقول مثل هذا الكلام ، وأن يفكر مثل هذا التفكير ، ثم — وذلك هو الأشق والأصعب — أن ينظم هذا كله شعراً عربياً صحيحاً لا يعيبه من رعونة الطفولة وقلة التحصيل شيء » . ذلك لأنّ مثل هذا التأكيد إنّما يترتب عليه إنكار أن هناك نمواً أدبياً مبكراً ، ونمواً فكرياً مبكراً ، ثبت وجوده لدى بعض الأدباء .

خذ ، مثلاً ، الشاعر المصرى أحمد محرم (١٨٧٧ — ١٩٤٥) الذى تشبه حياته كثيراً حياة أبى ماضى فى معالمها الرئيسية . يقول عنه بدوى طبانة ، ص ١٨ — ٢١ فى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣) ما نصه :

« إن القراءة الدائبة وحدها كانت السبيل إلى تلك الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية التى نَمَتَّ استعدادده الفطرى لصناعة الشعر ، وبلوغه فيه تلك المنزلة الرفيعة التى لا يشك أحد فى بلوغه إياها . . .

ولا نشك كذلك فى أصالة أحمد محرم ، وأنه خلق شاعراً مطبوعاً وعبقرياً موهوباً ، وأن ملكته الفنية جادت مبكرة بمكنونها ، وهو لا يزال غض الصبا وفى ميعة الشباب . وقد شهد له بذلك النبوغ المبكر بعض الذين قرءوا بواكير إنتاجه ، وعاصروا مرحلة حدائته ، ومنهم الشاعر أحمد الكاشف الذى كتب فى العقد الأول من هذا القرن عن أحمد محرم يقول : « لقد أصبح ذكر هذا الشاب الجليل أحمد أفندى محرم متداولاً على ألسن الأدباء ، محبوباً لديهم ، لما اشتهر به من علو الهمة ، وبعد النظر فى كتابته التى تعطرت بها الصحف ، وضربت بجودتها ومناحتها الأمثال ، فما زرت أديباً فى العاصمة

أو غيرها من المدن العظيمة إلا استشهد لى بأشعاره إذا دار بينى وبينه حديث
قديم وحديث ، ولقد يعرفه معظم أرباب الصحف ويقدرونه حق قدره ،
ويظنونه فى الأربعين من عمره ، وأنه من سلالة عربية ، وأنه من متخرجى
الأزهر أو دار العلوم ، مع أنه من أبوين تركيين ، وعمره لا يتجاوز ثمانية
عشر ربيعاً .

ويتابع طبانة كلامه فيقول :

« وقد اجتمعت فى أحمد محرم طبيعتان كان لهما أبعد الأثر فى توجيه
حياته الفنية ، وطبع سلوكه فى حياته العامة بطابع خاص متميز ، وهما :
الشاعرية التى وهبها ، والاستعداد الفطرى للمشاركة فى الحياة العامة .

وكانت الشاعرية التى وهبها ، وبرزت معالمها ، واضحة منذ كان حدثاً
صغيراً يستقبل الحياة ، ولزمته حتى صار شيخاً كبيراً يستعد لتوديع تلك
الحياة ، هى التى دفعته إلى الفرار من التعليم الرسمى بالمدارس الحكومية ،
ليفرغ لهذه الشاعرية ، ويسمّيها بطاقات أدبية يحصلها من قراءاته ، ومن
اطلاعه الواسع العميق على آثار كبار الأدباء والفحول من الشعراء الذين
كان يطمح إلى بلوغ منازلهم من الشهرة وخلود الذكر . . .

وكانت النزعة الأخرى هى نزعة الحس المرهف والاستعداد الفطرى
للمشاركة فى الحياة العامة مشاركة حرة طليقة من سائر القيود التى تحد
من حريته فى الاستجابة لهذه النزعة . . . |

وكذلك اتجه أحمد محرم إلى الصحافة ، وقد وجد فيها المنبر الذى
يتطلع إليه لتحقيق غايته ، وإرضاء طموحه إلى الشهرة وذبوع الصيت ،
ولإشباع رغبته فى المشاركة فى الحياة العامة ، ومعالجة القضايا السياسية ،
والاجتماعية التى تشغل الناس إذ ذاك . وكان ذلك فى فترة من فترات
نشاط الصحافة واصطراع الآراء فى كثير من القضايا والمشكلات التى تشغل
البلاد فى الربع الأول من هذا القرن . . .

وقد خاض أحمد محرم فى هذا المعترك فى سن مبكرة ، يقول إنه

لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى أقبل على الصحف السياسية والمجلات العلمية يكتب فيها عن المبادئ المنتزعة من حقائق التاريخ ، والمذاهب القائمة في صميم الآداب .

هذا عن أحمد محرم . أما عن أحمد الكاشف (١٨٧٨ - ١٩٤٨) ، وهو شاعر مصرى آخر ، فيقول عنه محمود غنيم ، ص ١٦٦ في الكتاب نفسه ، ما يلى :

« وفي السادسة عشرة بدأت تنفتح موهبته الشعرية بعد أن نال حظاً من علوم اللغة وأنس أساتذته فيه ذلك ، فبدءوا يُدرّسون له فن العروض وفنون البلاغة ، فبرز فيهما ، حتى كان يبرز أساتذته في بعض مسائل تتعلق بهما أحياناً . وفي تلك الفترة زار القرشية عالم فاضل ، فأعجب بموهبته ، واقترح عليه ارتجال بيتين في فن الغزل ، فارتجلهما فتنبأ له بمستقبل حافل بالمجد في ميدان الشعر . ومن هنا أمسك بطرف الحيط في نظم القريض . وكان له خال - يجيد النظم - فكان يبعث بإنتاجه إليه لينقده له . . .

بدأ - وهو في السابعة عشرة من عمره - يدبج المقالات الصحفية ، ويبعث بها إلى الصحف ، وعلى الأخص صحيفتي « العمدة » و « الأهالي » ، فلا تكتفيان بنشر ما يكتب ، بل تستزيدانه مما يكتب . كل ذلك وهو تلميذ . على أن مكانته الأدبية الملحوظة جعلته يَدِلُّ بنفسه ، وينظر إلى الأساتذة نظرة من يرى نفسه أكثر منهم إدراكاً ، وينظر إلى الكتب نظرة من يرى نفسه أكبر من واضعها عقلاً .

إذن ، فليس غريباً ولا مستحيلاً - والنبوغ الأدبي المبكر ظاهرة ثابتة عند بعض الأدباء ، كما رأينا - أن ينبغ أبو ماضى في مصر نبوغاً شعرياً وفكرياً مبكراً ، سمح له بنظم قصائد معينة في صباه ، لا نستكثرها على شاعر عبقرى مثله .

(٩) كلمة أخيرة

في تاريخ ميلاد أبي ماضى وفي شعر صباه

قرأت مؤخراً «قراءة جديدة لإيليا أبو ماضى» بقلم صلاح عبد الصبور - هي تذييل لـ «تذكار الماضى» (١٩١١) في طبعة جديدة أصدرتها دار العودة ببيروت ، ١٩٧٤ - فرأيت أن عبد الصبور من الشاكّين في تاريخ ميلاد أبي ماضى ، المرجحون أن أبا ماضى حينما بدأ النظم إنما كان أكبر سنّاً مما هو معروف عنه ، لأن قصائده «فيها قدر كبير من المراتة والمقدرة اللغوية والصياغة بحيث يستبعد أن تكون نتاج صبي في السنوات الأولى من صباه» (ص ٢٥١) :

وحتى لا يتطرق هذا الشك إلى آخرين من المهتمين بدراسة هذا المهجرى ، أسوق كلمة أخيرة في هذا الموضوع - بعد كلمة سابقة نشرتها «الأديب» في عدد ديسمبر ١٩٧٤ - لعل بها يتبدد شك الشاكين ، ويقتنع المرجحون .

قابل عبد المسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣) أبا ماضى لأول مرة في أغسطس (آب) ١٩١٥ ، في أثناء زيارته مدينة سنسنانى ، وبعدها كتب عنه في جريدته «السائح» النيويوركية ، عدد ١٢ / ٨ ، ص ١ ، ما نصه :

«كنت أظن لإيليا أبى ماضى كهلاً متشيباً ، ولكننى رأيته على عكس ما ظننت . فإنه شاب مكتهل . هو من العمر لا يتجاوز الخامسة والعشرين ، ولكنه بلغ خبرة الكهول ، وحكمة الشيوخ » . ثم أضاف : «والناظر إليه يراه هادئاً قليل الكلام رصيناً ، ولكن لا تخفى عليه العواصف الروحية التى يثيرها الهيكمل الهادئ » .

من هذا يثبت لدينا ، بما لا شك فيه ، أن سنة ميلاد أبى ماضى هي ١٨٨٩ ، وليس هناك غيرها . ولزيادة التأكيد ، أثبت فيما يلى ما ذكره الشاعر

المهجري نعمة الحاج - أطال الله عمره - في خطاب له إلى مؤرخ
١ / ٥ / ١٩٧٥ . قال :

« إيليا أعز صديق وأحب عشير ورفيق لي . . . وإني متأكد أنه
من عمري . فطلالما تسداكرنا بذلك . وكلانا ولد سنة ١٨٨٩ ، هو في شهر
أيار (مايو) ، وأنا في شهر آب (أغسطس) ، وكذلك الصديق ميخائيل
نعيمة هو أيضاً من مواليد ١٨٨٩ » .

أما شاعرية أبي ماضي المبكرة ، فيمكننا أن نستدل عليها مما قاله أيضاً
عبد المسيح حداد في المقال السابق نفسه . قال :

« أحرز إيليا شوطاً بعيداً من الشهرة التي بنتها له قصائده الرنانة . فهو
قد خلق ليكون شاعراً ، فالشاعرية ملء فؤاده . وهو من الشعراء الجريئين
النشطين ذوي الحرية التامة . وهذه أوصاف تضعه بين الشعراء النابغين الحقيقيين
الذين ينظمون لوحى أتاها ، ويقولون الشعر عفواً القريحة ، ويخاطبون الأرواح
بلغتها . هو بعيد عن المادة ، لا يتكلف . يتصرف بشعره كما يتصرف الصائغ
المتفنن بوضع الجواهر بأحسن زينة . وهو ليس من أولئك النظاميين الذين
يقرضون الشعر والشعر يقرضهم - لأنهم لم يخلقوا له - لكنهم يستعملون أوزانه
تطلباً للشهرة الكاذبة ، فيجىء شعرهم ركيكاً يظهر به التكلف ظهور الشمطاء
بشعر جازها .

هذا هو إيليا أبو ماضي الشاعر السوري العربي كما اختبرته ، وكما رأيته ،
وكما عرفته . ولن يحب الإيجاز أقول : إن إيليا شاعر بالطبيعة ، لا بالاكساب » .
ملاحظة أخيرة : تاريخ صدور « الجداول » ليس عام ١٩٢٥ ، كما جاء في
« قراءة » عبد الصبور ، وفي بعض مراجع أخرى تناولت أبا ماضي ، وإنما عام
١٩٢٧ .

(١٠) إلى جورج صيدح

عزيزى النابغة جورج صيدح ،

تأخرت « الأديب » العزيزة على قرائها في أمريكا بسبب الأحداث اللبنانية المريعة ، واليوم ، بعد ستة أشهر من تاريخه ، يصلنى عدد سبتمبر ١٩٧٥ ، وفيه ، ص ٥١ ، تعليق لك على مقالى « الحزب الوطنى المصرى وأبو ماضى » .

١ - نحن متفقان فى أن مدينة نيويورك كانت مكان نظم « لم أجد أحداً » ، ولكننا مختلفان فى مكان وتاريخ نشرها . فبينما أنت تذكر أن القصيدة نشرت فى « السمير » (و « السمير » كان صدورها فى ١٥ / ٤ / ١٩٢٩) أجدها أنا منشورة بالحرف ، وبدون إمضاء ، فى الصفحة الأولى من « المرأة الغرب » النيويوركية ، عدد ١٩١٧ / ١٢ / ٢٤ ، أى قبل ظهور « السمير » بما يزيد على أحد عشر عاماً . وثمة دليل آخر لا يتطلب الرجوع إلى جريدة « المرأة » هو أن القصيدة لا تظهر فى « الحماثل » (١٩٤٠) ، ولا فى « الجداول » (١٩٢٧) ، بل فى « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » (١٩١٩) ، ص ٣٣ - ٣٦ .

ولا يمكننى التوفيق بين ما ذكرت أنت ، وما هو ثابت لدىّ إلا بقولى إن شاعرنا ربما رأى ملائماً تجديد استعمال قصيدته القديمة فى الحفلة التى ذكرتها ، وكذلك إعادة نشرها فى « السمير » ، فهذا محتمل ، ولكنه لن يغير من التاريخ الأصلى لنظم القصيدة ونشرها .

٢ - عندك أن أبا ماضى سافر رأساً من الإسكندرية إلى أمريكا . ولكن جرجى إبراهيم نصر (فى مقاله ، ١٩٦٩) ومن قبله جبور عبد النور (فى مقاله بـ « الآداب » (بيروت) ، شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، ص ٣٨ - وهو مصدر اعتمدت عليه ، ولكن للأسف سهوت عن إدراجه فى قائمة مراجعى) يذكران مرور أبى ماضى بمسقط رأسه ، صيف ١٩١١ ، وبقائه به أشهراً ، هاجم أثناءها السلطات قبل هجرته إلى الولايات . وسواء فى ثغر الإسكندرية أو فى

ضبيعة المحيثة لم يكن دور أبى ماضى السياسى أو الإصلاحى دور قيادة ، بل كان دور تعصيد وتأيد . وبرغم تواضع الدور ، فقد جنى منه شاعرنا ثماراً لم يستسغها . ذكر ذلك فى كهولته ، وقال ناصحاً فى « لم يبق غير الكاس » :

واهجر أحاديث السياسة والألى يتعلقون بجبل كل سياسى
إلى نبذت ثمارها مذ ذقتها ووجدت طعم الغدر فى أضراسى
وغسلت منها راحتى ، فغسلتها من سائر الأوضاع والأدناس
وتركتها لاثنين : غر ساذج ومشعوذ كذب دساس

وقال معيداً النصح ، واصفا السياسة فى مرثيته « مجاهد » .

وحذار أشراك السياسة ، إنها بنت أبوها الزئبق الفرار
فيها من الرقطاء نافع سمها ولها نيوب الذئب والأظفار
ترد المناهل وهى ماء سائغ وتعود عنها والمناهل نار
الكذب والتمويه خير صفاتها وشعارها ألا يدوم شعار
لا تطلبن من السياسة رحمة هى حيث ظل دم وحل دمار

وظنى أن قصيدة أبى ماضى فى مدح إبراهيم المندر (راجع « الأديب » ، ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٥٤ - ٥٥) إنما كانت دفاعاً عن نفسه بعد أن لفق بعضهم عنه ، ووشى به سياسياً عند أستاذه .

٣ - صحيح أن أبى ماضى ، لسبب أو لآخر ، توخى إهمال ونسيان قصائده الأولى وكذلك أيامها - كما توخى أيضاً إهمال قصائد له نظمها فى أيام تمام شاعريته . ولكن هذا الإهمال لا يلزمنا ، نحن كدارسين ، أن نسلك مسلك أبى ماضى حينما تجوهرت مواهبه ، فنهمل ما أهمله ، ونهم فقط بما رضى عنه . ثم إن الدراسات الأدبية الموضوعية يجب أن تكون متكاملة ، متممة بعضها البعض ، غير مكررة ، وغير مقتصرة على فترة أو فترات محددة من حياة الأديب المدرس ، ولا مركزة على نتاجه العزيز عليه ، بل يجب أن تتناول كل ما يمكن تناوله لاكتشاف جديد يوسع من نطاق فهمنا الحق له ، وبالتالي تقريب فهم غيره من الأدباء وفهم تطورهم . ومثل هذه الدراسات لا تتحقق إلا إذا توفرت أربعة

أركان : (١) استكمال النصوص الأدبية بالبحث عن المجهول منها ، وجمعه كله -
 بصرف النظر عن حكمنا الشخصى فى قيمته - وإضافته إلى المعروف (ب) محاولة
 تأريخ هذه النصوص (ج) عمل معاجم للألفاظ ، وفهارس للمواضيع وللأعلام
 الواردة فى هذه النصوص (د) عمل ببليوغرافيا شاملة تضم الثمين وكذلك الغث
 الذى كُتب عن الأديب .

هذه وجهة نظر فى دراسة الأدباء ، قد لا يرضى عنها البعض ، ولكن فيها
 يشاركنى غير قليل من الدارسين .

أختم داعياً لك ، مخلصاً ، بطول العمر المقرون ببقاء حدة الفكر وثبات
 اليد ، وعسى لا يطول الوقت إلا والطبعة الجديدة من كتابك عن الأدب
 المهجرى بين أيدي القراء . المعجب بك

جورج ديمترى سليم

(١١) تشارلز أغسطس لندبرج

Charles Augustus Lindbergh

١٩٠٢ - ١٩٧٤

في ٢٦ / ٨ / ١٩٧٤ مات الأمريكي « تشارلز أغسطس لندبرج » الذي طارت معه قلوب ملايين من الناس عام ١٩٢٧ حين قام برحلته المثيرة عبر المحيط الأطلنطي منفرداً .

كان لندبرج عامها قد أتم الخامسة والعشرين ، وحيداً لوالدته (توفي والده عام ١٩٢٤) ، طياراً مجهولاً يعمل في « شركة روبرتسون للطائرات » بمدينة سانت لويس بولاية ميزوري . وكان لندبرج أيضاً طموحاً ، أغرته - كما أغرت غيره - جائزة قدرها ٢٥ ألف دولار أرصدها النيويوركي الفرنسي « ريمون أورتيج » ، منذ عام ١٩١٩ ، لأول شخص يقطع وحده المحيط بين نيويورك وباريس جواً بلا توقف . ولم يكن بالطبع قطع ٣٦١٠ أميال ، (٥٨٠٨ كم) جواً فوق الأطلنطي عملاً مستحيلاً في العشرينيات ، كما ثبت ، ولكنه كان بالتأكيد عملاً جنونياً انتحارياً راح ضحيته بضعة رجال .

وفكر لندبرج في الأمر ملياً قبل أن يدخل مسابقة أورتيج الجوية ويجازف بحياته ، وراجع مؤهلاته ، فرأى أنه لائق بدينياً ومهنيّاً . فجسمه سليم وفي عتفوانه ، وهو طيار ماهر ، وملاح قدير ، وميكانيكي بارع بالمحركات ، وخبير في بناء الطائرات ، ولكنه عاجز عن الاشتراك في المسابقة لأنه فقير ، ادخر من عمله اليومي ألبى دولار لا تكفي لشراء طائرة قيمتها ١٥ ألفاً . فذهب إلى بعض رجال الأعمال الذين كان يعمل بينهم في مدينة سانت لويس ، وتحدث معهم ، فأظهروا روحاً طيبة ، واتفقوا على شراء طائرة له ، كان ادخاره جزءاً من تكاليفها .

ووضع لندبرج تصميم طائرته ، وذهب به إلى مصانع « رايان » بمدينة

سان دييجو بولاية كاليفورنيا . وهناك بقى شهرين يشرف بنفسه على صنع هذه الطائرة ذات المحرك الواحد . فلما كملت ، أجرى عليها كل الاختبارات اللازمة ليتأكد من تمام أداء تشغيلها ، ثم أطارها إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، مجرباً إياها لرحلته الطويلة الخطرة .

وتناهى إلى لندنبرج ، وهو فى طريقه إلى نيويورك ، خبر مصرع الرفيقين « شارل نونجيسير » و « فرانسوا كولى » ، وتلاشيهما فى مياه الأطلسي ، وهما يحاولان معاً عبوره جواً من باريس إلى نيويورك . ولم يفت هذا الخبر المزعج من عزم لندنبرج الصلب ، بل بالعكس شحذ استعداده ، وجعله يقدم على سفرته كما خططها ، وكله رباطة جأش وثقة بالنفس .

وشاءت « إيفانجيلين » ، أم لندنبرج ، أن ترى وحيدها قبل رحيله ، فحضرت بالقطار ، صباح السبت ١٤ / ٥ ، إلى نيويورك . وكان ابنها فى انتظارها على المحطة بسيارته . فأخذها لترى طائرته التى كانت فى حظيرتها ، ثم ذهبوا إلى مطعم هادئ لتناول وجبة الغداء منفردين ، وبعدها رجعا إلى المحطة لتستقل هى القطار عائدة إلى تدريس الكيمياء بدترويت ميشيجان ، ويعود هو إلى استعداداته .

ولقد دهش من شاهد أم لندنبرج عصر ذلك اليوم ، وهى تودع وحيدها على رصيف المحطة بربطة على ظهره ، وبابتسامة على شفتيها ، ثم بتلويح يدها له من شباك العربى عندما تحرك القطار ، وقد ملكت نفسها وضبطت عواطفها ، وكأن تشارلز كان على وشك القيام بسفرة من تلك السفرات العادية الخاطفة التى كان يقوم بها لنقل البريد ، لا بسفرة واضحة المخاطر . ولكن ، جهل من دهش ، أن وراء هذا الهدوء الظاهرى وهذا التمالك بركاناً جياشاً من المشاعر والأحاسيس ، سيطرت عليه نظرة واقعية للحياة ، ترى الأمور على حقيقتها بتعقل وبدون تهويل .

سأل أحدهم إيفانجيلين عن شعورها قبيل سفر ابنها ، فأجابت باقتضاب :
« لولا أنى أكون حملاً زائداً على طائرته لذهبت معه . لا أستطيع الآن أن

أقول شيئاً إلا أنى غير خائفة عليه . . . غداً السبت (٢١/٥) ، وهو يوم عطلى ، سيكون إما أسعد أيام حياتى وإما أحزنها .

وركب لندبرج ، فى الصباح ، «روح سانت لويس» من «مطار روزفلت» بـ «لونج أيلاند» بالقرب من مدينة نيويورك ، وأقنع بها فى ظروف جوية غير مستحبة ، ترافقه العناية الإلهية ، ودعاء الوالدة ، وعطف الملايين على شباب غض وجرة نادرة سخر منها شيوخ طيران ذلك الوقت .

وظل لندبرج محلقاً فى الهواء مدة ٣٣ ساعة وثلاث الساعة ، داعبه خلالها النوم مراراً فـا نـعـس ، وتجلد جناحا طائرته وقتاً فـا يشـس ، وأرعد له الرعد فـا يشـس ، وأزبد البحر تحته فـا عبـس . ورويداً رويداً ، بينما كان لندبرج يشق بثبات عنان السماء ، أخذت النلوج تنقطع ، والغيوم تنقشع ، وشرعت ريح خلفية خفيفة تهب دافعة طائرته إلى الأمام ، فبدأت هذه تندفع مسرعة شرقاً إلى باريس . وهناك ، بالقرب من «مدينة النور» ، وفى ظلام الليل ، هبط لندبرج فى «مطار ل بورجيه» ليجد الفرنسيين قد خرجوا لاستقباله استقبال الأبطال ، مطيرين فى الوقت نفسه ، إلى جميع أطراف الأرض ، نبأ أول إنسان فى التاريخ وصل إليهم عابراً المحيط وحده على جناح الريح .

وهر نجاح لندبرج العالم أجمع ، فتسابقـت الدول إلى دعوته ، والاحتفاء به ، ومنحه الأوسمة . أما الأفراد فبعثوا إليه ، عدا برقيات التهانى ، ما زاد على ثلاثة ملايين ونصف رسالة إعجاب . ولقد أراد أحد الناشرين فى الولايات المتحدة تخليد هذه المناسبة نظماً فأعلن عن مسابقة شعرية بجوائز مالية ، دخلها فى أقل من شهرين أكثر من أربعة آلاف قصيدة ، طبعت المائة الفائزة منها فى ديوان .

والآن ، بعد هذه المقدمة التى كان لا بد منها ، أحب أن أنقل إلى القارئ ثلاث قصائد عربية منسية ، أوحى بها هذه المناسبة التاريخية إلى ثلاثة شعراء مهجريين شماليين .

أما القصيدة الأولى فهى لأسعد رستم (١٨٧٨ - ١٩٦٩) ، وعنوانها «لندبرج ، عندك عندى» . وهى قصيدة فيها حركة وفيها خفة ، سهلة اللغة ، قافيتها «أنجلوعربية» ، وهى مكونة من ١٤ مربعة كل منها مذيلة بالقرار «عندى عندك ، عندك عندى» ، أسقطناه فى النص التالى للإيجاز .

الطائر مختصراً « لندی » رجل أسوجی أرلندی
نسر سيطير إلى « الهند » مرفوع الجانح والبند

* * *

أسد بشجاعته اتصفا فالرعد لديه إذا قصفا
والريح لديه إذا عصففا من لحن كمنجاة « كركند »^(١)

* * *

بطل بآلة قد فاز لم « يحرق دينا » بل كازا^(٢)
لم يسكر ، لم يأكل « مازا » ماجن على غصن الرند^(٣)

* * *

بالأمس تجشم أخطارا وإلى « باری » رأساً طارا^(٤)
ففضى للأمة أوطارا يقضيها القائد والجندي

* * *

قطع « الأتلتيكى » فردا والجوع تحمل والبردا
والطقس ردىء كم أردى من إنسان أو « راشند »

* * *

لافته « فرنسا » فى الحلك بضجيج يدوى فى الفلك
و بـ « لندن » كان مع الملك يتناول من « بكس الكندى »^(٥)

* * *

وإلى « نيو يورك » لقد قفلا وبثوب الشهرة قد رفلا
والشعب بعودته احتفلا من يوم السبت إلى « مندى »^(٦)

* * *

هذا رجل نفع الناسا أشكالا منهم أجناسا
كن عتالا ، كن كناسا كن « موسولنى » ، كن « غندى »^(٧)

* * *

رجل فى الخمس وعشرينا عمرًا ، إن جاوزتشرينا
« مارى » عشقته و « كترينا » فله وجه حلو « دندى »^(٨)

* * *

قد كان فقيراً مسكيناً مع ذلك يرفض مليوناً
ما كان لشخص مديوناً لا يستعطي ، لا يستندى

* * *

غلب الدنيا بشجاعته وتفننه وبراعته
فدقائقنا من ساعته ما قول « أبى ياغى فندى » ؟

* * *

ما قول كسالى الأوطان ؟ أعنى شركاء الشيطان
ما قول رعاع . . . ؟ من حرفتهم ضرب الزند

* * *

لبنى « سوريا » أنعمداد فقر ، جهل ، واستبداد
لكن فى البعض استعداد لطير على جناح « الوند »^(٩)

* * *

يكفيكم شبان اليوم كسلا وغبطاً فى النوم
قوموا للشغل وللصوم هذا من وعظ « بلى صندى »^(١٠)

أما القصيدة الثانية ، فهى لمسعود سماحة (١٨٨٢ - ١٩٤٥) ، ومطلعها :
مجد تنوء بعشه الأيام وتفوق " تعنوله الأعوم
وقد جاء فيها :

أكرم بـ « لندى » قسوراً متفرداً يحتفه الإجلال والإعظام
فى نفسه عزم ، وبين ضلوعه قلب كبير ملؤه الإقدام
لم يعرف التاريخ فرداً قبله مادت له التيجان وهو غلام
ما إن بنى قامى بوصف مغامر فى وصفه تتحطم الأعلام
عبّر المحيط على الهواء ، وخلفه موت يود به اللحاق زوام
عبر المحيط على الهواء ، ودليله فى الليل موج زاخر وغمام
أننى يقلب طرفه يظهر له غيم تألّب حوله وقتام
ضاق الفضا بالخلق يوم وصوله وتعالّت الأصوات والأعلام
تهوى الرعوس على الرعوس وتتقى الـ أقدام حين وقوعها الأقدام

يمشى فتبعه الألف كأنه
 فى شكله ولد ، وفى أقواله
 «لندى» ، على أم رضعت حليبها
 قد أوجدك فأوجدا بك شعلة
 أكرم بجزع فرعه كأصوله
 حل لك المجد الذى أحرزته
 ملك الهواء لك الهواء مطية
 أحرزت مجدداً ليس يخلق ثوبه
 وحلمت بالمجد الرفيع مغامراً
 راع لهم ، وكأنهم أنعام
 رجل ، وفى أفعاله ضرغام
 وعلى أب تحت التراب سلام
 وضاءة ، كالبدر وهو تمام
 إن الكرام بنوهم لكرام
 مستبلا ، وعلى سواك حرام
 ولها البخار شكيمة وزمام
 ما كرت الساعات والأيام
 فهوى عليك ، وصحت الأحلام

وأما القصيدة الثالثة وعنوانها « وثبة خيال ، كيف ودع البطل المجنح أمه » ،
 فمن نظم لإيليا ظاهر أبى ماضى . وهى كما سبرى القارئ ، شطحة من
 شطحات الخيال ، تصور فيها الشاعر ما قاله الطيار لندبرج لأمه [بعدما
 أراها طائرته ، يوم حضرت إلى نيويورك لتوديعه . والحق أن هذه القصيدة
 التى تذكرنا كثيراً ببعض مقاطع «السلام» ، إنما هى ، كما أظن ، ترجمة
 لقصيدة بالإنجليزية نظمها الطبيب والأديب النيويوركى فؤاد ميخائيل العقل .
 ولا أعلم إن كان هذا الطبيب الشاعر قد اشترك بقصيدته هذه فى المسابقة
 التى أشرت إليها أعلاه ، ولكننى أعلم أنه ضمنها مجموعة شعرية من نظمته
 طبع منها مائتى نسخة ، لم أوفق بعد إلى العثور على واحدة منها لمضاهاة نص
 القصيدة الإنجليزية بترجمتها العربية . أما ما عثرتُ عليه من هذه القصيدة حتى
 الآن فهو الرباعية الأولى ، وهى :

My plane is set and waiting there
 To do its part, to mount the air
 And flout the winds to earn its share
 Of honor; let me go, Mother !

ولعل الطبيب الشاعر أهدي نسخة من مجموعته الشعرية إلى أبى ماضى
 ابن بلدته ، كما أهدي نسخاً منها إلى غيره ، فقرأ هذا المجموعة ، وراقت منها
 رباعيات الطبيب فى اندبرج لمضمونها ولشكلها ، فدفعه هذا الروق إلى

نقلها نقلا بديعاً في المقاطع الخماسية التالية :

أُمى ! . . انظري طيارتي كالنسر قد بسط الجناحُ
كى تمتطى متن الفضاء وتصول فيه على الرياح
المجد مطلبها ، كذلك مطلبى المجد الصراح
إنى سأمضى عن حماك ، فلا تقولى - لا براح...
أماه ! . . إنى ذاهب ، فألى اللقاء .. إلى اللقاء

* * *

إن المحرك تائق مثلى إلى السر المُخبَّأ
الدورة الأولى . . . ويمضى يقطع الآفاق قطعاً
ويشق لى بين الكواكب فى الفضاء الرحب درياً
هو بالعلَى صَبَّ ، ولست بغيرها يا أم صبا
أماه ! . . إنى ذاهب ، فألى اللقاء .. إلى اللقاء

' * * *

حان المسير عن الحمى ، أماه ما لكِ واجمه ؟
أفتجزعين من الكوارث ، والكوارث تأثمه ؟
المجد يدعونى إليه ، وقد لحت علائمه
فى الشاطئ الثانى . . . فقوى ودعبنى باسمه
إنى تزودت الرجاء ، وحبذا منك الدعاء

* * *

تبيكين ؟ ما سبب البكاء ، وأى خير فى الدموع ؟
صوفى لآئى مقلتيك ، فلست أَرْضَى أن تضيع
لا تركى الإيمانَ تسحقه المخاوفُ فى الضلوع
واصغى إلى صوت الرجاء يقول فى غدٍ الرجوع
أُمى ! .. اللقاء غداً .. إذن فألى اللقاء .. إلى اللقاء

* * *

أما إذا خاب الرجاء ، وخانى ذاك المضاء

وجميع أحلامي تلاشت واضمحلت كالهباء
وأراد يصرعنى القضاء ، ونال منى ما يشاء
فهويت من أوج الساء إلى الخضيض .. إلى العفاء
لا تعولى كالنادبات ، فلن يردنى البكاء

* * *

أنا إن هلكت ، فليت شعري أى شئ سوف أخسر ؟
ما فى الوجود لذاذة إلا وفيها البؤس أكبر
إنى وجدت العيش أضغاثاً بأضغاث تُفسّر
والموت آخرة الفتى ، ولو أنه كالنسر عَمَّر
وكمَنَ تَقَدَّمَ مَنْ تَأَخَّرَ ، والبقاء كلا بقاء !

* * *

فإلام أخذع بالمنى نفسى ، وأصدقها جهام ؟
وأعيش أكدح كالبهيمة للحصول على الطعام ؟
وأعود أكل كى أعيش ، ومنتهى العيش الحمام ؟
هذى الرواية لا بدايتها تطاق ولا الختام
إن لم نكن قتل الصباح ، فنحن من صرعى المساء

* * *

مثل اللوالب فى الحرك لا تنى تنذبذب
أمى ! . . أنحن الناس أم تلك اللوالب أعجب ؟
تبغى النجاة لنفسها منه ، وأين المهرب ؟
تمتص منه غازه ، كيما تدور وتشرّب
وتدور كى تمتصه ، فالمنتهى كالابتداء

* * *

إنّا نواصل سيرنا دون اعتراض أو سؤال
ونظل منطلقين نركض خلف أخيلة المُحَال
حتى ونحن نرى المصير إلى همود وانحلال

ونشاهد القدر الغشوم يسوقنا نحو الوبال
كالريح تدفعنا كما شئت ، وليس كما نشاء

* * *

أبكون ، يا أمى ، المصير كذا ، وأرضى أن يكون ؟
وأبيت أجنح للسكون ولا نجاة مع السكون
والهاربون من الحمام إليه منه يهربون ؟
لو كانت الديدان ، يا أماء ، تحتقر المنون
لرأيتها مثل التسور تجول فى عرض الفضاء

* * *

أمى ! . . اخبرنى أين بى ترسو السفينة فى غد ؟
أتؤم ميناء الروموس الصامات الهُمْد ؟
خير إذن يا أم لى ، ما دام أمرى فى يدى ،
أن يحطم الأنواء فلكى فى الخضم المزبد
وتغيب قبل وصولها ، وأغيب فى نور ومساء

* * *

فلعل طائفة من الأسماك تأكلنى وتسمن
ويصيدها مسترزق طاوى الحشى ضاوى فيسمن
أو تشتريها غداة منه وتأكلها وتسمن
فيظل دولاى الحياة يدور ، يا أمى ، ويطحن
هذا أحبُّ إلىَّ ، يا أمى ، وأكفَلُ للنماء

* * *

وكذا أوقرُ ذلك الجزء الذى يدعى الضريحُ
لسواى . . يا أمى ، لعل سواى فيه يستريح
لنكن لغيرى الأرض خالصة ، ولى البحر الفسيح
لا دود فيه كاللحود ، وليس تفسد فيه ريح
فأنام فى كفن من الأمواج أو كفن الضياء

* * *

ليكن هنالك مآتمى ، إن لم يكن بين الغيوم
 فترتل الأمواج من حولى ، وتستمع النجوم
 ويكون دَفَّانِي إله البحر « نِسْتُون » العظيم
 وكذلك أنجو من صلاة القس والوعظ السقيم
 وأصون من دمع الأسمى مقل العذارى والنساء

* * *

أى ! . . وداعاً حان أن أمضى وأجتاز التخوم
 فالبحر منتظر يسائل فى الدجى عنى النجوم
 إن لم يصفق فى غدٍ ، ويهنيء النسر العظيم
 فلسوف يحنو موجه منى على بطل كريم
 أى . . وداعاً والسلام !

الخواشي

- (١) كركند : هو الموسيقار المهجري نعيم كركند ، نائب رئيس « نادى الموسيقى العربية » الذى تأسس فى مدينة نيويورك عام ١٩٣٣ .
- (٢) كاز : وقود الطائرة .
- (٣) مازا : كلمة عامية فصيحها « مزة » (بتشديد حرف الزاى) ، وهى ما يؤكل على الشراب من فقل وكامخ ونحوها .
- (٤) بارى : العاصمة باريس .
- (٥) بكس الكندى : كلمتان إنجليزيتان معناهما « صندوق الحلوى » .
- (٦) مندى : كلمة إنجليزية معناها « يوم الاثنين » .
- (٧) موسولينى : رئيس وزراء إيطاليا الفاشستى ، حكم ما بين ١٩٢٢ و ١٩٤٣ .
- غندى : هو المجاهد الهندى الذى دعا إلى المقاومة السلمية ، قتل ١٩٤٨ .
- (٨) دندى : كلمة إنجليزية معناها « متأنق » .
- (٩) وند : كلمة إنجليزية معناها « الريح » .
- (١٠) بلى صندى : هو « وليم أشلى صاندى » ، مبشر إنجيلى أمريكى اشتهر بعظاته ، توفى . ١٩٣٥ .

(١٢) الهجاء فى أدب المهجر

تناول الدارسون لأدب المهجر فى دراساتهم خصائص هذا الأدب العربى الحديث ، كما تناولوا فنونه وأغراضه ، وأغفلوا ، وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فناً مهماً ، فى هذا الأدب هو فن الهجاء . ولعل مرجع هذا الإغفال هو اعتماد هؤلاء الدارسين على النتائج المعروفة المتداول من أدب المهجر ، وفى مقدمته الدواوين الشعرية ، هذا النتائج الذى اقتصر على ما أراد أدباء المهجر له البقاء والانتشار من نتائجهم دون غيره . وكان من أثر ذلك أن امحى كل أثر لفن الهجاء فى أدب المهجر ، وكأنه لم يكن ، وإن بقى منه شئ فى النتائج المعروفة المتداول لهذا الأدب ، فى صورة لا تمت إلى الهجاء بصلة ، ولا تم عليه .

نقرأ مثلاً للشاعر المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى فى « الجداول » قطعة عنوانها « العير المتنكر » ، يقول فيها :

زعم المؤدب أن عيراً ساءه	ألا يسار به إلى الميধান
فمضى فقصرت القواطع ذيله	وسط مواضعها على الآذان
حتى إذا جاء المروض واعتلى	متنيه راب الفارس الكشحان
لكنه ما زال غير مصدق	حتى علا صوت كصوت الجان
فاستل صارمه فطاح برأسه	ورى يجمته إلى الغربان
مادام يصحب كل حى صوته	هيهات يخفى العير جلد حصان

نقرأ هذه الأبيات ، ثم نتمعن فيها ، فنراها أبياتاً فى الحكمة ، ساقها لنا الشاعر فى صورة مثل ، وإن جهلنا المناسبة التى أوحى إليه بها . ونراها كذلك ، على ما يظهر لنا ، أبياتاً هادئة لم تصدر عن سخط وغضب ، ولا تهدف إلى التعبير أو إلى الجرح والإيلام . أما تاريخ نظمها ، وإن عجزنا عن تحديده بالضبط ، فتقريبه ممكن . فهو لابد أن يكون الفترة الأمريكية

الثانية للشاعر ، أي ما بين ١٩١٩ (تاريخ نشر «ديوان إيليا أبو ماضي» ، الجزء الثاني) و١٩٢٧ (تاريخ نشر «الجدول») .

هذا ما نستشفه من هذه القطعة بسهولة ويسر ، في حين أن الحقيقة التي لا يمكن أن تخطر على بالنا غير هذا . فها هذه الأبيات إلا أبياتاً ستة اقتطعها أبو ماضي من قصيدة طولها ٥٢ بيتاً ، عنوانها غير عنوانها في «الجدول» ، نظمها في فترته الأمريكية الأولى ، أي ما بين ١٩١١ و١٩١٩ ، وكانت خاتمة قصائده في مناظرة هجائية : وإليكم القصيدة :

يا نوح

أين دلائل الطوفان ؟

أهل الفساد وزمرة الشيطان	كم تدعون محبة الأوطان
خلوا النواح على الربوع وأهلها	ما ثم من خطر على « لبنان »
أنى يضيق ، وأهله أسد الشرى	وله من الدولات خير ضمان
وإذا الضراغم لم تصن أجماتها	أبصونها فسّل من الجعلان ؟
أما « البقاع » فلا يُردُّ بالسن	ثروة ، بل بالنجيع القاني
ردوا على الشعب المهاجر ماله	لا تبدلوه حقائقاً بأمانى
فالقوم حاجتهم إلى أموالهم	مثل احتياجهم إلى العرفان
تعس الذي رضى الأمانى ثروة	إن الأمانى ثروة الكسلان

* * *

قلتم : ندود الضيم عن إخواننا	إخوانكم في غبطة وأمان
يحميهم علم النجوم ولم يزل	علم الكواكب مكرم الضيفان
هم بين أهليه وفي أكنافهم	وكانهم في الأهل والإخوان
وزعمتم بالنازحين غرامكم	وغرامكم بالأصفر الرنان
لو صح زعمكم وكنتم قوة	لوقيتموهم سطوة « العبدان »
جاروا عليهم ، لم يبالوا زاجراً	جور القوى على الضعيف العاني

وتبدلوا من عزم بهوان
فكأنها مرت على حيطان
تدعون بالإعزاز للسلطان
ما أجهل الوسنان باليقظان
أتقاتلون الحق بالبهتان ؟
إن الجريح يسب كل سنان
يعتاق أقواها عن الطيران
وتظل حائمة على النيران
وخلقتم للهذر والهذيان
ولقد أذاك كاسر العقبان

لحق عليهم كيف روع سربهم
ولقد أتنكم صرخة استنجداهم
باتوا يسامون العذاب ويتم
نتم فخلتم كل طرف نائمًا
رفع الستار ، وبان كل مكتم
لا غرو إما سبني سفهاؤكم
ذم الخفافيش الضيياء لأنه
ومن العجائب أنها تقلى السنى
خلق الورى ، ولكل نفس غاية
أنى نجاتك يا عصفير اللوى

* * *

يانوح ، أين دلائل الطوفان ؟
بل كيف تحميها من القرصان ؟
— وإن ارتقت — فرع من السعدان
تحوى الكهول سخافة الصبيان
وتظل عيناه على الهيمان
ما كان إلا سائق الأظعان
متنقلا من موضع لمكان
للذعر يمشى مشية السرطان
فكأنه فى حالك الأدجبان
وفى القصائد طارق الحدثبان
خوف الصغير طوائف الغيلان
وتخالها الأجفان فى الأجفان
من « عزة » قد ضاع قبل اثنان
فتداركوه بالرسول الثانى

قل للذى ملأ اليباب سفائنا :
من ذا يسير بها إلى غاياتها ؟
الآن أيقنت البرية أنها
لا تعذل الصبيان فى سخف ، فقد
يضع المسلم كفه فى كفه
والله لولا أنه فى مثله
أوما تراه حاملا كشكوله
خبيلته شاردة القوافى فانثى
متخبط والشمس فى كبذ السما
أمسى يسمى النائبات قصائدًا
فإذا تطيف به اقشعر فؤاده
ويظنها فى أكله وشرابه
يا قوم ، أخشى أن يضع رسولكم
إن كان فى أكبادكم من رحمة

* * *

يهذى ، كمن قد بات في سجران
عندي لكل منكما نعلان
والحسن لا يخشى من الإعلان
لم يبدُ من خديهما القميران
لم تلق إلا خائفاً أو جاني
ألا يسار به إلى الميدان
وسط مواضيها على الآذان
متنيه ، راب الفارس الكشحان
حتى علا صوت كصوت الجان
ورى بجثته إلى الغريبان
فالعير لا يخفيه جلد حصان
آثار شسعى فيه كالعنوان
لعن القريض مؤلف الأوزان
حتى تنال الفرقدين يبدان

ما بال مصفوع المفارق والقفا
لا تحسدا ، يا أخدعيه ، قذاله
بل ما لمقلوب اسمه يخفى اسمه
إن التحجب لو يكون فضيلة
وإذا هتكت السر عن متكم
زعم المؤدب أن غيراً ساءه
فمضى فقصرت القواطع ذيله
حتى إذا جلاء المروض واعتلى
لكنه مازال غير مصدق
فاستل صارمه فطاح برأسه
مادام يصحب كل حي صوته
إن تستر هيهات تستر مفارقاً
يأبها الغر الذي من أجله
ما أنت بالغ ما وطأت بأخمصى

ونحن لا نعلم الأسباب الحقيقية أو الدوافع النفسية التي دفعت الأدباء
المهجرين ، وأباً ماضى منهم ، إلى إهمال مثل هذه الأهاجى التي قدحوا قرائحهم
في تأليفها أو في نظمها ، وإلى إسقاطها من حسابهم .

لعلهم فعلوا ذلك ظناً منهم أنها ليست من الأدب الإنسانى العالمى الذى
يراد له البقاء ، بل من الأدب الوقتى العابر المحدود الذى لا يحمل رسالة ،
ولهذا يجب أن تزول بزوال الزمن التى كتبت فيه ، وبزوال الأسباب التى
دعت إليها .

أو لعلهم تعمدوا إسقاطها — برغم ما فى بعضها من إبداع وطرافه — لأنها
تحتاج إلى مقدمات وإيضاحات ، بدونها لا يستقيم تفهماها ويساء الحكم عليها ،
وهذه المقدمات والإيضاحات ، مهما كان نفعها ، لن تؤدي فى النهاية إلا
إلى فتح جروح اندملت ، وإشعال نيران خمدت ، وتجديد معارك هدأت .

بل لعلهم تبيينوا ، مع مضى الوقت ، أن هجاءهم كان أكثره نتيجة التسرع
وسورات الغضب ، والإنسان فى تسرعه كثيراً ما يزل ، وفى غضبه أبشع ما يكون ،

فرجعوا عما قالوه ، وندموا على ما كتبوه ، وأرادوا لأهائجهم أن تبقى مجهولة حتى لا تلتطخ الصورة الجميلة التي احتفظ لهم بها المعجبون بهم ، إذ قد يكون في تلطخ هذه الصورة ما يفقد فلسفتهم قيمتها .

أو لعلهم صفحوا وعفوا حقاً عما جرى ، فتغاضوا عن هذا النتاج ، وأسدلوا ستار النسيان عليه .

على أن إهمال الأدباء المهجريين أنفسهم لنتائجهم الهجائي ، وتغاضبهم عنه ، وتناسيهم إياه ، مهما كانت أسبابه ودواعيه ، لا يدعونا نحن بالتالي إلى إهمال هذا النتاج أيضاً ، بل يجب أن نجعله ، لأسباب تاريخية وأدبية ولغوية ، قبل أن يضيع ويندثر ويصير إلى ما صارت إليه الكثير من النصوص ، مما سبب تعزراً في دراستنا . ثم لا يجب أن يرجعنا هذا التغاضي للأدباء المهجريين ، عن دراسة الهجاء عندهم . فكما درسنا الحنين والوطنية في أدبهم ، وكما درسنا الطبيعة والحب والحيرة والتساؤل ، وكما درسنا التأمل والتصوف والتفجع وغيرها من الموضوعات ، آن لنا أن ندرس فن الهجاء في أدبهم . إذ بدونها لا تكمل دراسة الأدب المهجري ، وتظل الصورة التي رسمتها لنا هذه الدراسة ، للفرد المهجري ومجتمعه ، صورة مشوهة بعيدة عن الحقيقة . فنحن نرى — كما رأى محمد محمد حسين من قبل ، في كتابه « الهجاء والهجاءون في الجاهلية » — أن « فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالاً بالحياة وبالواقع » . ثم إن الهجاء — كما ذكر سامي الدهان أيضاً في كتابه « الهجاء » — « سوق رائجة منذ القديم ، وفن مطروق منذ فجر الأدب العربي ، لا بد من البحث فيه ، ودراسته على أنواعه وأقسامه . . . إن الهجاء فن من فنون الأدب الرفيعة في الأدب العربي ، قد يعين على تصور الحياة عند الأفراد وفي المجتمع ، وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية حين يصدق الشاعر . . . وهو على ذلك يحوى ألواحاً من الصور تضاف إلى الآداب الإنسانية في القديم والحديث ، فتعنى متحف الهجاء في الأدب العالمي ، وتكسبه روعة لا تقل عن روعة الآداب الأخرى ، إن لم تزد عليها وتبزيها وتسبقها إلى ميادين النبوغ والعبقرية والإلهام » .

فإذا أضفنا إلى هذين القولين قول جورج صيدح : « بأن كل ظاهرة في أدب

المهجر تتوافر أنت على تحليلها وتعليلها تنغم منها درساً عن الجانب الخفى من أوضاع الأدباء ، وتكسب خبرة تعينك على التأليف عن نفسياتهم ، وعقليتهم ، ونزعاتهم ، وخصوصياتهم ، لا عن أدبهم وفتوحاتهم فحسب . إن لهم مبادئ كما لهم مطارف ، وأدبهم حلية ذهبية بهرتنا بلألأائها ، فعمينا عما فى جانبها الخائى من القصدير والتلك . والآن بعد أن تواترت الدراسات عن وجه الحلية المتألق ، أصبح من الجديـد المفيد دراسة ظهرها الصدى » . إذا أضفنا هذا ، تبين لنا أهمية دراسة الهجاء فى أدب المهجر .

فسترينا هذه الدراسة نشأة هذا الفن ومسوغاته فى المهجر ، وسترينا الأزمات التى كانت تعصف بالمجتمع العربى الصغير فى غربته ، كما أنها سترينا الصراع والتطاحن المستمر الحاد الذى بقى يعيش فيه المهجريون ما بقيت لهم تكتلات على اختلاف أشكالها وأغراضها ، وما بقى هناك كتاب وشعراء يدافعون عن هذه التكتلات على صفحات الجرائد المهاجرة المختلفة . هذا من الناحية التاريخية .

أما من الناحية الأدبية ، فسترينا دراسة الهجاء فى أدب المهجر مثلاً ، مدى المقدرة الشعرية التى كانت لبعض الشعراء المهجريين . فقد أجاد بعضهم فى فن الهجاء إجادته فى الفنون الأدبية الأخرى ، وإن جهلنا نحن حتى الآن هذا الأمر ، الذى كان له صدهاء بين معاصريهم .

طالع « معجب » قصيدة من قصائد أبى ماضى فى الهجاء -- هى أبلغ وأقوى ما نظمها هذا الشاعر فى هذا الفن -- فكتب : « على أنى أقدر أن أقول إن القصيدة التى ظهرت فى « المرأة » منذ عهد قريب بلا توقيع ، سيكون حظها من الخلود كبيراً لما فيها من السلاسة والرقّة وأداء المعنى المبتكر بلا تكلف ولا تعسف ، مما يشهد لناظمها بالمقدرة على التصرف بالمعانى والألفاظ كما يشاء .

إن تلك القصيدة ستخلد ، وإن كان صاحبها على ما يظهر من تكمته لا يود لها الخلود . فإن بقاء القصيدة أو زوالها لا يتوقف على رغبة ناظمها ولا على رغبة سواه ، ففيها من الأبيات ما يصح أن يستشهد به الناس فى كل زمان ومكان . . .

وقد كنت من قبل شديد الإعجاب ببيت المتنبي المشهور :

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفى يده من ننتها عود

ولكنى اليوم أشد إعجاباً بهذين البيتين الجامعين فى وصف نفس الذى كنى
الشاعر عنه ، « الأخطبوط » :

وإن تكن نفسه فى الجسم باقية فإنما خبئها فى الجسم أبقيها
فإن « عزريل » يخشى أن تدنسه والأرض إن أصبحت فى الأرض مثواها

وهكذا كلما دقق المطالع النظر فى هذه القصيدة البليغة ، يجد أن كل بيت
من أبياتها يصلح للنمثيل به فى حالة من الحالات العامة ، أو موقف من مواقف
الحياة اليومية . . .

ربما كان اللذان قيلت فيهما هذه القصيدة يتمانيان لوبقيت سرّاً مكتوماً فى
صدر الزمان ، وربما كان ناظمها يتمنى لو لم يكن ذاك الشخصان فى الوجود لكى
لا تكون له هذه القصيدة ، ولكن أنا والذين يقدرون الشعر الجيد قدره
نعتقد أنها « من حيث الفن » طرفة لا يسمح الدهر بمثلها إلا نادراً . وأخشى إذا بقى
ناظمها مجهولاً أن يدعيها سبعمائة شاعر لا سبعون فقط .

أما من الناحية اللغوية ، فلا شك أن جمع النتائج الهجائى ، كأثر أدبى ،
سيساعد على توسيع مادة القاموس اللغوى للأدب العربى فى المهجر ، لمن يريد
خصر مفرداته ، والتعرف على معانيها المختلفة ، وكذلك على تتبع تطور استعمال
الألفاظ فى العربية عامة .

بقى « بعد ما تقدم » أن آمل أن أكون قد وضحت توضيحاً كافياً أن هناك
مسالك غير مطروقة فى دراسة الأدب المهجرى أولى بأن تطرق من التكرار المعهود
فى دراستنا .

(١٣) الكلاب في أدب المهجر

(١)

تابعت بإعجاب طرائفكم عن « الأدب والكلاب » ابتداء بعدد أبريل الماضي ، حتى جاء الحديث عن « الكلاب في شعر المهجر » في عدد أغسطس . وهنا أحب أن أصحح خطأين وردا في « رواية جورج صيدح » المنشورة ص ٥٤ : ١ - إن الأبيات السبعة الأولى المذكورة ليست لإيليا أبي ماضي ، كما جاء في « الأديب » ، وكما جاء أيضاً في كتاب صيدح « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية » (ط ٣ ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٤) ، وإنما هي لنسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦) ، من قصيدة هذا نصها :

خلياني بلوعتي وانتحباي	ياخليلي ، فقد فقدت صوابي
ما أرا أسلو « فني » وهواها	فدعاني ، ولا تطيلا عذابي
عضها الدهر بعدما عضت النا	س ، وقامت بحق حفظ الحجاب
كم فقير أتى ليشحذ قوتاً	حرمته « فني » الوقوف ييبي
وغريم قد جاء يطلب مالا	تركته معفراً في التراب
وشقى أ ليسرق شيئاً	غادرته ممزق الأثواب
رحمة اللحم والعظام عليها	وصلاة الضحون والأكواب
فارتها وطالمها لحستها	وكستها غلالة من لعاب
غفر الله ذنبها كم توارت	للقاء العشاق بعد الغياب
وأنت الصباح تهتز غنجاً	غضة القيد والصبا والإهاب
في زوايا العينين منها بريق	غامض مثل شعلة في الضباب
ثم لما رأيت تجهم وجهي	ودرت تحته كلام العتاب
أقبلت تلحس اليدين وترجو	رحمة أو هودة في العتاب
غفر الله ذنبها ووقاها	حر نار الجحيم ذات العذاب

فهي خير من الأنعام وأوفى
لم تكن تحلف اليمين لمين
لم تصانع ، ولم تخادع صديقاً
لم تخامر في الود يوماً لتخفى
ما سعت لاكتساب مال وجاه
ولو ان الإله كان يجازى
لحبهاها النعم تختال فيه
تأكل البقسماط يغمس بالشه
من «سعاد» و«زينب» و«الرباب»
أو تعالج نعمة لاغياب
أو تقابل ذا منة بالبواب
بجميل الكلام طبع الذئاب
بخداع وسرقة واغتصاب
مثل نسل الأنعام نسل الدواب
بين حور وولدة أتراب
د ، وتعطى ما تشتهي من كباب

• • •

«صاح هلى قبورنا تملأ الرح
أو ليس الكلاب أكثر ودّاً
أو ما للكلاب حرمة موت ؟
يا «فنى» ، قد حرمت قبراً ولكن ،
وثرى الناس ليس أفضل جنساً
فسقتك الدموع منى ، وروة
ب « ، فأين اختفت قبور الكلاب ؟
ووفاء من شيبنا والشباب ؟
أو ما للكلاب حق الصحاب ؟
ستعودين مثلنا للتراب
من تراب الكلاب عند السحاب
لك عيون السحاب بالتسكاب

٢ - إن الأبيات الستة الثانية ليست لأبى ماضى أيضاً ، كما جاء ، وإنما هي لفيليب
كاتسفليس ، شقيق ولیم ، الذى كان له صديقة اسمها «فنى» ، وذلك حسب
ما جاء فى كتاب صيدح السابق ، وكما هو واضح من نص البيتين الأخيرين .

أما أبو ماضى نفسه ، فقد رثا فعلا الكلبة «فنى» بموشح فى منتهى الطلاوة ،
ظهر فى «السمير» ، وهو ممد بالمقدمة الآتية :

«كان لصديقنا «ولیم كاتسفليس» كلبة اسمها «فنى» ، رباها فأحسن تربيتها ،
فترعرعت تحت سماء «هوليس» ب «لونج أيلاند ، بولاية نيويورك» ، ذكية
وفية ، لا تنبح غير اللص الطارق ، فكأنها تشم ضمير السارق .

كانت تشيع صاحبها عند خروجه من المنزل إلى الباب ، وتستقبله إلى نصف
الطريق عند الإياب ، فتشمه حتى تكاد تضممه ، وربما تمرغت بالتراب عند
قدميه ، من فرط الحنين إليه .

هذه المخلوقة الأمانة التى ألفت المنزل حتى صارت لا تفارقه، وعرفت فضل صاحبها فلم تخرج عن طاعته لحظة ، أصابها داء عياء ، لم ينجح فيه دواء ، أقعدها عن المهراش ، فماتت على الفراش ، فجعل الخطب بها فى مملكة ذوات الأربع .
ولما طار النعى ، شعر الأصدقاء أن عليهم واجباً نحو « وليم » ، فنظموا هذا الموشح المعلم . وإن الصديق ليعطف على الصديق إذا اختطف سارق برده ، أو أطارت الريح قبعته ، فكيف إذا اختطف الموت كلبته - وكانت مثل « فنى » فى الجمال اليوسنى .

ماتت « فنى » أم البنين فل « وليم » طول البقاء
قل للكواكب تسبكتين فلقد مضى معها العواء

• • •

ذهبت وفيها للغرا م بقية والعمر غص
وطوى الثرى ذاك القوا م عن النواظر وهو بض
ما عضها صرف الحما م ، لو أنه شيء بعض
هيهات ما الدمع السخين لبنى « فنى » حق البكاء
ساد الأسى فى العاشقين وأمض « وليم » ذا اللّواء

• • •

قد كان ييسم كلما ذكروا « فنى » وجمالها
واليوم يبكى عندما إذ يذكرون خصالها
ويكاد أن يستسلمها إذ يحتلى أنجالها
يا أيها الباكي الحزين ماذا استفدت من البكاء ؟
انظر إلى جيش البنين وتعرّ عن أم الجراء

• • •

نخشى إذا طال الأسى من روعة الموت الخؤون
ألا يطيف بك المسا إلا وأنت إلى الجنون
فاصبر على البلوى عسى ما تنتقيه لا يكون
يا صاحب القلب العجين الحزن نار لا ضياء

بالنفس إن تك تستهين لا تستهين بالأصدقاء

* * *

بجرائها ، بـرفاتها
أوصتك قبل وفاتها
أن تعنى بيناتها
وبنجلها البكر السمين
أربطه بالحبل المتين
ألا يعاشر أديباء
واطعمه لحمًا لا حساء
يا صاحب ، فاعمل بالوصيه
وتصونهن من الخطيه

* * *

وعلى الصغار القصر
فارق بهم وتبصر
اختنهم أو طهر
سران إن السر « سين »
أنا من وجوه العابسين
بعدي أقمتك موضعي
واعطف كعطف المرضع
بالماء أو بالمبضع
موصولة أبدا بـ « راء »
ومن الألى عسوا برآء

* * *

الدهر يمتحن الفتى
فيخونه متعنتا
فاهزأ بدهرك إن عتا
ولأنت ذو خلق مكي
كن قدوة للبائسين
لبرى رجاحة ليه
في هـره أو كلبه
كيما تفوز بغلبه
راس كطود في الفضاء
الناقمين على القضاء

* * *

قد ماد « رَضَوَى » واضطرب
فالحن في أرض « العرب »
والدمع يهطل كالقرب
والكون أجمع — كالطعين
والأسد تزار في العرين
جزعًا على ذات المنال
والنوح في أرض المغارب
من أعين الشهب الثواقب
في الحرب — يشخط بالدماء
مجروحة في الكبرياء

* * *

اليوم إن جن الدجى لاتسمع الآذان « عو »
 وخبث مصابيح الرجا فلا يفيدك قول لو
 لا صوت يهدى المدلجا ليلا ولا فى الحى ضو
 يا صاح ، لا تكُ كالذين قنطوا فليس لهم رجاء
 كن واثقاً كالمؤمنين بعد النية باللقاء

(٢)

حظيت النعال مؤخراً باهتمام شديد ، حتى بلغ ما نشرته « الأديب » الغراء
 « من أدب النعال » ، منذ سبتمبر ١٩٦٩ حتى الآن - حسب إحصاء محمود
 الحسنية - ٣٦ مقالا ، يضاف إليها مقاله (راجع « الأديب » ، مايو ١٩٧٤ ،
 ص ٣٨) .

أما الكلاب ، هذه الحيوانات العجماء ، فلم تحظ بعد بمثل هذا الاهتمام منذ
 شرع كتاب « الأديب » فى ولوج هذا الباب .

واليوم أعود ، تاركاً جانباً « باب النعال » ، طارقاً ثانية « باب الكلاب »
 (راجع « الأديب » ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٥٠ ، ومارس ١٩٧٢ ، ص ٥٩) ،
 آملاً أن تفتح مجلتنا هذا الباب من جديد ، بعد أن اضطرت إلى إقفاله « إلا
 - كما وعدت فى عدد أغسطس ١٩٧١ ، ص ٥٤ - إذا كان الموضوع مجهولاً ،
 ومن الأدب المعاصر » .

والقصائد الأربع التالية التى أنقلها اليوم إلى قراء المجلة الأعزاء ، قصائد
 مجهولة ، ومن أدب المهجر ، فيها من الطرافة والإبداع ، ومن الفكاهة والبلاغة
 المقرونة بالحكمة ما يشفع لها بالرواية والنقل . الثلاث الأولى منها لأسعد رستم ،
 والرابعة ، « حكاية » ، لإيليا ظاهر أبى ماضى .

الرجل والكلب

ورب امرئ أحنت يد الفقر ظهره
يجد وراء الرزق لكن وراءه
يمر به أهل الوجاهة والغنى
فيسألهم قوتاً له ولولده
وقد أرجف البرد الشديد عظامه
يقاتله صرف الزمان ، وجسمه
ذليلاً بأسواق المدينة جالاً
صغاراً وأم صوتهم يتعالى
عليهم كالشمس الحلى تتلألاً
ولا أحد منهم يجيب سؤالاً
ولكن رست فيه الهموم جبلاً
عديم القوى لا يستطيع قتالاً

* * *

ومرت لديه مركبات تجرها
بدور تجد السير لكن جوالس
فأبصر أنثى بينهما وكلبها
تقبله طوراً وطوراً تضمه
كأنهما إلفان طاب لقاها
جياذ تجارى الراكبات دلالاً
يفقن على البدر التمام كمالاً
بجانبها يهنا وينعم بالاً
إليها بشوق يمنة وشمالاً
وبينهما عهد التفرق طبالاً

* * *

ففكر هذا في تعاسة حاله
فعاد على أعقابيه وهو لاعن
وأدرك أن الكلب أحسن حالاً
زماناً غدت فيه الكلاب رجالاً !!

هو يسبح وهى تنبح

كان يوماً ثلاثة من كلاب الـ
جمعتها هناك ليلة فصل
ليلة في الربيع مقمرة قد
أخذت تنظر الكلاب إلى البد
تمنى إلى العلاء سبيلاً
إنما البدر ما أساء إليها
حى فى الساحة الفسيحة تمرح
يورك الغصن فيه ، والطير يصدح
لاح فيها فى أفقه البدر يسبح
ر ، فتملا الفضاء غيظاً وتقدح
وبأبصارها إلى البدر تطمح
ولها من مكانه ما تزحزح !!

رابع جاء كى يشير وينصح
ها ، فأعطته بينها خير مطرح
كلها باعتقاده فيه صرح
فى سما المجد والكرامة أصبح
وهو فيه هام « الحجرة » ينطح
واه عن حسنه تقول وتشرح
ممن بها يجود ويسمح
باحترار ، فيا ترى كيف ننجح ؟
بدر حتى بشمته نتطوح
شر عن نابه الكبير المقرح :
بدر تأثيره ، ولا هو يجرح !
غيره ، شأن من أشار وألمح
ن لإسكاتنا عظماً ، فربح !

وبتلك الكلاب قد مر كلب
بصبص الذيل للرفاق وحيا
عقدت معه بعد ذاك اجتماعاً
قال كلب : يا إخوتى ، ذاك بدر
مالك مرسح الكيان بعز
وليه الأبصار تشخص والأف
قال كلب : ونحن ننتظر اللقمة
نقرع الباب ، ثم نطرد منه
قال كلب : إذن ، وما الذنب ذنب !
ثم قال الكلب الأخير وقد ك
إن هذا النباح ليس يضر !
إنما بالنباح نسمع شخصاً
وبه نقلق الأنعام فيرمو

* * *

ظل الأفق يسبح البدر بالعز وظلت تعوى الكلاب وتنبج !!

ذنوب وأذئاب

إلى ، بعين الرجاء نظر
فقلت بنفسى له : ما الخبر ؟
يخاطبني بلسان البصر :
أنا هو كلب الورى المحتقر
الأمين على الصاحب المعبر
وليلاً ، لأنذرکم بالخطر
فأحمل عنكم بعض الضجر
هجمت عليه كليث كسر

على الشارع اليوم صادفت كلباً
وقفت ، وقد كنت مستعجلاً
فقال ، على صمته ناطقاً ،
سلام . فقلت : ومن أنت ؟ قال :
وما اسمك ؟ قال : أنا هو « فيدو »
أههب حول البيوت نهاراً
ألاعب بالركض أولادكم
وأحرسكم ، فلنكنكم من غريب

على أنكم تنظرون إلى
 يعبر بعضكم البعض باسمي
 ونحن كلاب شعور وفهم
 بخلتم على - وأنتم عظام -
 ولست أعرض أخي مثلكم
 أضر بنا بعضكم بالعصا ؟
 أهذا من العدل ، يا سيدى ؟
 فاشفقت من كل قلبى عليه
 وسرت به نحو بيتى سريعاً
 وبعد أن انتعشت نفسه
 تحرك للشكر منتفضاً
 أرى أن هز ذبول الكلاب

بعين احتقار وعين حذر
 وذلك يملأنى بالكدر
 فلسنا حميراً ولنسابقى
 ببعض العظام وبعض الكسر
 ولا أنا أسعى له بالضرر
 وورشقنا بعضكم بالحجر ؟
 أهذا الذى منكم ينتظر ؟
 وطبشت مدحاً له فافتخر
 وباللحم أشبعته والثمر
 ونور السرور عليه ظهر
 وهز لى الذيل والمختصر
 لأصدق من هز أيدى البشر

حكاية

ربيت كلباً صغيراً
 وقلت : يحرس دارى
 فكنت آتيه صباحاً
 حتى إذا اجتاز ستاً
 وأشبه الوعل ساقاً
 وصار كالعلج علقاً
 وافى إلى صحابى
 فأبصروا الكلب عندى
 فقال منهم ظريف :
 بجرمة البود إلا

وكان ذلك نذرا
 إذا أتى اللص سورا
 باللحم ، والشحم عصرا
 من الشهور وأخرى
 وأشبه البغل ظهرا
 وصار كالفيل صدرا
 وأنت بالصحب أدرى
 عيناه تقدح جمرا
 قنوت والله مهرا !
 سميت الكلب « نمرا »

أطعت أمر صديق وقد سررت وسرا
لكنما الصفر صفر وإن دعوناها تبرا

* * *

ترعرع الكلب «نمر» فصار أعظم شرا
يعوى إذا الناس ناموا فيسمع الناس نكرا
وينبح البدر ليلا وينبح الشمس ظهرا
وكلما مر سار أوهبت الريح هرا
ويتبع الضيف حتى إذا استقر استقرا
ويترك العظم ملقى ويسرق الخبز جهرا
فروّع النشء حتى ما تطلب الدار ذعرا
ونفّر الطير حتى ما تألف الطير وكرا
فأقبل الحى يشكو فقلت : يا قوم ، صبرا
لو كنت أكسب أجرا أو كنت أحرز فخرا
خنقت بالجل «نمرا» لكن للكلب عمرا

(١٤) تاريخ ديوانين لأبي ماضي

قل من الشعراء والكتاب من يؤرخ أعماله الأدبية عند نشرها مجموعة ، وذلك - في أغلب الظن - حتى تبقى هذه الأعمال طليقة جارية ، غير مقيدة بزمان أو بمكان. ولكن هدف الأدباء هذا لا يتفق وهدف دارسي أعمالهم. لهذا يحاول الدارسون - قدر استطاعتهم - تأريخ الأعمال ، لأن تأريخها من أهم الوسائل المساعدة على تتبع وتحديد التطور الفكري والأدبي واللغوي لأصحابها ، ولأن بدون التأريخ تنهى الدراسات الأدبية إلى تكهنات متضاربة ، لا إلى حقائق ثابتة .

والأعمال الأدبية بالنسبة للتأريخ نوعان : أعمال تؤرخ ذاتها ، ولا تحتاج في هذا إلى جهد يذكر ، وأعمال لا تتأرخ إلا بتخريجها من مصادر أصلية ، وتحتاج بالطبع إلى بعض الجهد .

أقول هذا وأنا على أهبة عرض تأريخ ديوانين للمهجرى أبي ماضي : « ديوان إيليا أبو ماضي ، الجزء الثاني » (نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩ ، ١٩٢٢ ص) ، وديوان « الجداول » (نيويورك ، مرآة الغرب ، ١٩٢٧ ، ١١٢ ص) . فقد جاءت أشعار أبي ماضي في هذين الديوانين ، وفي دواوينه الثلاثة الأخرى أيضاً ، غفلة من التأريخ ، مما أوجد عقبة في طريق دراسة هذا الشاعر دراسة كاملة .

ولعل أول من نبه إلى هذا الأمر إحسان عباس وزميله محمد يوسف نجم ، وهما يكتبان عن أبي ماضي في كتابهما « الشعر العربي في المهجر : أميركا الشمالية » (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٧) ، إذ قالا ، ص ١٣٧ : « متى وكيف حصل ذلك ؟ هذا ما نفتقد الشواهد عليه ، لأننا لا نملك تأريخاً دقيقاً يعيننا على دراسة شعره دراسة متدرجة » .

فالتأريخ التالي إذن محاولة أولى في ملء جزء من ثغرة ظلت شاغرة للآن ، وهي محاولة - برغم قصورها عن التمام - لا بد أن يفيد منها شيئاً من أراد دراسة شاعرنا .

وقد اعتمدت في تأريخى هذا على الطبعة الأولى الأصلية للديوانين . ولأن « الجزء الثانى » غير موجود فى الأسواق ، وطبعات « الجداول » الحديثة أصبحت تضم قصائد لم تكن فى « الجداول » أصلاً ، رأيت من اللازم عرض ترتيبين لكل من الديوانين :

- ١ - ترتيب ديوانى بين محتوى الديوان الأصلى ، وتسلسل القصائد كما وردت به ،
- ٢ - ترتيب زمنى يعرض القصائد مسلسلة وفقاً لتاريخ نشرها أو نظامها .

وسيالاحظ القارئ ما يلى فى الترتيب الديوانى :

(أ) يبدأ المدخل برقم مسلسل ، فعنوان القصيدة (أو القطعة) كما ورد فى الديوان ، فرقم الصفحة التى بها القصيدة فى الديوان .

(ب) بين القوسين ، يحىء المصدر الذى ظهرت فيه القصيدة ، فتاريخه ، فرقم الصفحة التى بها القصيدة ، فعنوان القصيدة إن كان مختلفاً فى المصدر عنه فى الديوان .

(ح) بعد القوسين ، يحىء عدد أبيات القصيدة . فإذا اختلف عدد أبياتها فى الديوان عنه فى المصدر حىء بالعددين : العدد بالديوان ، فالعدد بالمصدر .

(د) لزيادة الفائدة ختم المدخل برقم مسبق بالحرف « ي » ، هو رقم الصفحة التى بها القصيدة فى كتاب « دار اليقظة العربية » .

أما الاختصارات المستعملة فى التأريخ فهذا بيانها :

ب بيت فى القصيدة .

ز « الزهور » ، القاهرة .

س « السائح » ، نيويورك .

سم « السائح الممتاز » ، نيويورك .

ص صفحة .

ف « الفنون » ، نيويورك .

م « مرآة الغرب » ، نيويورك .

مع « المجلة العربية » ، نيويورك .

مق « المقتطف » ، القاهرة .

ى « إيليا أبو ماضى شاعر المهجر الأكبر » . ط ٢ مزيدة تحتوى على شعر الشاعر كله . (دمشق) ، دار البقطة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ ، ٨٧٩ ص .

أما النجمة (*) فتشير بالرجوع إلى الترتيب الديوانى .

وقبل عرض التأريخ ، قد يكون مفيداً تبين الآتى :

١ — « الجزء الثانى » أكثر دواوين أبى ماضى الخمسة المعروفة أبياتاً ، إذ فيه ٢٨٤١ بيتاً .

٢ — « الجداول » أقل الدواوين الخمسة أبياتاً ، إذ فيه ١٢٠٢ من الأبيات .

٣ — الاثنان معاً بهما ٤٨,٤٧٪ من مجموع أبيات الدواوين الخمسة البالغ ٨٣٤٠ بيتاً .

٤ — « الجزء الثانى » أرخ منه ٨٦,٤٥٪ .

٥ — « الجداول » أرخ منه ٧٢,٨٨٪ .

٦ — ما أرخ من الاثنين معاً يبلغ ٣٩,٩٥٪ من مجموع أبيات الدواوين الخمسة .

« الجزء الثانى »

من « ديوان إيليا أبو ماضى »

١ - الترتيب الديوانى

- ١ - إهداء الديوان ، ص ٢ (٦/١٩١٩ ، وهو تاريخ صدور الديوان) ١٣ ب ، ليست فى ي .
- ٢ - الشاعر ، ص ٦ (لم تؤرخ) ٥٠ ب ، ي ٤٣٤ .
- ٣ - فلسفة الحياة ، ص ١٠ (لم تؤرخ) ٤٠ ب ، ي ٦٢٤ .
- ٤ - أم القرى أو ملفرد الجميلة ، ص ١٣ (م ٢٨/٨/١٩١٧ ، ص ٤ ، ملفرد بنسلفانيا أو أم القرى) ٥٧ ب ، ي ٤٠٤ .
- ٥ - أنا وأخت المهابة والقمر ، ص ١٧ (لم تؤرخ) ٤٧ ب ، ي ٣٥٣ .
- ٦ - الشاعر والأمة ، ص ٢٠ (ف ٩/١٩١٦ ، ص ٣٢٩) ٥٩ ب ، ي ٤٤٧ .
- ٧ - ولانى ، ص ٢٣ (س ٢/١٠/١٩١٦ ، ص ٤) ٢ ب ، ليسافى ي .
- ٨ - أما أنا ، ص ٢٤ (س ١٨/٩/١٩١٦ ، ص ٤) ١٤ ب ، ي ٤٧٧ .
- ٩ - وداع وشكوى ، ص ٢٥ (ز ٦/١٩١٢ ، ص ١٩٩) ٣٢/٥٢ ب ، ي ٥٣٠ .
- ١٠ - عصر الرشيد ، ص ٢٨ (م ١٠/٦/١٩١٤ ، ص ٤ ، بغداد أمس واليوم) ٧٥ ب ، ي ٨٤٣ .
- ١١ - لم أجد أحداً ، ص ٣٣ (م ٢٤/١٢/١٩١٧ ، ص ١) ٥٠ ب ، ي ٣٠٧ .
- ١٢ - ؟ ، ص ٣٦ (ف ١/١٩١٧ ، ص ٧٠٧) ٨ ب ، ي ٢٣٨ .
- ١٣ - بنت سوريا ، ص ٣٧ (س ٥/٩/١٩١٨ ، ص ٥ ، فتاة سوريا . وقد نبهت من إلى أن القصيدة نظمت من سنين عديدة) ٤٦/٤٥ ب ، ي ٥٨٧ .

- ١٤ - الفقير ، ص ٤٠ (لم تؤرخ) ٥١ ب ، ي ١٠٧ .
- ١٥ - بين الكاس والطاس ، ص ٤٣ (لم تؤرخ) ١١ ب ، ي ٦٣٣ .
- ١٦ - في السفينة ، ص ٤٤ (نرجح صيف ١٩١١) ١٦ ب ، ي ٦١٠ .
- ١٧ - يا صاح ، ص ٤٥ (ف ١٩١٧/٨ ، ص ٥٠) ٢٢ ب ، ي ١٩٠ .
- ١٨ - بلاء أم نعمة ، ص ٤٦ (نرجح ربيع ١٩١٨) ٢٠ ب ، ي ٤٨٣ .
- ١٩ - الخلود ، ص ٤٨ (ف ١٩١٦/٧ ، ص ١٥٦ ، الخلود والفناء ، بتوقيع « عطار ») ٢٩ ب ، ي ٨٦٥ .
- ٢٠ - عيناك ، ص ٥٠ (لم تؤرخ) ١٢^٣ ب ، ي ٤٣٢ .
- ٢١ - ١٩١٣ ، ص ٥١ (١٩١٣/١ ، القصيدة تؤرخ ذاتها) ٥٨ ب ، ي ١٧٨ .
- ٢٢ - بلادي ، ص ٥٥ (م ١٩١٣/٥/٢٨ ، ص ٤) ٥١/٥٠ ب ، ي ٦٨٣ .
- ٢٣ - البلبل السجين ، ص ٥٨ (م ١٩١٣/٩/١٧ ، ص ٤ ، ياليل) ٥٧ ب ، ي ٦٥١ .
- ٢٤ - أنت ، ص ٦٢ (م ١٩١٣/٧/٥ ، ص ٥) ٥٢ ب ، ي ١٠٣ .
- ٢٥ - معركة بورغاس ، ص ٦٥ (١٩١٢/١٠/٣١ ، وهو تاريخ انتهاء المعركة) ٦٩ ب ، ي ٧١٦ .
- ٢٦ - خير شيء ، ص ٦٩ (س ١٩١٦/١٠/٥ ، ص ٤) ٩ ب ، ي ٨٦٤ .
- ٢٧ - حكاية حال ، ص ٧٠ (م ١٩١٨/١/٢٦ ، ص ٤) ٢٠ ب ، ي ٨٠٦ .
- ٢٨ - شكوى ، ص ٧١ (لم تؤرخ) ٩ ب ، ي ٣٢٣ .
- ٢٩ - بائعة الورد ، ص ٧٢ (لم تؤرخ) ٨٢ ب ، ي ٤٦٣ .
- ٣٠ - ١٩١٤ ، ص ٧٧ (م ١٩١٤/١/١٤ ، ص ١ ، طوي العام) ٣٧ ب ، ي ٣٢٧ .
- ٣١ - بنت الدوالي ، ص ٨٠ (مع ١٩١٦/١٠/٣٠ ، ما العيش إلا ساعة الغرور . التاريخ هو تاريخ « الهدى » النيويوركية التي نشرت ، ص ٢ ، محتويات عدد مع) ١٠ ب ، ي ٤٩٣ .
- ٣٢ - الطيران ، ص ٨١ (م ١٩١٤/١/٢٣ ، ص ١) ٤٣ ب ، ي ١١٧ .

- ٣٣ - العاشق المخدوع ، ص ٨٤ (س ١٩١٦/٩/٢١ ، ص ١ ، المخدوع)
٨٣ ب ، ي ٤١٥ .
- ٣٤ - أهلها عرب ، ص ٨٩ (مع ١٩١٦/١٠/٩ ، وهو تاريخ « الهدى »
التي نشرت ، ص ٧ ، محتويات عدد مع ١٢ ب ، ي ١٣٩ .
- ٣٥ - صاحب القلم ، ص ٩٠ (ز ١٩١٣/٧ ، ص ٢٥٦ ، لكن مصرًا)
٣١/٤١ ب ، ي ٦٦٥ .
- ٣٦ - بلا عنوان ، ص ٩٢ (لم تؤرخ) ٤ ب ، ي ٧٨٣ .
- ٣٧ - نزوة ألم ، ص ٩٣ (م ١٩١١/١٢/٦ ، ص ٤ ، خواطر شاعر)
٣٩/٣٨ ب ، ليست في ي .
- ٣٨ - الكأسان ، ص ٩٥ (س ١٩١٦/١٠/٣٠ ، ص ٤ ، القدحان)
٢٤/٢١ ب ، ي ٥٩٧ .
- ٣٩ - بلا عنوان ، ص ٩٦ (لم تؤرخ) ٣ ب ، ي ٦٣٨ .
- ٤٠ - لأرفعن للسما احتجاجي ، ص ٩٧ (لم تؤرخ) ٢٤ ب ، ي ٢٣٣ .
- ٤١ - أنتم معي ، ص ٩٨ (لم يؤرخا) ٢ ب ، ي ٢٨٧ .
- ٤٢ - الحرب العظمى ، ص ٩٩ (م ١٩١٤/١١/١٦ ، ص ١ ، صرخة قانظ)
٦٩/٦٨ ب ، ي ٧٣٤ .
- ٤٣ - دموع وتنهلات ، ص ١٠٣ (م ١٩١٥/١/٢٨ ، ص ١ ، عنوان
وطنية شاعر) ٦٠ ب ، ي ٨٣٦ .
- ٤٤ - أخت البلجيكي ، ص ١٠٧ (م ١٩١٥/٢/١٣ ، ص ١ ، سوريا)
٤٠ ب ، ي ٥٤٩ .
- ٤٥ - بين الضحك واللعب ، ص ١٠٩ (س ١٩١٦/٩/٢٥ ، ص ٤) ٥ ب ،
ي ١٦٦ .
- ٤٦ - أمة تفتى وأنتم تلعبون ، ص ١١٠ (م ١٩١٦/٧/٣١ ، ص ١) ٧٢ ب ،
ي ٦٩٤ .
- ٤٧ - في الليل ، ص ١١٥ (م ١٩١٦/١٠/٩ ، ص ١ ، متى يذكر الوطن
النَّوْم) ٤٠ ب ، ي ٢٧٩ .

- ٤٨ - سقوط أرضروم ، ص ١١٨ (م ١٩١٦/٣/١٦ ، ص ٤ ، إلى الفاتح الغازي ، بتوقيع « عطار ») ٧٢ ب ، ي ٥٥٣ .
- ٤٩ - بلا عنوان ، ص ١٢٢ (س ١٩١٥/١١/١ ، ص ٤ ، بتوقيع « أحدهم ») ٥/٤ ب ، ي ٤٨٦ .
- ٥٠ - ١٩١٦ ، ص ١٢٣ (م ١٩١٥/١٢/٣١ ، ص ١ ، العام الجديد) ٤٨ ب ، ي ٥٨٣ .
- ٥١ - ما للكواكب ؟ ، ص ١٢٦ (س ١٩١٦/١/٦ ، ص «ب») ٣٩ ب ، ي ٢٦٩ .
- ٥٢ - بلا عنوان ، ص ١٢٨ (س ١٩١٥/١١/١ ، ص ٤ ، ما كان أحوجني) ٤ ب ، ي ٤٨٥ .
- ٥٣ - البغضاء ، ص ١٢٩ (م ١٩١٥/٢/١٩ ، ص ١) ٤١ ب ، ي ٧٢١ .
- ٥٤ - حكاية قديمة ، ص ١٣٢ (س ١٩١٦/١/٦ ، ص ١٢) ٤٠ ب ، ي ٢٤٧ .
- ٥٥ - لمن الديار ؟ ، ص ١٣٥ (م ١٩١٥/٩/٢٧ ، ص ٤) ٨٥ ب ، ي ٥٧٦ .
- ٥٦ - يا بلادي ، ص ١٤٠ (نرجع بعد ١٩١٦/٨ ، كما توحى القصيدة به) ٦٩ ب ، ي ٢٦٣ .
- ٥٧ - الفردوس الضائع أو رؤيا القيصر الألماني ، ص ١٤٤ (م ١٩١٦/١/٢٥ ، ص ٤) ٤٦ ب ، ي ٧٣٠ .
- ٥٨ - مسرح العشاق ، ص ١٤٧ (م ١٩١٣/١٠/٣ ، ص ٤ ، آها عليك) ٩٨ ب ، ي ٣٩٥ .
- ٥٩ - حكاية حال ، ص ١٥٣ (م ١٩١٦/١٢/٢٢ ، ص ٤) ٤٣ ب ، ي ٥٦٠ .
- ٦٠ - يا جارتى ، ص ١٥٦ (سم ١٩١٨/١/١٧ ، ص ٢ ، أنة ناثع) ٣٨ ب ، ي ٧٠٧ .
- ٦١ - هَمَلَيْتُ ، ص ١٥٨ (م ١٩١٦/٣/١٠ ، ص ٤ ، شبيبة الشرق) ٢٤ ب ، ي ٥٧٤ .

- ٦٢ - العيون السود ، ص ١٦٠ (م ١٩١٥/١/١٨ ، ص ٤ ، هي نظرة)
٣٧ ب ، ي ٣١٥ .
- ٦٣ - هاتها ، ص ١٦٢ (لم تؤرخ) ١٠ ب ، ي ٢٤٢ .
- ٦٤ - إلى صديق ، ص ١٦٣ (لم تؤرخ) ٤٠ ب ، ي ٦٨٠ .
- ٦٥ - باخرة الإغاثة ، ص ١٦٥ (م ١٩١٦/١٢/١٦ ، ص ٣ ، الباخرة)
١٢ ب ، ي ٤٤٥ .
- ٦٦ - مصرع القمر ، ص ١٦٦ (س ١٩١٦/٤/٢٤ ، ص ٤ ، دمعة حارة)
٤٨ ب ، ي ٢٩٥ .
- ٦٧ - في فراش المرض ، ص ١٦٩ (م ١٩١٤/١٠/٨ ، ص ٤ ، لو تَبَلَّغْتُ
ساعة) ٤٣/٤٤ ب ، ي ٣٠٤ .
- ٦٨ - رثاء المطران رفائيل هواويني ، ص ١٧٢ (م ١٩١٥/٣/٢ ، ص ٣ ،
الشاعر الوطني يرثي فقيد الأمة) ٣١/٣٠ ب ، ي ٥٦٤ .
- ٦٩ - فتح أورشليم ، ص ١٧٤ (م ١٩١٧/١٢/١١ ، ص ٣ ، إلى الفاتح)
٣٠ ب ، ي ٦١٥ .
- ٧٠ - إلى الفاتح ، ص ١٧٦ (م ١٩١٩/١/١١ ، ص ٣ ، السيف) ١٣ ب ،
ي ٢٤٣ .
- ٧١ - في القطار ، ص ١٧٧ (س ١٩١٧/٥/١٧ ، ص ٥ ، بلا عنوان)
٢٧/٢٤ ب ، ي ٤٣٨ .
- ٧٢ - السيد المجتبي ، ص ١٧٨ (م ١٩١٧/٥/١٦ ، ص ٤ ، القصيدة
العصماء) ٢١/٢٠ ب ، ي ١٧٦ .
- ٧٣ - مرآة الغرب في سنتها التاسعة عشرة ، ص ١٨٠ (م ١٩١٧/٩/١٢ ،
ص ١) ٣٣ ب ، ي ٣٦٠ .
- ٧٤ - مزح في جد (معربة) ، ص ١٨٢ (١٩١٨/١/١٩ ، ص ٤) ٢٠ ب ،
ي ٢٢٤ .
- ٧٥ - نشيد التباراري (معربة) ، ص ١٨٣ (م ١٩١٦/١/٦ ، ص ٤)
٢١ ب ، ليست في ي .

- ٧٦ - ذكرى، ص ١٨٤ (س ١٩١٧/٦/٢١، ص ٤، ولقد ذكرتكِ) ٢ ب،
 ي ٩٩ .
- ٧٧ - جرجى زيدان، ص ١٨٥ (م ١٩١٤/٨/٤، ص ٤) ٤٥ ب،
 ي ٨١٠ .
- ٧٨ - أيها الراعى، ص ١٨٨ (س ١٩١٥/٨/٢٦، ص ٤) ٣١ ب،
 ي ٢٩٩ .
- ٧٩ - ابنة الفجر، ص ١٩٠ (س ١٩١٧/١٠/١١، ص ٤، إذا مت)
 ٤٧ ب، ي ٧٧٧ .

٢ - الترتيب الزمني

١٦ -	في السفينة	صيف ١٩١١	—
٣٧ -	نزوة ألم	١٩١١/١٢/٦	م
٩ -	وداع وشكوى	١٩١٢/٦	ز
٢٥ -	معركة بورغاس	١٩١٢/١٠/٣١	—
٢١ -	١٩١٣	١٩١٣/١	—
٢٢ -	بلادى	١٩١٣/٥/٢٨	م
٣٥ -	صاحب القلم	١٩١٣/٧	ز
٢٤ -	أنت	١٩١٣/٧/٥	م
٢٣ -	الببل السجين	١٩١٣/٩/١٧	م
٥٨ -	مسرح العشاق	١٩١٣/١٠/٣	م
٣٠ -	١٩١٤	١٩١٤/١/١٤	م
٣٢ -	الطيران	١٩١٤/١/٢٣	م
١٠ -	عصر الرشيد	١٩١٤/٦/١٠	م
٧٧ -	جرجى زيدان	١٩١٤/٨/٤	م
٦٧ -	في فراش المرض	١٩١٤/١٠/٨	م
٤٢ -	الحرب العظمى	١٩١٤/١١/١٦	م

م	١٩١٥/١/١٨	٦٢ — العيون السود
م	١٩١٥/١/٢٨	٤٣ — دموع وتنهدات
م	١٩١٥/٢/١٣	٤٤ — أخت البلجيك
م	١٩١٥/٢/١٩	٥٣ — البغضاء
م	١٩١٥/٣/٢	٦٨ — رثاء المطران رفائيل هواويني
س	١٩١٥/٨/٢٦	٧٨ — أيها الراعي
م	١٩١٥/٩/٢٧	٥٥ — لمن الديار ؟
س	١٩١٥/١١/١	٤٩ — بلا عنوان
س	١٩١٥/١١/١	٥٢ — بلا عنوان
م	١٩١٥/١٢/٣١	٥٠ — ١٩١٦
س	١٩١٦/١/٦	٥١ — ما للكواكب ؟
س	١٩١٦/١/٦	٥٤ — حكاية قديمة
م	١٩١٦/١/٦	٧٥ — نشيد التباراري
م	١٩١٦/١/٢٥	٥٧ — الفردوس الضائع
م	١٩١٦/٣/١٠	٦١ — هَمَلْتُ
م	١٩١٦/٣/١٦	٤٨ — سقوط أرضروم
س	١٩١٦/٤/٢٤	٦٦ — مصرع القمر
ف	١٩١٦/٧	١٩ — الخلود
م	١٩١٦/٧/٣١	٤٦ — أمة تفتى وأنتم تلعبون
ف	١٩١٦/٩	٦ — الشاعر والأمة
س	١٩١٦/٩/١٨	٨ — أما أنا
س	١٩١٦/٩/٢١	٣٣ — العاشق المخدوع
س	١٩١٦/٩/٢٥	٤٥ — بين الضحك واللعب
س	١٩١٦/١٠/٢	٧ — وإني
س	١٩١٦/١٠/٥	٢٦ — خير شيء
مع	١٩١٦/١٠/٩	٣٤ — أهلها عرب

م	١٩١٦/١٠/٩	٤٧ - في الليل
مع	١٩١٦/١٠/٣٠	٣١ - بنت الدوالي
س	١٩١٦/١٠/٣٠	٣٨ - الكأسان
م	١٩١٦/١٢/١٦	٦٥ - باخرة الإغاثة
م	١٩١٦/١٢/٢٢	٥٩ - حكاية حال
-	بعد ١٩١٦/٨	٥٦ - يا بلادى
ف	١٩١٧/١	١٢ - ؟
م	١٩١٧/٥/١٦	٧٢ - السيد المجتبي
س	١٩١٧/٥/١٧	٧١ - في القطار
س	١٩١٧/٦/٢١	٧٦ - ذكرى
ف	١٩١٧/٨	١٧ - يا صاح
م	١٩١٧/٨/٢٨	٤ - أم القرى أو ملفرد الجميلة
م	١٩١٧/٩/١٢	٧٣ - امرأة الغرب
س	١٩١٧/١٠/١١	٧٩ - ابنة الفجر
م	١٩١٧/١٢/١١	٦٩ - فتح أورشليم
م	١٩١٧/١٢/٢٤	١١ - لم أجد أحداً
سم	١٩١٨/١/١٧	٦٠ - يا جارتى
م	١٩١٨/١/١٩	٧٤ - مزح في جد
م	١٩١٨/١/٢٦	٢٧ - حكاية حال
-	ربيع ١٩١٨	١٨ - بلاء أم نعمة ؟
س	١٩١٨/٩/٥ (٥٠)	١٣ - بنت سوريا
م	١٩١٩/١/١١	٧٠ - إلى الفاتح
-	١٩١٩/٦	١ - لإهداء الديوان

٣ - ما لم يؤرخ

- ٢ - الشاعر
- ٣ - فلسفة الحياة
- ٥ - أنا وأخت المهابة والقمر
- ١٤ - الفقير
- ١٥ - بين الكاس والطاس
- ٢٠ - عيناك
- ٢٨ - شكوى
- ٢٩ - بائعة الورود
- ٣٦ - بلا عنوان
- ٣٩ - بلا عنوان
- ٤٠ - لأرفعن للسما احتجاجي
- ٤١ - أنتم معي
- ٦٣ - هاتها
- ٦٤ - إلى صديق

« الجداول »

١ - الترتيب الديواني

- ١ - الفاتحة ، ص ٤ (لم تؤرخ) ٢١ ب ، ي ٧٦٤ .
- ٢ - العنقاء ، ص ٥ (س ١٩٢٧/٢/٢٨ ، ص ٧) ٤٢ ب ، ي ٥١٢ .
- ٣ - السجينة ، ص ٩ (مق ١٩٢٤/١٢/١ ، ص ٥٢٢) ٣٢ ب ، ي ١٣٣ .
- ٤ - الضفادع والنجوم ، ص ١٢ (لم تؤرخ) ١١ ب ، ي ٦٨٧ .
- ٥ - السماء ، ص ١٣ (س ١٩٢٦/١٠/٧ ، ص ٦) ٢٣ ب ، ي ٩٧ .
- ٦ - بَرْدَى يا سحب ، ص ١٥ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٦) ١٦ ب ، ي ١٨٣ .
- ٧ - العير المتشكر ، ص ١٦ (م ١٩١٤/٧/١٧ ، ص ٤ ، يا نوح ، أين دلائل الطوفان ؟) ٥٢/٦ ب ، ي ٧٣٩ .
- ٨ - تعالى ، ص ١٧ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٥) ٣٢ ب ، ي ٥١٧ .
- ٩ - ربح الشمال ، ص ٢٠ (سم ١٩٢١/١/١٠ ، ص ٣١) ٢٤ ب ، ي ٥٧٢ .
- ١٠ - الحجر الصغير ، ص ٢٢ (مق ١٩٢٤/٤/١ ، ص ٣٩٢) ١٤ ب ، ي ١٢٣ .
- ١١ - الطين ، ص ٢٣ (مق ١٩٢٥/٢/١ ، ص ١٣٢) ٥٧ ب ، ي ٣١٨ .
- ١٢ - التينة الحمقاء ، ص ٢٨ (سم ١٩٢٥/٢/٢٩ ، ص ٦٦) ١١ ب ، ي ٣٣٩ .
- ١٣ - في القفر ، ص ٢٩ (س ١٩٢٤/٨/٢٨ ، ص ٤) ٣٣ ب ، ي ١٥١ .
- ١٤ - التمثال ، ص ٣٢ (س ١٩٢٦/٦/١٧ ، ص ٧) ١٣ ب ، ي ٤٨٢ .
- ١٥ - المساء ، ص ٣٣ (م ١٩٢١/٥/١٠ ، ص ٤) ٥٠ ب ، ي ٧٨٤ .
- ١٦ - الكمنجة المحطمة ، ص ٣٨ (مق ١٩٢٥/٧/١ ، ص ١٢٩) ٣٣ ب ، ي ٨١٧ .

- ١٧ — زهرة أقحوان ، ص ٤١ (م ١٤/٦/١٩٢٠ ، ص ٤ ، زهرة من أقحوان) ٢٧/٢٩ ب ، ي ٧٢٧ .
- ١٨ — الأسرار ، ص ٤٤ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٦) ٩ ب ، ي ٤٠٢ .
- ١٩ — العميان ، ص ٤٥ (م ١٤/١٠/١٩١٩ ، ص ٤) ٢١/٣٢ ب ، ي ٧٧٤ .
- ٢٠ — الزمان ، ص ٤٨ (مق ١٩٢٤/٧/١ ، ص ١٢٩) ٢٥/٢٦ ب ، ي ٢٥٢ .
- ٢١ — اليتيم ، ص ٥٠ (س ١٩٢٤/١٠/٩ ، ص ٥ ، بلا عنوان) ٢٦/٢٠ ب ، ي ٨٤١ .
- ٢٢ — المجنون ، ص ٥٢ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦١) ٤٣ ب ، ي ٦٠٠ .
- ٢٣ — قطرة الظل ، ص ٥٧ (س ١٩٢٣/١١/١٢ ، ص ٤) ٨ ب ، ي ٤٧٤ .
- ٢٤ — نار القرى ، ص ٥٨ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٥) ١٨/٢٤ ب ، ي ١٠١ .
- ٢٥ — ابن الليل ، ص ٦٠ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٨٥) ١٨ ب ، ي ٦٠٧ .
- ٢٦ — أنا ، ص ٦٢ (م ١٩١٩/١١/١٠ ، ص ٤ ، بتوقيع «الهدهد») ١٢/١٦ ب ، ي ١٤٧ .
- ٢٧ — الإله الثرثار ، ص ٦٤ (لم تؤرخ) ١٠ ب ، ي ٧٩٨ .
- ٢٨ — الأشباح الثلاثة ، ص ٦٥ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٣) ٧٤ ب ، ي ٤٨٨ .
- ٢٩ — العليقة ، ص ٧٢ (مق ١٩٢٧/٦/١ ، ص ٦٠٩ ، العوسجة) ٣٥ ب ، ي ١٦٢ .
- ٣٠ — هي ، ص ٧٥ (م ١٩٢٣/٧/٢ ، ص ٤ ، سِرُّها) ٤٠/٣٧ ب ، ي ٨٣١ .
- ٣١ — لا أنت ولا أنا ، ص ٧٨ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٧) ٧ ب ، ي ٧٥٢ .
- ٣٢ — الناسكة ، ص ٧٩ (س ١٩٢٤/٦/١٩ ، ص ٤) ١٥ ب ، ي ١٨٨ .
- ٣٣ — عيد أنهى ، ص ٨١ (س ١٩٢٦/٥/١٣ ، ص ٧ ، في عيد «المقتطف» الخمسيني) ٥٩ ب ، ي ٢٥٨ .

- ٣٤ - موت العبقري ، ص ٨٦ (م ١٨/٦/١٩٢٥ ، ص ٤) ٣٢ ب ،
 ي ٢١٨ .
- ٣٥ - الغدير الطموح ، ص ٨٨ (سم ٢٤/٣/١٩٢٧ ، ص ٢٧) ٦ ب ،
 ي ٣٦٣ .
- ٣٦ - الطلاسم ، ص ٨٩ (لم تؤرخ) ٢٨٤ ب ، ي ١٩٣ .

٢ - الترتيب الزمني

٧ -	العير المتكرر	١٩١٤/٧/١٧	م
١٩ -	العميان	١٩١٩/١٠/١٤	م
٢٦ -	أنا	١٩١٩/١١/١٠	م
١٧ -	زهرة أقحوان	١٩٢٠/٦/١٤	م
٩ -	ريح الشمال	١٩٢١/١/١٠	سم
١٥ -	المساء	١٩٢١/٥/١٠	م
٣٠ -	هى	١٩٢٣/٧/٢	م
٢٣ -	قطرة الطل	١٩٢٣/١١/١٢	س
١٠ -	الحجر الصغير	١٩٢٤/٤/١	مق
٣٢ -	الناسكة	١٩٢٤/٦/١٩	س
٢٠ -	الزمان	١٩٢٤/٧/١	مق
١٣ -	فى القفر	١٩٢٤/٨/٢٨	س
٢١ -	اليتم	١٩٢٤/١٠/٩	س
٣ -	السجينة	١٩٢٤/١٢/١	مق
١١ -	الطين	١٩٢٥/٢/١	مق
٢٢ -	المجنون	١٩٢٥/٢/٩	سم
٢٨ -	الأشباح الثلاثة	١٩٢٥/٢/٩	سم
٨ -	تعالى	١٩٢٥/٢/٩	سم

سم	١٩٢٥/٢/٩	١٢ - التينة الحمقاء
سم	١٩٢٥/٢/٩	١٨ - الأسرار
م	١٩٢٥/٦/١٨	٣٤ - موت العبقري
مق	١٩٢٥/٧/١	١٦ - الكمنجة المحطمة
س	١٩٢٦/٥/١٣	٣٣ - عيد النهى
س	١٩٢٦/٦/١٧	١٤ - التمثال
س	١٩٢٦/١٠/٧	٥ - السماء
س	١٩٢٧/٢/٢٨	٢ - العنقاء
سم	١٩٢٧/٣/٢٤	٢٤ - نار القرى
سم	١٩٢٧/٣/٢٤	٦ - برّدى يا سحب
سم	١٩٢٧/٣/٢٤	٣١ - لا أنت ولا أنا
سم	١٩٢٧/٣/٢٤	٣٥ - الغدير الطموح
سم	١٩٢٧/٣/٢٤	٢٥ - ابن الليل
مق	١٩٢٧/٦/١	٢٩ - العليقة

٣ - مالم يؤرخ

١ - الفاتحة
٤ - الضفادع والنجوم
٢٧ - الإله الثرثار .
٣٦ - الطلاسم

(١٥) موجز عن حياة أبي ماضى

١٨٥٤ فى ضبعة المحيثة بلبنان ، ولد والده ظاهر (ضاهر) إيليا طانيوس أبو ماضى .

١٨٦٤ فى المحيثة ، ولد عمه نعوم .

١٨٨٧ فى المحيثة ، ولد أخوه الأكبر مراد .

١٨٨٩ فى ١٥/٥ ، فى المحيثة ، وضعت سلمى - أم مراد - إيليا .

١٩٠٠ هاجر إلى إسكندرية مصر ، بصحبة عمه نعوم ، حيث بدأ يتعاطى بيع السجاير والدخان نهائياً ، منصباً على الدرس والمطالعة ليلاً ، تارة على نفسه ، وتارة فى بعض الكتاتيب .

١٩٠٣ أول ما قرض الشعر ، وكان فى الرابعة عشرة .

١٩٠٨ فى ٢٢/١٠ ، نشرت « الهدى » النيويوركية خبراً ، أرسله إليها أحدهم ، يفيد أن أخاه مراد قتل بالرصاص فى سنسنانى . فكذب مراد الخبر فى مقال نشرته « الهدى » فى ٢٧/١٠ .

١٩٠٩ فى ٤/٢ ، علقت « الهدى » النيويوركية على قصيدته « فى سبيل الإصلاح » . فى الربع الأول ، فى الإسكندرية ، توفى أخوه طانيوس .
فى ١٢/٨ ، نشرت « الهدى » النيويوركية قصيدته « شكوى فتاة » (الزواج التجارى) .

١٩١١ فى ٣٠/١ ، نشرت « مرآة الغرب » النيويوركية قصيدته « نفثة مصدور » .

فى النصف الأول ، فى الإسكندرية ، صدر عن المطبعة المصرية « ديوان تذكار الماضى » ، فى ٨٥ ص ، مَهْدَى « إلى الأمة المصرية » . وكان ثمن الديوان عشرة قروش .

فى مارس (آذار) ، نشرت « الهداية » القاهرية قصيدة « أنا هو » كنموذج من هذا الديوان ، ونقدتها .

في النصف الثاني ، أهدى نسخة من ديوانه إلى كل من « المقتطف » و « الهلال » القاهريتين .

في الصيف ، غادر مصر نهائياً إلى لبنان حيث أقام بضعة أشهر . وبعد انضمامه للمعارضة ، هاجم السلطة الحاكمة بقصيدة « وداع وشكوى » ، ثم سافر هارباً إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل مع أخيه مراد في تجارة السمانة . وكان محل أخيه قائماً في الركن الشمالى الغربى من ملتقى الشارع الثالث بشارع سيراكيوز بمدينة سنسنانى بولاية أوهايو . في ٦ / ١٢ ، في « مرآة الغرب » النيويوركية ، ظهرت « نزوة ألم » (خواطر شاعر) ، طليعة قصائده المهجرية .

١٩١٥ في أغسطس (آب) زار عبد المسيح حداد سنسنانى ، وقابل أبا ماضى لأول مرة ، وكتب عنه في جريدته « السائح » النيويوركية .

١٩١٦ في ١/٦ ، في نيويورك ، ظهر أول عدد من « السائح الممتاز » ، وبه قصيدتان له : « ما للكواكب ؟ » و « حكاية قديمة » .

في ٣١/٣ ، في سنسنانى ، توفى أخوه ديمترى (مترى) منتحراً بالرصاص ، غير متجاوز العشرين من عمره .

في منتصف العام ، في نيويورك ، ظهرت الرابطة القلمية .

في يوليو (تموز) ، في « الفنون » النيويوركية ، ظهرت « الخلود والفناء » ، أولى قصائده في هذه المجلة ، موقعة بإمضاء « عطار » .

في أغسطس (آب) ، انتقل إلى مدينة نيويورك للتحرير في « المجلة العربية » . ولم يطل الوقت حتى أسهم في تحرير « الفتاة » النيويوركية التي كان يصدرها شكرى بخاش .

١٩١٧ في مارس (آذار) ، في سنسنانى ، تزوج أخوه مراد سليمة سمعان .

وكان الإشبينان يوسف فلفلى وآسين سمعان شقيقة العروس . في مايو (أيار) ، في نيويورك ، أقام نعوم مكرزل - صاحب « الهدى » - دعوى عليه ، وعلى شكرى بخاش صاحب « الفتاة » ، وعلى عبد المسيح حداد صاحب « السائح » .

في ١١/٧ ، في نادي القديس نيقولاوس ببروكلن ، انتخب أبو ماضي -
عن العلمانيين - كاتم أسرار المجلس الملي الأرثوذكسي العام لأبرشية
بروكلن .

١٩١٨ في الربع الأول ، صار محرراً لـ «مرآة الغرب» .

في ١٥/٤ ، في منزل آل دياب بنيويورك ، خطب دوروثي (دورا)
ابنة نجيب موسى دياب صاحب «مرآة الغرب» ، وبارك الخطبة
المطران أفثيموس عفيش .

في ٢٨/١٠ ، في أحد شوارع بروكلن ، دهمت سيارة أولغا - أخت
خطيبته - فتاة ، وذهبت بجياتها .

١٩١٩ يونيو (حزيران) ، في نيويورك ، صدر عن «مرآة الغرب» «ديوان
إيليا أبو ماضي ، الجزء الثاني» ، في ١٩٢ ص ، بمقدمة لجبران خليل
جبران ، ومهدى إلى الثرى نعمة تادرس ، تاجر سجاد شرق معروف في
نيويورك .

١٩٢٠ في ٢٥/٤ ، في بيت آل دياب بنيويورك ، تزوج دوروثي . وقد بارك
الإكليلى الأسقف أفثيموس عفيش والأبوان باسيليوس خرباوى وتيودورى
بنى . وكان الإشييان رشيد سمعان وعائدة مبارك شقيقة العروس . أما شهر
العسل ، فقد أمضاه العروسان في مدينة أتلانتيك سبتي بولاية نيو جرزي .

١٩٢١ في فبراير (شباط) ، في نيويورك ، أصدر الموسيقى المهجرى أنيس
فليحان كراسة في ثمانى صفحات من الحجم الكبير بعنوان «بين الضحك
واللعب» تضمنت قطعة أبى ماضي المعروفة بهذا العنوان واللحن الموسيقى
الذى وضعه لأدائها على البيانو .

في ١٠/٨ ، بمستشفى روزفلت في نيويورك ، توفيت حماته كاترين
سابا دياب بداء السرطان ، ولها من العمر ٤٣ سنة .

في الربع الأخير ، في لبنان ، اقترنت أخته جنى (أوجيني) بإبراهيم
نمر الحورى نعيمة .

في ديسمبر (كانون الأول) ، في نيويورك ، صدرت «مجموعة الرابطة

القلمية لسنة ١٩٢١ « عن المطبعة التجارية السورية الأمريكية ، تتضمن خمس قصائد له مختارة .

١٩٢٢ في ٢/٢٣ ، رزق رتشرد أول أنجاله .

في ١٠/٢٧ ، تزوج حموه نجيب السيدة أنجلينا زريق ، ابنة جبرائيل الصايغ . وكان شاهدا الإكليل إيليا وملكة سليم سمارة .

١٩٢٣ في أبريل (نيسان) ، في قوسايا البقاع بلبنان ، توفيت أخته جنى لآثر ولادتها الأولى .

في ٦/٣٠ ، في مستشفى برمانا بلبنان ، توفيت والدته حميه .
أكتوبر (تشرين الأول) ، وصل إلى نيويورك والداه قادمين من لبنان .

١٩٢٤ في ١/١٧ كان ميلاد إدوارد ، نجله الثاني .

في ٦/١٥ ، صار ثمن « ديوان إيليا أبو ماضي ، الجزء الثاني » خمسة دولارات بعد أن كان دولارين .

في أكتوبر (تشرين الأول) ، أعلن على صفحات « السائح » و « الهدى » أنه أصبح وكيل مجلة « المقتطف » القاهرية في أمريكا .
في ١١/٣٠ ، في منزل أبي ماضي بنوروك كونيكتيكات ، عمّد رئيس الأساقفة أفثيموس عفيش والأب باسيلوس خرباوى إدوارد بن إيليا .
وكفل إدوارد جده نجيب وامرأة عمه سليمة .

١٩٢٥ في فبراير (شباط) ، في نيويورك ، صدرت أسطوانة « نشيد يوسف كرم » ، تلحين وإنشاد مدحت سريجى ، أبيات أبي ماضي .

١٩٢٦ في يناير (كانون الثاني) ، وقعت بينه وبين أسعد رستم مناظرة هجائية ه
في نوفمبر (تشرين الثاني) ، أعلن أن عنوانه الجديد هو ١٩ شارع ريكتور ، نيويورك .

١٩٢٧ في يوليو (تموز) ، في نيويورك ، صدر عن مطبعة « مرآة الغرب » ديوان « الجدال » ، في ١١٢ ص ، وبمقدمة لميخائيل نعيمة .

١٩٢٨ في يوليو (تموز) ، اعتزل تحرير «مرآة الغرب» بعد أن صرف في إدارتها أكثر من عشر سنوات .

في ٧/٢٧ ، أبحر والده على الباخرة «باتريا» راجعاً إلى لبنان وسوريا .
في ١٢/١ ، أعلن أن عنوانه الجديد هو ٢ جريجورى بوليفارد بنوروك ،
بولاية كونيتيكت .

كان أحد أعضاء اللجنة التمهيدية لحفلة يوبيل جبران خليل جبران
الفضى التي أقيمت في ١٩٢٩/١/٥ ، في نزل مكالين ، في بروكلن ،
نيويورك .

١٩٢٩ في ٢/٢٦ ، نشر «السائح» و «الهدى» أول إعلان عن عزمه على
إصدار مجلة نصف شهرية أسماها «السمير» .
في ٤/١٥ ، أصدر أول عدد من «السمير» .

في يونيو (حزيران) انتقلت «السمير» إلى مكتبها الجديد في الطابق
الأول من البناية رقم ٧٤ شارع واشنطن ، نيويورك .

١٩٣٠ في ٣/٢٨ ، انتخب كاتم أسرار اللجنة المؤقتة لتكريم ذكرى الشيخ
عبد الله البستاني .

١٩٣١ في أوائل العام ، في المحيضة ، توفي والده .
في ١٠ / ٤ ، في نيويورك ، توفي جبران ، وخصصت «السمير»
عددًا مؤرخ ٥/١ لذكراه .

١٩٣٢ في ٣/٢٨ ، في نيويورك ، توفيت أوالغا - أخت زوجته - في عقدها
الثالث ، إثر عملية الزائدة المعوية .

١٩٣٣ في ٥/١ ، رزق روبرت ثالث أنجالة .
في مايو (أيار) استحصل حكماً على «مرآة الغرب» بنحو ١٥٠٠ دولار
في مقابل دين عليها له .

في ١٠/٣ ، عند حبيب السكاف في بروكلن ، أنشئ نادى الموسيقى
العربية ، وانتخب أبو ماضى رئيساً له .

١٩٣٥ في بنجهامتن بولاية نيويورك ، أقامت الجالية حفلة تكريم له .

١٩٣٦ في ٧/١١ ، في مستشفى ميثوديست هابيسكوبال بنيويورك ، توفي حموه إثر عملية جراحية ، وفي ٧/١٥ دفن في مقبرة جرينوود .

في يوليو وأغسطس (تموز وآب) ، [تطوع للتحريض في «مرآة الغرب» وللمعاونة أنجلينا - زوجة حميه - في إدارة الجريدة ، منصرفاً عن الاهتمام بـ «السمير» .

في سبتمبر (أيلول) ، انتقل [بعائلته من نورووك كونيكتيكات إلى مسكن جديد في بروكلن نيويورك ، ليكون قريباً من عمله .
في ١١/٢ ، تحولت «السمير» من مجلة نصف شهرية إلى جريدة يومية ، وظهرت في ٤ صفحات من قطع الصحف العادية .

١٩٣٧ في النجف بالعراق ، أعادت كل من مطبعة الغري ومطبعة الراعي طبع «الجدول» بدون استئذانه .

١٩٤٠ في نيويورك ، صدر عن مطبعة جريدة «السمير» اليومية ديوان «الخمائل» ، في ١٩١ ص .

في ١٢/١٤ ، في نزل سانت جورج ببروكلن نيويورك ، أقيمت له حفلة بمناسبة نشر «الخمائل» . وقد أصدرت «السمير» عدداً ممتازاً استوعب كل ما قيل في الحفلة .

في ١٢/١٧ ، في منزل أبي ماضي ، عمده الأب مكاريوس المروبرت بن إيليا . وكان كفيل روبرت المطران أنطونيوس بشير وسليمة امرأة عمه .

١٩٤٣ دعا توفيق فخر للتعاون معه في تحرير «السمير» ، فلبى هذا الدعوة ، ورافقه حتى النهاية .

في ٣/٢٢ ، في مدينة نيويورك ، توفيت والدته سلمى ، وكانت تقطن في المنزل رقم ٢٥٣ شارع ٨٤ في بروكلن . وفي ٣/٢٤ صُلِّيَ على جثمانها في كاتدرائية القديس نيقولاوس الأرثوذكسية ، ثم شيعت إلى مدفن جبل الزيتون حيث وُوريت .

في ١٠/٥ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين الطيب الشاعر رزق حداد ، التي أقيمت في قاعة الدفان وولدت .

في ١٠/٣١ ، دشن المبنى الجديد لجريدة « السمر » ، وقد أقيمت حفلة ترأسها إبراهيم قرعان .

١٩٤٤ في مارس (آذار) ، عُرض فيلم « رصاصة في القلب » ، وفيه غنى الموسيقار محمد عبد الوهاب مقاطع من قصيدة « الطلاسم » .

في ٧/١٤ ، توفيت المطربة أسهمان قبل أن تغني أبياتاً من قصيدة « المساء » ، كان قد لحنها لها رياض السنباطي .

١٩٤٦ في ٢/٢ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس الحفلة التي أقيمت في منزل عبد المسيح حداد ، بمناسبة زفاف ليلي ابنة الأخير على فريدريك عبد النور .

في ٣/٢٧ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين نسيب عريضة التي أقيمت في قاعة الدفان وولدت .

١٩٤٧ في ٥/٢٤ ، في ميلفورد بنسلفانيا ، ترأس حفلة تأبين نجلاء صباغ التي أقيمت في الكنيسة الكاثوليكية .

في الصيف ، عهد إلى محام في بيروت أن يلاحق الدعوى ضد إبراهيم الزين صاحب مكتبة العرفان لطبعه ديوان « الجدائل » بدون استئذانه . كما سلم إلى محام آخر الدعوى ضد المطرب محمد عبد الوهاب .

١٩٤٨ دعت الحكومة اللبنانية ممثلاً لصحافة المهجر في مؤتمر اليونسكو الذي عقد في بيروت ما بين ١١/١٧ و ١٢/١١ .

في نوفمبر (تشرين الثاني) ، في بيروت ، أخرجت مكتبة صادر طبعة ثانية لـ « الحمائل » ، صادف ظهورها زيارته للبنان .

في ١١/١١ ، وصل إلى مطار دمشق قادماً من الولايات المتحدة .

في ١١/١٤ ، زار المحيدثة مسقط رأسه ، وهناك في نادى المدرسة ، أقيمت له حفلة تكريمية .

في ١١/٢٧ ، أذيعت مقتطفات من شعره ، كانت مديرية الدعاية

والنشر والإذاعة قد دعته لإلقائها .

في ١٢/٢١ ، صدر مرسوم بمنحه وسام الاستحقاق اللبناني الفخري المذهب .

١٩٤٩ في ١/٤ ، في فندق الريجننت بيروت ، أقام هو حفلة ترأسها فؤاد عمون ، مدير الخارجية العام ، الذي علق على صدره وسام الأرز الوطني اللبناني من رتبة ضابط .

في ١/٦ ، في مدرج الجامعة السورية بدمشق ، أقامت الحكومة السورية حفلة له برعاية الرئيس شكري القوتلي الذي علق على صدره وسام الاستحقاق الممتاز .

في ١/١٦ ، غادر دمشق عائداً إلى أمريكا على إحدى طائرات شركة بان أميريكان .

١٩٥٠ في ٥/٣٠ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين ندره حداد التي أقيمت في قاعة الدفان وولدك .

في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني) ، دخل مستشفى باي ريدج ، في بروكلن نيويورك ، وفي ١٢/٩ غادره . وقد حضر أخوه مراد ، من ميامي فلوريدا ، للإشراف على « السمير » .

١٩٥١ في ٩/٨ ، في الكاتدرائية الأرثوذكسية ببروكلن نيويورك ، تزوج ابنه رتشد من ماري لويز كيرك . وقد بارك القران المتروبوليت أنطونيوس بشير . وكان الشاهدان روبرت شقيق العريس ، وجين شقيقة العروس . وللمناسبة أقيمت حفلة في قاعة فندق بوسرت ، ببروكلن ، وكانت أول مرة ينحطب فيها أبو ماضي بالإنجليزية .

١٩٥٢ في الربع الأخير ، في نيويورك ، نشر أخوه مراد « السنايل » ، في ٢٠٨ ص .

١٩٥٤ في ١٢/٥ ، احتفل بيوبيل « السمير » الفضي . وكان منظم الحفلة توفيق فخر .

١٩٥٥ في فبراير (شباط) ، اتهمه روكس بن زائد العزيزي بسرقة قصيدة

«الطين» من شاعر بدوى اسمه على الرميثي ، قيل كان يعيش في البادية الأردنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

١٩٥٧ في الربيع ، حجب «السمير» ، وباع المطابع وموجودات الإدارة .
في يوليو (تموز) اضطر إلى دخول المستشفى الرومجية ، في بروكلن .
في ١١/٢٣ ، في بروكلن ، توفي بالسكتة القلبية ، وكان يقطن المنزل رقم ٢٥٩ شارع ٨٥ .

في ١١/٢٥ ، نشرت أرملته وأولاده وشقيقه نعيًا في «الهدى» .
وفي نفس اليوم أقامت الجالية حفلة تأبين في قاعة كاتدرائية القديس نيقولاوس الأرثوذكسية ، في بروكلن ، حيث كان يرقد جثمانه . وقد ترأس الحفلة صديقه فوزى البريدى . وفي هذه الحفلة ، أعلن إميل مطر :
قنصل لبنان العام ، منح الحكومة اللبنانية الفقيد وسام الأرز الكبير من رتبة كومندور .

في ١١/٢٦ ، صلى المتربوليت أنطونيوس بشير على جثمانه في الكاتدرائية ، ثم شيع ووُوري . وقد ودعه شقيقه مراد بأبيات رقيقة .
سجلت إحدى شركات التلفزيون مناظر الجنازة ووقائعها ، كما سجلت جميع الخطب التأبينية على شريط صوتي .
في ١٢/١٨ ، نشرت «البيان» النيويوركية عددًا خاصًا لما قيل في الشاعر .

١٩٥٨ في ١/٢٣ ، في منتدى الجامعة الأمريكية ببيروت ، أقيمت حفلة ذكراه ترأسها ميخائيل نعيمة ، كما أقيمت حفلة أخرى بدار المعلمين العالية ببغداد .

في ١/٢٨ ، في النادي العربي بدمشق ، أقيمت حفلة ذكراه بحضور الرئيس شكري القوتلي الذي أصدر مرسومًا بمنحه وسام الإخلاص من الدرجة الممتازة .

في فبراير (شباط) ، قرر مجلس بلدى بيروت إطلاق اسمه على أحد شوارع العاصمة تكريمًا له .

في ٢/١٢ ، في القاهرة ، أقامت جمعية الأدباء المصريين ندوة عنه ،
قدمها عبد الحليم عبد الله ، واشترك فيها : شوقي ضيف ، كمال نشأت ،
محمد عبد الغنى حسن ، محمد مندور .

١٩٦٠ في يناير (كانون الثاني) ، في بيروت ، نشرت دار العلم للملايين أول
طبعة لديوان « تبر وتراب » ، بعد أن أشرف على إعداده جورج صيدح .
في ٩/١٨ ، في كنيسة القديس جورج بواشنطن العاصمة ، تزوج ابنه
روبرت بجالوريا آن ابنة سليم وكاترين شامة ، على يد المطران أنطونيوس
بشير .

١٩٦٢ في ٥/١٢ ، في ميامي فلوريدا ، توفي شقيقه مراد بمرض في كليتيه .
١٩٦٨ في الصيف ، توفي ابنه إدوارد في نيويورك . كما زار روبرت المحيطة
مسقط رأس والده .

١٩٧٢ في الصيف ، زارت أرملته دوروثي لبنان لأول مرة .

البَابُ الثَّانِي

أَشْعَارُ مَجْهُولَةٍ

مقدمة الباب الثاني

يرجع اهتمامي بالأدب المهجري إلى أيام دراستي في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، عندها كان أستاذنا الدكتور محمد حسين يحاضرنا في هذا الأدب . وبقى معي هذا الاهتمام ، وازداد مع الأيام . فلما سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وانتهيت من دراساتي العالية ، وجاء دور اختياري موضوع رسالة الدكتوراه ، اخترت لإيليا ظاهر أبي ماضي كشاعر . وانقطعت بعدها ، لثلاث سنوات متتابة ، إلى تحليل دواوين الشاعر الخمسة المعروفة تحليلًا زمنيًا ، لتحديد معجمه اللغوي وكذلك تطوره ، مستخدماً في ذلك « الكمبيوتر » . وجرتني هذه الدراسة إلى تأريخ جزء كبير من أشعار أبي ماضي المعروفة ، وإلى اكتشاف أن هناك أشعاراً له لم ينشرها شاعرنا . فأخذت أجمع هذه الأشعار المجهولة الثابتة حتى تجمع لدى هذا الديوان الحديد الذي أضعه بين يدي القارئ ، والذي يبلغ ١٥٧٠ بيتاً . فإذا عرفنا أن مجموع أبيات دواوين أبي ماضي الخمسة المتداولة هو ٨٣٤٠ بيتاً ، رأينا أن الزيادة الجديدة مقدارها ٨٢ ، ١٨ في المائة ، وهو مقدار له وزنه حتى لو نظرنا إلى هذه الأشعار المجهولة نظرة كمية بحتة .

ولا أدري لماذا لم ينشر أبو ماضي هذه القصائد ضمن دواوينه . أكان « يهملها خشية الناقدين ؟ » ، كما يقول جورج صيدح في « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية » (ط ٣ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٩) ، أم أن هناك أسباباً أخرى دفعته إلى ذلك ؟ لقد تعمّد مثلاً أن ينسى « إلى النابح العاوى » — كما تعمّد أن ينسى غيرها — وكأنها لم تُنظم ، وهي القصيدة التي كتب عنها « معجب » ، في « مرآة الغرب » ، ١٩٢٦/٢/١٩ ، ص ٤ ، يقول :

« على أني أقدر أن أقول إن القصيدة التي ظهرت في
« المرأة » منذ عهد قريب بلا توقيع سيكون حظها من
الخلود كبيراً لما فيها من السلاسة والرقّة وأداء المعنى المبتكر

بلا تكلف ولا تعسف ، مما يشهد لناظمها بالمقدرة على التصرف بالمعاني والألفاظ كما يشاء .

إن تلك القصيدة ستخلد ، وإن كان صاحبها على ما يظهر من تكتمه لا يود لها الخلود . فإن بقاء القصيدة أو زوالها لا يتوقف على رغبة ناظمها ، ولا على رغبة سواه ، ففيها من الأبيات ما يصح أن يستشهد به الناس في كل زمان ومكان » .

وسواء أكان هذا الديوان ، كله أو بعضه ، من جيّد شعر أبي ماضي أم ليس من جيده - حسبما كان حكم القارئ عليه - فهو لا يجب أن يغفل في دراسة شاعرنا خاصة ، وفي دراسة الأدب المهجري عامة ، من ناحية ، ولا في الدراسة اللغوية من ناحية أخرى . فكم تعثرنا في دراستنا الأدبية واللغوية على السواء بسبب إهمال النصوص وفقدائها . وكم كان صادقاً جورج صيدح حين قال ، في كتابه ص ١٢٩ :

« عندنا تراث غال من شعر المناسبات تركه لنا الشعراء القدامى ، وزاده غنى الشعراء المحدثون والمعاصرون ، فإن أهملناه قد لا يخسر الشعراء شيئاً ، ولكن الأدب العربي يخسر أشياء . وأية خسارة أفدح من أن نهمل ديوان المتنبي برمته ، ونصف « الشوقيات » ، وقسماً كبيراً من شعر القروى وأبو ماضي وفرحات ؟ » .

وكما سيرى القارئ ، فإن معظم شعر هذا الديوان شعر مناسبات . والمناسبة - كما يقول جورج صيدح أيضاً ، ص ١٢٤ - ١٢٥ :

« لا تعيب الشعر قدر ما يعيبه نقصان الحس والتجربة الفردية والعبرة الإنسانية في المناسبة . وليس على الشاعر أن يخلق عاطفته في المناسبة ، بل أن يمثل عاطفة المجتمع في عاطفته ، سواء شكر أو امتدح أو رثى أو هجا . المناسبة عند شاعر كإيليا أبو ماضي ، لا تخلق الأفكار

والخواطر ، بل تهبي لها فرصة للظهور . وإنك لتقرأ قصائد المناسبات في ديوانه فتشعر أنه غمر المناسبة وسما فوقها لأن روحه تحركت بإلهام صادر من النفس لا من خارجها . وأنت لا تهتم بالمحرك الذى هو المناسبة ، إلا كما تهتم باليد التى أدارت زر الكهرباء حين امتلأت غرفتك بالنور .

ولا شك أننا نستقى معلومات جديدة عن أبى ماضى من قراءتنا لهذه الأشعار المجهولة . فنحن نعرف الآن أن « اللواء » و « العلم » و « الشعب » القاهرية ، كانت من الجرائد التى نشرت أشعاراً لأبى ماضى أيام كان فى مصر . ونعرف أن أبى ماضى لم يكن جديداً على الحالية العربية عندما جاء إلى سنسنانى أوهايو أواخر عام ١٩١١ ، فقد تقدمته قصائده إلى أمريكا — قبل أن يحل بها — على صفحات الجرائد المهجرية . ونعرف أيضاً أنه كان قادراً على الدعاية البريئة قدرته على الفلسفة المتعمقة ، وقادراً على المناظرة الشعرية الحسّية قدرته على المناظرة الهجائية ، وأنه لم يكن يلجأ إلى الهجاء لطبيعة فيه ، وجهه لهذا الفن ، وإنما كان يلجأ إليه مضطراً للدفاع عن نفسه . ونعرف أنه كان مجيداً فى هذا الفن الشعرى لإجادته فى غيرها من الفنون الشعرية ، وأنه كان نبيلاً مع خصومه ، كريماً ، فلم يعبأ بنشر أى من قصائده الهجائية فى أى من دواوينه ، بل تركها للنسيان مطوية فى صفحات الجرائد . ثم نعرف أن الرجل كان ذا وعى إنسانى يدفعه إلى الدفاع عن المظلوم أياً كان وأينما وجد ، وأنه كان شجاعاً غير هيب ، يُبدى رأيه دون خوف . ثم نعرف أيضاً أنه كان قوى الذاكرة ، قادراً على ارتجال الشعر فى الحفلات عندما يطلب إليه ، وأنه كان يحب الطبيعة حباً جعله يحلها محل الصداقة حتى فى مراثيه . ثم إنه كان قارئاً واسع الاطلاع ، مستوعباً لما يقرأ ، مما جعل مستودعه اللغوى كبيراً ، وأن بعض مطربي المهجر لحن بعض قصائده وغناها . هذا بعض ما نستدل عليه من هذه الأشعار المجهولة .

وكنّت أود — لإتمام الفائدة — تذييل الأشعار ببعض الشروح والتعليقات ، وتذييل الكتاب ببعض الفهارس ، ولكننى — رغبة فى عدم تضخيم الكتاب — اكتفيت

بإيراد الأشعار مع بيان مصادرها . هذا ، وقد رتبت الأشعار ترتيباً زمنياً ، مفضلاً هذا الترتيب على الترتيب الموضوعى أو الترتيب حسب القافية .

أما نسخ دواوين أبي ماضى التى اعتمدت عليها وكانت مرجعى فى تحديد الأشعار المجهولة فهى :

١ - « ديوان تذكّار الماضى » ، الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ . ٨٥ ص .

٢ - « ديوان إيليا أبو ماضى » ، الجزء الثانى . نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩ . ١٩٢ ص .

٣ - « الجداول » . نيويورك ، مرآة الغرب ، ١٩٢٧ . ١١٢ ص .

٤ - « الخمائل » . نيويورك ، مطبعة السميع اليومية ، ١٩٤٠ . ١٩١ ص .

٥ - « تبر وتراب » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ . ٢٣٢ ص .

وطبعة هذه النسخ هى الطبعة الأولى الأصلية التى أصدرها أبو ماضى بنفسه ، باستثناء « تبر وتراب » الذى أشرف على إصداره جورج صيدح ، بعد وفاة الشاعر . فأى أشعار لأبى ماضى لم ترد فى هذه الدواوين اعتبرتها أشعاراً مجهولة .
بقى أن أأمل أن يكون عملى هذا فاتحة اهتمام جديد بأدب المهجر .

إلى بطل الوطنية

الشيخ عبد العزيز جاویش

لئن حجبتك عن مقل البرايا
ولئن تَكَرُّدَ حُبْسَتْ وَأَنْتَ حَر
كبير القسوم أكبرهم خطوباً
لقد أَعْلَيْتَ قَدْرَ السَّجْنِ حَتَّى
ولا عجب إذا أُسْكِنْتَ فِيهِ
تعددت الطيور فلا حيس
يقول الشامتون : السَّجْنُ يُزْرَى
وما في صحبة الأشرار عيب
فصبراً، يا نزيل السَّجْنِ ، صَبْرًا
وحسبك عطف هذا الشعب فخرًا

فما حجبتك هـواك عن الصدور
فكم في الحبس من أسد هصور
لذاك رُمِيت بالخطب الكبير
أحب السجن سكانُ القصور
فكم في الليل من قمر منير
سوى الغرد الجميل من الطيور
لئن صدقوا فبالحنى الكفور
على الداعى إلى ترك الشرور
فما عرف الهناء سوى صبور
وحسب عداك توبيخ الضمير

مصر والاحتلال

أنا لا أرضى « مصر » أن تُضاماً
 هاجه العايب بالحق فلاماً
 زدت في تعنيفه زاد هياماً
 ربما خفت الشكوى السقاماً
 نقرئ « النيل » التحايا والسلاماً
 منعوها ماءه إلا لماماً
 قوة تبعث في الشعب اعتزاماً
 ما بنفسى من جوى سال ضراماً
 والأسى يدفع عن عيني المناماً
 مثل ما يرقب راعيها السواماً
 ما الهوى بغية من بالمجد هاماً
 بأبى « مصر » ومن فيها أقاماً
 أمن الله بها « البيت الحراماً »
 عركوا الدهر فتيةً وغلاماً
 نقضت عهداً ولا خانوا ذماماً
 يعصم الحرف لا يخشى اهتضاماً
 إنما يهتضم الدهر الكراماً
 لست أعنى بالعداء إلا الطغاماً
 بيننا تجمع « مصر » و « الشاماً »
 مثلما يرتقب الصادى الغماماً

خلّنى أستصرخ القوم النياماً
 لا تكلم في نصرة الحق فتى
 أو قلّمنى إن قلبي كلّمماً
 سوف أشكو لهم إن أخرجنى
 وقفة في شاطئ « النيل » معى
 وأناجيه أماني أمة
 علّة يبعث من أسرارهِ
 قسماً ب « النيل » لو أن به
 لست أنسى ليلة بت بها
 أرقب الأقمار في أفلاكها
 لم يؤرقني اشتياق أو هوى
 راع نفسي أن « مصر » روعت
 حسب « مصر » أنها الأرض التي
 وبنيتها إنهم نسل الألى
 كرمت « مصر » وأهلوها فما
 كان للأحرار فيها موئل
 ثم هاض الدهر من جانبها
 أربى « مصر » على رغم العدا
 لست مصرياً ولكن نسبة
 أمة ترتقب استقلالها

مارمت سهماً ولا سلّت حساماً
 ما شكت غير هموداء عقاماً
 وأعاضوها من الرى الأواما
 جعلوا القانون فى فيها بالحاما
 «رُبّ ذى لب عن الحق تعالى»
 أخمول إنها تهوى السلاما؟
 شقوة «النيل» سوى عشرين عاما
 فإلام أيها القوم، إلا ما؟

ما لهم يسعون فى إيدائها؟
 زعموا إصلاحها وهى التى
 حبسوا «النيل» على نفعهمو
 فإذا ما صرخت تشكو الصدى
 أنكروا خطوتها نحو العلا
 ورموها بالتوائى، ويحهم
 قد خلت تسعة أعوام على
 وانقضى العمر ولما تنجلوا

* * *

وامنعوا الألسن والصحف الكلاما
 فى وثام فانشروا فىنا الخصاما
 فى حياة فابعثوا فىنا الحماما
 أو فكونوا أنتم الموت الزواما
 ضده إن جاوز الأمر التماما

كبّلوا أقلامنا جهدكمو
 وإذا عزّ عليكم أننا
 وإذا عزّ عليكم أننا
 ينزع الأرواح من أجسادها
 إنما ينقلب الأمر إلى

روزفلت ومصر

خطيب الأمس ما أنصفت «مصر»
ولكن كنت للباغي علينا
لعمرك ما حللت بنا صديقاً
أطعت بنا الوشاة ، وما عهدنا
كأنى بـ « العميد » إليك أوحى
تحاول أن تحببهم إلينا
وتأمل أن نبني على قنوط
أيا ضيف «الكنانة» جرت فاقصْدُ
أترجو أن تكون لنا نصيراً
لقد خدعتك ، يا «روزفلت» ، منهم

ولا أنصفت ماضيك القريباً
أقوى ، إن للباغي ضريباً
ولكن كنت طوّافاً مُريباً
— وحقك — واشياً إلا كذوباً
بما أوحى ، فقممت بنا خطيباً
متى ألفيتنا نهوى الخطوباً ؟
كأن اليأس ما قتل الشعوباً
فما شعب «الكنانة» دون «كوبا»
وترجو لو تكون لهم حبيباً ؟
زخارف تخدع الفطن الأريباً

عيد الحرية العثماني

هذا مجال ، فهل في الحى قَوَّالٌ ؟
 ما أجمل القول والآذان صاغية
 حسبي وحسبك أن الشمل ملتئم
 وحسب شعرك هذا العيد من سبب
 لم يبق في الشرق من قطر ولا بلد
 فانشر قوافيك في الآفاق ، فهي على
 إني أراك مطاعاً في شواردها
 إن القوافي إذا أحكمت عقدتها
 وإن أجَدَّتْ فلا تعباً بذى سفه
 فقيم صمتك لا واشٍ ولا رَصْدٌ
 إن كنت تبخل بالأقوال تملكها

إني على العجز في المضمار جَوَّالٌ
 والصمت حيث على الأسماع إقْفَالٌ
 والصفو دان وللأيام إقبال
 إذا نَبَتْ بك أسباب وأوصال
 إلا وفيه احتفالات وحُفَّال
 أكباد ماء وفي الأذواق جِرِّيَالٌ
 مانت ممن على الأشعار يحْتال
 فما يعيبك إكثار وإقلال
 فحيثما كان مجد كان عذال
 يُخْشَى ولا ظالم لِلْحُرِّ يغتال ؟
 فكيف جودك بالدنيا ولا مال ؟

* * *

طال السكوت ، ومالي فيه من أَرْبٍ
 عيد إذا عُدَّ في الأعْياد زَيْنَهَا
 عيد رآه ذَوُو الحاجات فابتسموا
 تفاءلوا أن « تَمْوِزَا » يكون لهم
 « تموز » أنت مُنِيلُ الشرق بغيته
 بتنا نود شهور العام أجمعها

وإنما بي لهذا العيد إجلال
 كالشمس في الشهب ، هل لِلشَّمْسِ أمثال ؟
 شوقاً وكم لذوى الحاجات آمال
 عيداً كغيرهم ، قد يصدق الفال
 في حين أَسْمَحُ قَوْمٍ فيه بُخَالٌ
 « تموز » أو أن يوم العيد أجيال

* * *

باد الزمان الذى تُخْشَى غوائله
 وبات طاغية الأملاك مُعْتَقَلَا

فينا ، وبُدِّلَتْ الأحوال أحوال
 له من الهَمِّ أَصْفَادٌ وَأَغْلَالٌ

خوف المنية ، إن الخوف قتال
أو الغضنفر بانت عنه أشبال
والبيضُ مُشْرِعَةٌ والرمح عَسَّال
يكاد يحدث منها فيه زلزال
أذنيه أيقن أن الشعب فعَّال
بكى بكاء صغير ما له آل
دمع المَضْيَعِ دمعَ الشعب إذلال
لو عاهد الذئب أوفى وهو ختال
عنك العوالى فقد ضاقت بنا الحال
ما أنت أهل له ، للملك أقيال
هيهات ما لـ « رشاد » الملك أمثال
وكنت فيها وكانت وهى أطلال

لم أنسه - وهو فى « يلدِيز » ممتنع
والشعب قد جاش كالبركان من غضب
والجيش مندفع كالسيل من حق
وللقذائف حول القصر فرقة
وللبنادق أصوات إذا طرقت
لما رأى الموت أمسى منه مقرباً
أمسك عليك دموعاً غير مجدية
نقضت عهدك لما صرت مؤتمناً
قم فانزع التاج طوعاً قبل تنزعه
ودّع سرير « بنى عثمان » عن كذب
الملك لاقَ به من كـ « الرشاد » حِجْجِي
به المنازل أضحت وهى عامرة

* * *

مادام للسحب فى الأكوان تجوال
بُرْدِ « الرشيد » « رشاد » الملك يختال
قلب على البعد ممن فىك نزال
كانت لتحجب سمعى عنك أجبال
فالشرق لولك أمسى وهو معطل

« دار السلام » سقتك السحب هامية
إنى أرى فىك « بغدادا » وأبصر فى
يَعْدُ فى القوم من نزال « مصر » ولى
إمّا ثننت بصرى عنك الجبال فما
يادرة الشرق ، دُمْتَ الدهر حالية

نفثة مـصـدور

سوى « لبنان » يمـقـتـه فؤادى
 بلاد الله واسعة ولكن
 بلاد قد طبعـت على هـواها
 فما أنفك أطمح للمعـالى
 يـصـوب كل حين كل سـهم
 لقد كثرت خطوب الدهر عندى
 لعمراؤيك لو كانت نضاراً
 نـحـلت من الهموم ، فـلـوتـرانى
 ولا أدرى وقد طال اغترابى
 فـلـولـا يـشـمت الأعداء منى
 أضـن به ولى قلب كـرـيم
 شعوب لا تعد ولا كـفـوى
 أحن إلى لقائهم وأصبـو
 يكاد الشوق ينقلنى إليهم
 تـرى ، هل عندهم أنى ودهرى
 فى أرق إذا غفلوا ونـامـوا
 كرام فى زمان ليس فيـه
 يزبنون النجاد إذا احتـبـوه
 شـمـوس يستضاء بهم ، غيوث
 ولكن ساءت الأحكام فيهم

وغير بنينه أـمنـعـهم ودادى
 تضيق لـدى إن ضاقت بـلادى
 كما طبع الزمان على عنادى
 ولا ينفك يـبـخل بالمـراد
 إلى فلا يـصـيب سوى فؤادى
 ولم تبرح لـدى على ازدياد
 أـمـنتُ عليه من داء النـفـاد
 لما ميزت طينى من سوادى
 لمن أشكو وقد طال انفرادى
 جرى دمعى فأزرى بالسهاد
 جواد لا يـضـن بمستفاد
 تساوى باعقادهم اعتقادى
 كما حنت إلى الماء الصـوادى
 لو ان الشوق ينقل غير بـاد
 لأجلهم أبـيت على جهاد ؟
 وفى خوف ولو أـمـنـوا العوادى
 كريم الكف فى الكرب الشداد
 ويزدان العـوالم بالنـجاد
 إذا سئلوا ، ليوث فى الطراد
 فسأوا سمعة فى كـل ناد

تمادوا في التساهل مع أناس
فراج الظلم حتى بات سهلاً
وبات العدل مضطهداً لديهم
فيا لهفي على « لبنان » يمسى
عليل يستغيث ولا طيبسب
يسوم الساكنيه الحسف غِرُّ
وأحزاب كما أدري وتدرى
رأوا في الشعب راحلة ذلولاً
وفي « لبنان » مرتباً خصيماً
فما تركوا لنا مجداً طريفاً
ستأتهم شوارد مقلقات
أشد على النفوس من المنايا
يُحَبَّرُها فتى في الشعر فذ
يغرم سكوت الشعب حيناً
ولا يدرون أن الشعب سيل
وبحر ليس يسلم راكبوه
فإن يرقد فإن لكل جفن
لنا دين عليهم غير نذر
فإن دامت عمايتهم وداموا
فأنذرهم بيوم مستطير
تنوب به عن القلم العوالى

تمادوا في النقائص والفساد
وإن الظلم أجدر بالكساد
وهم أولى بذلك الاضطهاد
وأهلوه على وشك الحداد
ومأسور وليس هناك فساد
غوى ضل عن نهج الرشاد
تنادى بالوفاق ولا تنادى
على وهن ، فكانوا كالفقاراد
على ضعف فكانوا كالجراد
ولا أبقوا على مجد تلاد
تقيم الهاجعين عن الوساد
ومن وقع السيوف على الهوادى
« حبيب » دونه و « أبو دؤاد »
ولا يدرون ما تحت الرماد
إذا ما انصب أفعم كل واد
فإن البحر صعب الانقياد
ولا نكر نصيباً في الرقاد
وإن الدين أخرى بالسداد
ودام الظلم يجرى في العباد
يطير لهوله قلب الجماد
وأنهار الدماء عن المداد

نجوى لبنانى

لا الغيد تصيبني ولا الأقداحُ
إني امرؤ كَلِيفٌ بإدراكِ العلى
أهوى بلادى دانيًا أو نائيًا
«لبنان» ، لست أبى ، ولست فتاك ، إن
زعم العواذل أن سلوتك ، ويحهم
ما إن هجرتك عن قِلي لکنما
«لبنان» ، حسبى أننى لك أنتمى
أشدو بذكرك ما بقيت ، ومرقى
قالوا : سَكَّتْ . فقلت : ليس بضائرى
فلربما صَمَمَتْ شفاء ذوى الهوى

مهما تغالى فيهما المداحُ
دأبى الجهاد وغايتى الإصلاح
أعلَى فى حب البلاد جُنّاح ؟
صرفت فؤادى عن هواك رَدّاح
غير السلو لمن أحب يتباح
قلب إلى نيل العلى طمّاح
وكفّك أنى البلبل الصّداح
تجرى به فوق الطروس الراح
بعض السكوت كأنه إفصاح
عمدًا ، لكى تتخاطب الأرواح

* * *

شيخ الرواسى ما لأهلك أصبحوا
كالغصن يَسْكُنُ كلما سَكَنَ الصَّبَا
عبثت بهم أهواؤهم فتفرقوا
لا يملكون مع الزمان قيادهم
لله أنت إذ الزمان مسالم
أيام كان عايك من صنع العلى
بالأمس يرهبك الزمان وصرفه
لم يبق شيء فيك لم يعلق به إلا
أضحى صباحاً ليل «مصر» : «يوسف»

لا الحزن يجمعهم ولا الأفراح
ويميل أنى مالت الأرباح
شيعًا ، وليس مع الخلاف نجاح
كالفلك تجرى ما لها مَلاح
وبنوك كوكب سعدهم وَضّاح
حلل ، ومن نسج الفخار وشاح
واليوم بات حماك وهو مباح
أكدار ، إلا الماء فهو قراح
فعلام ليس لليلنا إصباح ؟

يشقى الأمير ويُرْهَقُ الفلاح
حر، ويُخَفَى الحق وهو صُراح
وكانما هو ذلك السفاح
هيات، ليس مع الفساد صلاح

سعدت به وبعهده ، فى أرضنا
وتنال كف الظلم كل أخى نُهى
فكان «بيت الدين» أصبح «يَلْدِزا»
نرجو الصلاح من الفساد جهالة

* * *

تزكو ويزكو نشرها الفيّاح
لا تنهضون كأنكم أشباح ؟
أنسيتم أن الحياة كفـفـاح ؟
ولكم غُدُوٌّ للعلی ورواح ؟
كالجهل ، فهو لأهله فضاح
والعلم فى الرجل الضعيف سلاح
مجداً ، وما غير العلوم جَنّاح
إن التشبه بالكرام فلاح «

أبناء ذا الجبل الأشم ، تحية
حتّام أنتم مغمضون على القذى
أجهلتم أن البقاء تنازع ؟
فمتى أراكم طارحين خمـولكم
بالعلم فاعتصموا فلَمَّ أَرَسْبَةُ
فالعلم فى الرجل القوى فضيلة
هؤلاء أهل «الغرب» قد بلغوا «السّهى»
«فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

عتاب إلى إلياس عطا الله

يا روح «إلياس» ، بالأرواح نفديك إن المليكة تُفدَى بالماليك
لولا تَجَنِّيكَ لم أحسد أخا ولع ما كان أسعدنى لولا تجنيك
لِمْ الصدود وما قلبى بمنصرف إلى سواك ، ولا سرى بمهتوك ؟
« كاتبتنا مرة فى العمر واحدة ثن ولا تجعلها بيضة الديك »

* * *

« نيويورك » ، يامن فتنت الخلق كلهم ماكنت فاتتى لولا فى فيك
أخو سجايا ، لو ان الله فرقهها فى الناس ما أبصرت عيني بصعلوك
هلال لطف وظرف غير منحسف وطود حلم وحزم غير مدكوك
يجود للناس بالعقيان مِرْقَمُهُ إن شاء منسبكاً أو غير مسبوك
فاقت كتابته الكتاب قاطبة وفاق إعلانه إعلان « مَلُوك » !
لو كان يكتب لا « إفرنج » كان له رسم يمثله فى كل مسبوك
لو كنت ذا نَشَبْ أهديته نشي لكن لا ذهب عند المفايليك
شاء الزمان — ومن يعصى مشيته ؟ ألا يرى الحرفينا غير مأفوك
لو لم يَكُ الدهر فَدَمًا لا كفاء به ما بات ينعم فيه كل بَارُوك
يمشى إلينا على تيه يكاثرننا بالمال ما بين مطبوع ومسكوك
حتى يلتحسب « كسرى » من بطانته وقد تخال عظيمًا قدر « منليك »
وكان يهتز قبل اليوم من طرب لو رأى فى النوم أشباح « المتاليك »
دنياى ! قد ضاع فيك كل ذى أدب كما يضيع الشذى فى أنف مضموك

* * *

يا نفس ، إن الليالى غير عاقلة فإن شكوت أذاها بت أشكوك
صبراً ، فإن تنقمتى أركبتنى خشنأ أو تقنطى فلقد أشمت شانيك
لعلمنا رقعة تحظى العيون بها من الحبيب فتشفيها وتشفيك

٨

اليهودى التائه

أو كل حامل كشكول

أكل يوم مَخْرَقَهٗ وقصة ملفقه ؟
 من أحق ذى غَرَرَ أو جاهل ذى فيهقه
 وكل يوم طارق يأخذكم ؛ « الهيقه »
 كذا الذى طهاف عليه كم يَسْتَدِرُّ الصدقه
 ويستثير الـدين فيه كم ، وهو رب الـزندقه
 فما نـراءى شبح منكم إلا لحقه
 وما أصاب مُوصداً فى الحى إلا طـرقه
 وما رأى مائدة إلا أـمال عنقه
 أعجبه سمنكم فصار مثل العلقه
 يمتص أموالكم مص الهجير الـزنبقه
 يملأ من جيوبكم جيوبه المـخـرقه
 إن تستحبوا لا يستحى كذا الإله خلقه
 جارى « اليهودى » تائهًا بل بـزّه ، بل سبقه
 فاليوم فى مَنَطقَهٗ وفى غد فى منطقـه
 يا حامل « الكشكول » فى الـ هاتق ، أين « المنطقه » ؟

* * *

ما عجبى من رجل صار قفاه مَفْرَقَهٗ
 بل عجبى من مَفْرِق قد صار خلف العنقَهٗ

بل يا لها من مزلقه !
 بيضاء مثل « الشرنقه »
 وفي الهجير مبنصقه
 غوث فيه قلقة
 ظنته قد حلقه
 أنف الكبير « المطرقة »

فيا لها من قرعة
 دائرة مثل السرحى
 في البرد تغدو جمدا
 رأس تظل أرجل البر
 فلو تراه حاسرا
 هذا هو « السندان » والا

* * *

أضاع شعري رونقه
 في الشبارات المونقه
 رعى الجفون الحلقه
 أجهل من « هبنقه » ؟
 فحاذروا أن يهرقه
 ساد منكم « عرقه » ؟
 وقد عرفتم منطقته
 أحسن منه النقته
 ه القرد « طاح الحلقه » !
 هل فيه إلا موبقه ؟
 ضريبة أو نفقه
 كأنه مطلقه
 ملاق أبدي ملقه
 وهو أجاج « مرقه »
 تساعها ك « البندقه »
 تجهل إلا الشقشقه
 والنسن مفرقه
 كما تراعى موثقته
 وافق شن طبقته

عق بناني قللى
 ولا أطاعتنى القلوا
 إن كنت لا أربهاكم
 إلام يستجهلكم
 دم القلوب مالكم
 أتجعلون عرق الأجم
 أراقكم منطقته ؟
 أم صوته ؟ وصوته
 أم وجهه ؟ وصوره
 قوموا اقرأوا تاريخه
 فى كل يوم يتغى
 كأنكم بعولة
 بل كلما أحس بالإ
 فصور البحر لكم
 وصور الأرض على ا
 وحوله عصابة
 ضمائر ميتة
 يرمى لها عهدا
 قد وافقته مثلما

لكنها لِعِلَّة
 والله ، لو كان قصصاً
 لأصبحت أيديهم
 وأبصرت أعينكم
 قد نزعث منه الثقة
 صُ « النَّصْبِ » مثل السرقة
 مقطوعة مُعَلَّقَه
 أُنْقَاهم في المشنقه

وَقِفْ عَلَيْكَ الشَّعْرُ

إلى كل حامل كشكول

يا صاحب الكشكول ، طال لك البقا
ما أنت أول ذى رياء أخفقا
هيهات أن تعظ الحوادث أحقا
حتى العصا ، وعييت أن تتخلقا
متبجحاً ، متنطعاً ، مُتَفَيِّهًا
متملقاً من يعشق التملقا
فمتى أراك على الورى متصدقا ؟
وتلفتوا فرأوك منهم أملقا
الله أعلم كيف باد وأنفقنا
أو كان لفظاً كنت أغزر منطقنا
لله قلبك ما أرق وأشفقنا !
فقد اقتنيت به سعيراً محرقنا

أسنى على الكشكول كيف تمزقا
لا يحزنك اليوم أنك مخفق
عُقبى حماقة ما علّمت ، وإنما
أعيت كل مهذب ومُؤدّب
كم ذا تطوف فى المدائن والقرى
متوعداً كل امرئ مستضعف
خلت السنون وأنت تستجدى الورى
جسادوك بالموفور حتى أملقوا
أنفقت ما لهم كما أنفقتهم
لو كان شعراً كنت صاحب ليمّة
بددته وعفوت عن أرواحهم
مال الشحاذة لا يدوم ، وإن يدُم

* * *

مهلاً ، فإن البحر أصبح ضيقاً
ظنوا العباب لهم حلالاً مطلقاً
صافيتهم وعقدت معهم موثيقاً ؟
بقيت لديك « سفينة » لن تغرقنا
تخشى العواصف حولها أن تخفقنا
فى الماء فلکاً ، فى الفضاء محلقنا

كم ذا تشيد الباخرات وتبنى
أقلقت حتى « الإنكليز » وطالما
هلا - وقد هيجت كامن حقدهم -
لا ، لا ، فإن هم أغرقوها كلها
أعنى « المدرعة المصفحة » التى
هى طاسة سحرية ، مرها تكن

ويقول قوم : إن فيها زئبقا
الحق أن بها الجنون المطبقا !

قد قال قوم : مغنطيس تحتها
كذب الذين تقولوا ، يا سيدى !

* * *

لو كنت تحفظ ماء وجهك أوقفا
فاليوم أصبح كل رأسك مفترقا
لم يأمن البرغوث أن « يتزحلقا »
فمتى نحن إلى الفضيلة والتقى ؟

جف القَدَّال ، وبات أجرد عارياً
طار السواد عن المفارق وامسحى
لمو حاول البرغوث يمشی فوقه
ضيعت عمرك فى المعاصى كله

* * *

وعلى الضلال الحق حتى يزهدا
تلهيك إن تلهو وإن تتشردا
نَطَقَتْ بها الأفواه كى لا تنطقا
وتدود عنك النوم حتى تأرقا
وتكون إما سرت شرقاً مشرقا
أمسى إلى التوديع منه أشوقا
أزمت تسمع من يقول « إلى اللقا »
إن المنافق بينكم لن ينفقا
فمنعتموه بينكم أن ينعقا
ما خاف أن يعوى ولا أن ينهقا
إلا تملكه السرور فصفقا

وَقِفْ عَلَيْكَ الشَّعْرُ حَتَّى تَرَعَى
أَنْتَى حَلَلْتِ وَجَدْتِ ثُمَّ شَوَارِدَا
ملء الشفاه ، فإن هممت بلفظة
تغرى بقلبك كل هم مقلق
وتكون إما سرت غرباً مغربا
فاذا رآك إلى لقائك شقيق
لا « مرجباً » إما نزلت ، ولا إذا
يا ساكنى « كنداً » ، السلام عليكم
وفاكم ذاك الغراب مبكراً
لو لم تكونوا الأسد أو أشبالها
ما مرّ ذكركم على ذى مسمع

ماذا ؟

في الأرض باحثة عن مرتع خصب
وتتق الناس عند الحسو والنغب
فيه الفواكه من نخل ومن عنب
تقتات بالبسر أحياناً وبالرطب
فلم تجز عطباً إلا إلى عطب
في « الغرب » شرقية الأنساب والحسب
فكلما غالبته فاز بالغلب
في دارة الأرض أو في دارة الشهب
أو تطلب البر فالسدلال في الطلب
جرحى اللهاذم والهنديّة القضب
أو كـ « اليهود » على عجل من الذهب
فكُلُّ ضرع عليه كُلُّ محتلب
أهل الكشاكيل والأكياس والحقب
باسم الهياكل والإصلاح والأدب
فليس فيهم - وكم بين اللصوص - أبي
لا يعرف السوس غير الفتك بالخشب
وما لها أرب في قتل ذى أرب
طماعة بمجانى كل مغترب
شطراً من الظلم أو شطراً من التعب

ما الطير ضاقت بها الأوكار فاضطربت
تغالب الريح في الأجواء صاعدة
حتى إذا هبطت في السفح مُزْدَرَعاً
وأودعت زغبها الأعشاش وانطلقت
ساق القضاء إليها كل محتبل
أشقى وأنعس حظاً من مُهاجِرَة
كأنما البؤس خلق من خلائقها
طلب النواثب في حل وموتحل
إن تركب البحر فالسمسار يرصدها
حاموا عليها كما حام النور على
أو كالذباب على صحن من الضرب
كأنها الشاة ، غال الموت راعيها
هناك يسلبها حكامها ، وهنا
باسم المساكين أحياناً ، وآونة
موتى الضمائر ، موتى كل عاطفة
إن يرهقوها ، وهم منها ، فلا عجب
في كل يوم لهم في قتلها أرب
تغربت في سبيل المجد ، واغتربوا
باليث من شاطروها مالها حملوا

وطمَعَ الضعف فيهم كل مغتصب
 ما دُرُّ أهل الأمانى غير مُخْشَلَب
 فراقبوا الله . مستحدث النشب
 هذا المسمى بحق كاشف النوب
 إن تفقدوه فقدتم أنفع الصحب
 إن المواطر عندى أفضل السحب
 كَمُتْلِبِيسِ الخزذات الظلِف والغبب
 مضيع ، كالحيا فى الموضع الحرب
 وأنتم النجب نسل السادة النجب ؟
 وتلعبون ، وشر الناس ذو اللعب ؟
 فذاك من حسن حظ اليوم والحرب

يأمة هاضت الأيام جانبهم
 لا تأخذوا بأمانى مُزَوَّقَة
 أموالكم ، أنتم أولى الأنام بها
 هذا السلاح الذى يشرى السلاح به
 هذا المنجى من الآفات صاحبه
 لا تحسبوا أننى بالشع آمركم
 وإنما رَفَدُكُمْ من لا خلاق لهم
 جود الكريم على من يستخف به
 ماذا ؟ أيعجم أهل اللؤم عودكم
 وتطربون ، وسيف الموت منصلت ؟
 إن كان صوتى لم يبلغ مسامعكم

* * *

أهل النفاق وداء السل والحرب
 كأننى سوف أبقيه إلى « رجب »
 فإنه عجب أدعى إلى العجب
 لا يحمد البحر ذا التيار والعجب
 أهل السخافات والتضليل والكذب
 وأوجبوا من أمور قط لم تجب
 وزوروا من حكايات ومن خطب
 سفاسف ، لم تكن من قبل فى « العرب »
 إلا فى « أعجمى » الخلق والنسب
 أولى برحمته منه « أبولهب »
 بين العوالى الغوالى فارغ القصب
 حتى يطاولنى قرد بهلا ذنب
 اربأ بنفسك أن يهتاجنى غضبى
 ترعى الهشيم ولا تبقى على العشب

ثلاثة لا أصابت غير أولها
 يقول قائلهم : مهلا إلى « رجب »
 إن يعجب الناس من قدّم توعّدنى
 إن الغريق إذا ضاقت مذاهبه
 تب النحاة ، وتب المؤمنون بهم
 كم جَوَزُوا من كلام لاجواز له
 وكم رَوَوْا من أحاديث ملفقة
 النحو والصرف والإعراب أجمعها
 هذى تعاليم كَسَلَى ما يُدَلُّ بها
 فلا حبا الله نحوياً برحمته
 لولا أكاذيبهم ما بات منتصباً
 « ما كنت آمل أن يمتد بى زمنى »
 يا أجهل الخلق - حتى ناقل القرب -
 أو تظلعن عليكم كل آكلة

فى إثر كل رجم غير ذى أدب
 ولا تغادر جبلاً غير مضطرب
 وجدتم الموت فى الأستار والحجب
 جعلت كل قريب غير مقرب
 لو أن فى الموت ما فى العيش من كُرب

تنقض مثل نجوم الرجم هاوية
 فما تغادر قلباً غير منخلع
 فإن جنحتم إلى كهف ليحجبكم
 حتى إذا ظن أن الساعة اقتربت
 وما أنا بالذى يهوى البقاء لكم

حكاية

رَبَّيْتُ كَلْبًا صَغِيرًا وَكَانَ ذَلِكَ نَبَذًا
 وَقُلْتُ : يَحْرُسُ دَارِي إِذَا أَتَى اللَّصُّ سِرًّا
 فَكُنْتُ أَتِيهِ صَبْحًا بِاللَّحْمِ ، وَالشَّحْمِ عَصْرًا
 حَتَّى إِذَا اجْتَبَازَسْتَا مِنْ الشُّهُورِ وَأُخْرَى
 وَأَشْبَهَ الْوَعْلَ سَبَاقًا وَأَشْبَهَ الْبَغْلَ ظَهْرًا
 وَصَارَ كَالْعَلِجِ عُنْقًا وَصَارَ كَالْفِيلِ صَدْرًا
 وَافَى إِلَيَّ صَحَابِي وَأَنْتَ بِالصَّحْبِ أَدْرَى
 فَأَبْصُرُوا الْكَلْبَ عِنْدِي عَيْنَاهُ تَقْدَحُ جَمْرًا
 فَقَالَ مِنْهُمْ ظَرِيفٌ : قَتَوْتُ ، وَاللَّهِ ، مَهْرًا !
 بِجُرْمَةِ الْوَدِّ إِلَّا سَمِيتَ ذَا الْكَلْبِ « نَمْرًا »

* * *

أَطَعْتُ أَمْرَ صَدِيقِي وَقَدْ سَرَرْتُ وَسْرًا
 لَكُنْمَا الصَّفَرُ صَفَرٌ وَإِنْ دَعَوْنَاهُ تَبْرًا

* * *

تَرَعَرَعَ الْكَلْبُ « نَمْرًا » فَصَارَ أَعْظَمَ شَرًّا
 يَعْوِي إِذَا النَّاسُ نَامُوا فَيَسْمَعُ النَّاسُ نُكْرًا
 وَيَنْبِجُ الْبَدْرُ لَيْلًا وَيَنْبِجُ الشَّمْسُ ظَهْرًا
 وَكَلِمًا مَرَّ سَارٍ أَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ هَرًّا
 وَيَتَّبِعُ الضَّيْفَ حَتَّى إِذَا اسْتَقَرَّ اسْتَقَرَّا

ويَسْرِقُ الخَبْزَ جَهْرًا وَيَتْرِكُ الْعِظَمَ مَلْقَى
 مَا تَطْلُبُ الدَّارَ ذَعْرًا فَرَوْعَ النَّشْرِ حَتَّى
 مَا تَأْلَفُ الطَّيْرَ وَكَرًّا وَنَفَقَ الطَّيْرَ حَتَّى
 فَقُلْتُ : يَا قَوْمَ ، صَبِرَا فَأَقْبَلَ الْحَى يَشْكُو
 أَوْ كُنْتُ أَحْرَزَ فَخْرًا لَوْ كُنْتُ أَكْسَبُ أَجْرًا
 لَكِنَ لِلْكَلبِ عَمْرًا خَنَقْتُ بِالْحَبْلِ « نَمْرًا »

* * *

لَأَهْلِهِ مُسْتَقْرًا « مَدِينَةُ الْعِلْمِ » كَانَتْ
 بَنَى بِهَا الْجَهْلُ حَجْرًا فَخَانَهَا الدَّهْرُ حَتَّى

* * *

لَا تَمْخِرُ الْفَلَكَ بَرًّا يَا مَنْشَى الْفَلَكَ ، مَهْلًا
 شِيدَتْ فِي الْجَوْ وَقَصْرًا وَيَا كَثِيرَ الْأُمَانِي ،
 وَلَكَيْتُ وَجْهَكَ بِحَرًّا ؟ أَضَاقَتْ الْأَرْضُ حَتَّى
 وَتَقْتَضِي الشَّعْبَ أَجْرًا ؟ أَتَأْكُلُ الْمَالَ سَحْتًا
 يَا أَحْمَقَ النَّاسِ طَرًّا أَتَحْسِبُ النَّاسَ حَمَقِي ؟
 عَصَرَ الْجَهَالَةَ مَرًّا لَا تَلْبَسُ الدِّينَ ثَوْبًا
 فَاللَّهُ أَعْظَمُ مَكْرًا وَلَا تَقَاتِلْ بِمَكْرٍ

* * *

حَتَامَ تَتَبِعْ « عَمْرًا » ؟ وَأَنْتَ يَا وَاوُ « عَمْرُو »
 وَلَسْتَ تَجْلِبُ نَفْعًا وَلَسْتَ تَجْلِبُ نَفْعًا
 أَمْسَى يَنْصَارُ غَرًّا إِنْ الْبَلِيَّةُ غَرَّ
 جَنَى عَلَيْكَ الْأَمْرًا لَا تَعْذِلُ الشَّعْرَ إِمَّا
 أَقْلَ عَقْلًا وَقَدْرًا قَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْقَوَافِي

* * *

وَلَسْتَ أَطْلُبُ ثَأْرًا مَا فِي ضُلُوعِي حَقْدٌ
 أَنْ يَخْدَعَ النَّذْلَ حُرًّا لَكِنَّمَا الْحُرِّيَّاتِي
 وَكُنْتُ بِالْأَهْلِ بَرًّا وَأَهْلُ « لُبْنَانِ » أَهْلِي

أيا عجل اليهود

توعدني مقلد « نفطويه »
ويعلم أنه دوني مقاماً
ولو أغنى ولاح له خيال
معاذ الله يخلق غير شيء
ويكذب « آدم » إما ادعاه
أبعد اليوم أعجب من عجيب
أظن حياته هانت عليه
وإما الله شاء هلاك نفس
شحا فاه فلما مر ذكرى
وكنت نسيت أهل اللؤم حتى
وإما فكرت بالغوغاء حتى
إذا عدّ الأفاضل كان صفراً
فواعجبا ، أمات الخلق حتى
وياهف البلاغة كيف ذلت
وياهف الصحافة يدعيها
متى فارقت ، يا هذا ، المراعى ؟
أنتهق ، والغضنفر قيد باع
فما زالت مواضعه حداداً
بلى ، أنت الذى بالأمس شدّت
فلست بنايغ الشعراء إن لم

كما تتوعد الأنثى الرجال
ولكن ينبح الكلب الهللاً
لظن الموت باغته خيالا
فمن هذا الذى خلق المحالا ؟
فإن الناس لا تلد البغالا
ومقلوب اسمه ينبغي النضالا ؟
وإلا لانتى السداء العضالا
على ظمأ ، أراها الماء آلا
بطرف لهاته أمسى سعالا
نظرت اليوم الأهمهم خصالا
سمعت اليوم أسخفهم مقالا
وصفراً يلزم الجنب الشمالا
يمارس حرفة الأدب الكسالى ؟
ولطف الشعر كيف غدا مذالا
حمار طالما لبس الجلالا
وكيف قطعت ، يا هذا ، الحبالا ؟
وتحسبه وما عاف القتالا ؟
وما برحت مخالبه طوالا
عليك يداى فى السّفَرِ الرحالا
أرُدّ عليك جُلسك والسّحالا

وجاوزت المناكب والقلالا
 ينالك كيف ملت وكيف مالا
 فليست بسائر عنه القذالا
 فقد كنت الحقير ولن تزالا
 وإلا كنت أحسن منك حالا
 فليس يقيكها قربان طالا
 وتزعم أنه لزم الدحالا؟
 لقد أضحكك ، يا هذا ، الثكالا
 يكن هذا المآل له مالا
 فلم أرحم ، ولا رحم السخبالا
 ولا أرضى رؤسهم نعالا
 وإن الحق يفترس الضلالا
 فليس يكون في شيء حلالا
 فقد خان الفضيلة والكمالا
 وتنسفهم ولو صاروا جبالا
 وتقرعهم أو أخبرها نصبالا
 وتمشي في دمانهم سلالا
 توقاه الأجنة والحبالا

أما ، والله ، لو طلت « الثريا »
 لما أمسيت إلا دون شسعي
 فإما تستر الفودين عنه
 ودعوى الفضل لا تجدك شيئا
 أيا عجل « اليهود » ، ولست تبرأ
 إذا هز العصا « موسى » وأهوى
 أتهرب من أمام الليث ذعرًا
 وتجن ثم تدعوه جبانًا ؟
 ومن تكن الحماقة فيه طبعًا
 يدافعي « اللثيم » بكل غر
 زعانف لست أرضاها مطايا
 لقد فرست نفوسهم القسوافي
 إذا حرم الهجاء على حرام
 ومن يدرى ويغضى عن فساد
 لتذروهم عواصفها رمالا
 وترميهم أوائلها سهامًا
 وتمشي في حناجرهم جراحًا
 فإن سلموا فقد سلموا ليوم

١٣

يا نوح

أين دلائل الطوفان ؟

أهل الفساد وزمرة الشيطان
 خلوا النواح على الربوع وأهلها
 أنى يضيع ، وأهله أسد الشرى
 وإذا الضراغم لم تصن أجماتها
 أما « البقاع » فلا يردُّ بالسن
 ردوا على الشعب المهاجر ماله
 فالقوم حاجتهم إلى أموالهم
 تعس الذى رضى الأماني ثروة

كم تدعون محبة الأوطان
 ما ثم من خطر على « لبنان »
 وله من الدولات خير ضمان
 أيصونها فسّل من الجعلان ؟
 ثرارة ، بل بالنجيع القاني
 لا تبدلوه حقائقها بأماني
 مثل احتياجهم إلى العرفان
 إن الأماني ثروة الكسلان

* * *

قلتم : ندود الضيم عن إخواننا
 يحسيهم علم النجوم ولم يزل
 هم بين أهليه وفي أكنافهم
 وزعتم بالنازحين غرامكم
 لو صح زعمكم وكنتم قوة
 جاروا عليهم ، لم يبالوا زاجراً
 لهنّ عليهم ، كيف روع سربهم
 ولقد أتكم صرخة استنجاكم
 باتوا يسامون العذاب ، وبتم

إخوانكم فى غبطة وأمان
 علم الكواكب مكرم الضيفان
 وكأنهم فى الأهل والإخوان
 وغرامكم بالأصفر الزمان
 لو قيتهم سطوة « العبدان »
 جور القوى على الضعيف العاني
 وتبدلوا من عزهم بهران
 فكأنها مرت على حيطان
 تدعون بالإعزاز للسلطان

ما أجهل الوسنان باليقظان
أنقاتلون الحق بالبهتبان ؟
إن الجريح يسب كل سنبان
يعتاق أقواها عن الطيران
وتظل حائمة على النيران
وخلقتم للهذر والهذيان
ولقد أتاك كاسر العقبان ؟

نعم فخلتم كل طرف نائماً
رفع الستار ، وبان كل مكتم
لا غرو إما سبني سفهاؤكم
ذم الخفافيش الضياء لأنه
ومن العجائب أنها تقلى السنى
خلق الورى ، ولكل نفس غاية
أنى نجاتك ، يا عصافير اللوى

* * *

يا نوح ، أين دلائل الطوفان ؟
بل كيف تحميها من القرصان ؟
— وإن ارتقت — فرع من السعدان
تحوى الكهول سخافة الصبيان
وتظل عيناه على الهميان
ما كان إلا سائق الأظعان
متقلداً من موضع لمكان ؟
للذعر يمشى مشية السهرطان
فكأنه في حالك الأدجان
وفى القصائد طارق الحدثان
خوف الصغير طوائف الغيلان
وتخالها الأجفان في الأجفان
من « عنزة » قد ضاع قبل اثنان
فتداركوه بالرسول الثانى

قل للذى ملأ اليباب سفائناً :
من ذا يسير بها إلى غاياتها ؟
الآن أيقنت البرية أنها
لا تعذل الصبيان فى سخف ، فقد
يضع المسلم كفه فى كفه
والله ، لولا أنه فى مثله
أو ما تراه حاملاً كشكوله
خبخته شاردة القوافى فأنشى
متخبط والشمس فى كبد السما
أمسى يسمى النائبات قصائد
فإذا تطيف به اقشعر فؤاده
ويظنها فى أكله وشرابه
يا قوم ، أخشى أن يضيع رسولكم
إن كان فى أكبادكم من رحمة

* * *

يهذى ، كمن قد بات فى سجران
عندى لكل منكما نعلان
والحسن لا يخشى من الإعلان

ما بال مصفوع المفاقر والقفا
لا تحسدا ، يا ألدعيه ، قذاله
بل ما المقلوب اسمه يخفى اسمه

لم يَبْدُ من خدريهما القميران
 لم تلق إلا خائفًا أوجاني
 ألا يسار به إلى الميدان
 وسط مواضيها على الآذان
 متنيه ، راب الفارس الكشحان
 حتى علا صوت كصوت الجان
 ورمى بجثته إلى الغربان
 فالعير لا يخفيه جلد حصان
 آثار شعى فيه كالعنوان
 لعن القريض مؤنف الأوزان
 حتى تنال الفرقدن يدان

إن التحجب لو يكون فضيلة
 وإذا هتكت السر عن متكم
 زعم المؤدب أن غيراً ساءه
 فمضى فقصرت القواطع ذيله
 حتى إذا جاء المروض واعتلى
 لكنه مازال غير مصدق
 فاستل صارمه فطاح برأسه
 مادام يصحب كل حى صوته
 إن تستر هيهات تستر مفرقاً
 يا أيها الغر الذى من أجله
 ما أنت بالغ ما وطأت بأخمصى

توديع رستم بك

زلت عنا ، فلم نبلى ، مثلما ذا
 ما كرهت المقام فينا ، ولكن
 كنت ضيفاً فلم يزل بك سوء الـ
 خلق السوء فى الفتى ليس يخـ
 وإذا المرء كان غير كريم
 لقتلك « الإسلام » عصبه شر
 جئت تنفى الإجرام عنهم ، فأجره
 كيف أنكرت ذبحهم أمة « الأر
 ودم الأبرياء ما جف ، ولا جف
 سلبوا الطفل أمه وأباه
 أحرقوا الدور ، روعوا ساكنيها
 جرّعوهم كأس الحمام دهاقاً
 ما أثاروا حرباً ، ولا ارتكبوا إداً
 ولئن صح أنهم أحدثوا إذ
 زلة لو وقيتها ، لم تحقر
 فتحمل ، لا شيعتك الغواذى
 هكذا يقذف النواة فم الآ
 وإذا ما بلغت أرض « فروق »
 حيث يقضى الحياة فيها « ضياء »
 حيث يشقى الحر الأبى ، ولا ينعم

ل مع الليل طارق الأحلام
 يأنف الذئب غير سكنى الموامى
 طلع حتى خسرت عطف الكرام
 فيه جمال الرداء والهندام
 فضحته مظاهر الإكرام
 ليتها لقتك علم الكلام
 ت إلى الصديق أيما إجرام
 من « ، ذبح الجزار بعض السوام
 ت عليهم مدافع الأيتام ؟
 ورموه فى النار ذات الضرام
 وأتوا كل منكرو حرام
 واستساغوا دماءهم كالمدام
 ولم يسطوا يداً لحسام
 ما أتنى الآثام بالآثام ؟
 من كبار النفوس والأحلام
 لا ، ولا عدت نحونا بسلام
 كل ، والجيفة الخضم الطامى
 مرتع الظلم ، مربع الظلام
 بين عود وقينة وغلّام
 إلا زعانف الأقوام

قُلْ لِمَن أَرْقُوا الْعِبَادَ وَنَامُوا :
 نحن لا نمنقت الحكومة ، لكن
 إن دين « الإسلام » يبرأ منكم
 قد سلبتم مال الرعايا وكدتم
 كشف الخبر عنكم ، فإذا أذ

إننا ساهرون غير نيام
 نمنقت المستبد بالأحكام
 أيها العاشقون بـ « الإسلام »
 تسلبون العيون طيف المنام
 تم لصوص في صورة الحكم

إلى شاعر « السائح »

بالقد الأهيف ، بالنهد	بالنغر الأشنب ، بالخد
بالمفرق ، بالشعر الجعد	بعمون الحور السحاره
ما شدو القينة في السحر	وهتاف الطير على الشجر
في الفجر ، ورنات الوتر	أحلى من صوت النقاره
ذو البلوى يعشق ذا البلوى	فانشد فغناؤك لى سلوى
لو يعطى الشاعر ما يهوى	لتمنى تنشد أشعاره
أفديك بروحى ، يا صاح ،	وبكل هزار صداح
فلأنت حياة الأرواح	فاشدد للمزهر أوتاره
ضع كفك ، يا ذا ، فى كفى	فكللنا يبيح عن إلف
حلو الأخلاق ، أخى لطف	ما بدّل شىء أطواره
كم تشكو همك للناس	وبلاؤك منهم ، يا ناس
كن قاسى القلب على القاسى	فالحازم يخنى أسراه
صن دمعك عنهم فى الطرف	لا تُغزى القوة بالضعف
ما ترجو ، يارب الدف ،	من شعب يكره أحراره ؟

قد شئت وشئت به اليسرا	وأراد الله به العسرا
فعليه أن ينجى الوزرا	وعلينا أن ننجى عاره
يا ملكا بين شياطين	صرح بالحق المكنون
لا ترهب لومة مافون	ثرثار يخدم ثثراره
قد آن بأن يبدو النور	وبيين الحق المستور
فليخرس ذاك المأجور	من قبل نمزق أستاره
ما شاء الله فقد كانا	لا تبغى الملة شيطانا
الملة تطلب مطرانا	لا يؤذى الجار ولا الجاره
مطرانا تعرفه الأمامه	مطرانا يخلص في الخدمه
مطرانا لم يحصر همه	في جمع الدرهم والباره
مطرانا تغمض عيناه	إلا عن خدمه مولاه
يعصى الضليل وديناه	ويحب العلم وأنصاره
يا شعبا بات بلا أمل	إن ضاق عليك الأمر سئل
كم ذئب في ثوب الحمل	قد سنن لقتلك أظفاره
فارغب بالصبر عن الياس	واحذر نزعات الخناس
وساوس أهل الوسواس	فوراء الطعم الصناره

انقر يا دف على الطارة

بالحق ، بأحرار البلد ما دام يراعى طوع يدى
وفؤادى يخفق فى جسدى لا أنصر إلا أنصاره

يا قومى ، قد طفح الكيل وتعالى للقسم السيل
وتنكر للصبح الليل واستأسد جملان الحاره

فدعوا «أيار» وأطيّاره والخمر ورب الخماره
ولينفخ كل مزماره لنشن على الجهل الغاره

ونقاتل بالصبح الغسقا ونسد على الشر الطرقا
ونضايقه كى يختنقا وتفك يده أزراره

ما أثقل ذبّاك الضيفا أرايتم «كانونا» صيفا ؟
لا حل على طرفى طيفا أخشى أن يسلب أشفاره

إن مرّ على حسن شانه أو طود زعزع أركانه
أو قصر روع سكانه أو روض أذبل أزهاره

لو تدرى الأرض به انقلبت أو تدرى الشمس به احتجبت
ومياه «الهدسن» لا اضطربت والليل لساقط أقماره

تمساح يخطر في حُلَّةٍ
ظِلُّ الطاعون ولا ظله
شر القلب من العنه
لا جاور إلا سمساره

يا هذا ، أولى بك السفر
أو فاسكت بحمدك البشر
في ليل ليس به قمر
وتصالح جارتها الجاره

صمتاً ، أو ينطق من سكنا
كفاه ومرقمه انصلتنا
فَوَحَقَّ الشعر إذا رمتا
هيهات يفيدك ثرثاره

يا حامل مكروب الفن
لا تُلْقِ الأمة في المِحَن
قد طال وقوفك في الدمن
يكفيك الشاعر إنذاره

وقائلة

أيا « عبد المسيح » عليك منى
 حبيتك لا لأنك ربٌّ وفيرٌ
 ولا أنسا من يسير به هواه
 ولكن شاقى الأدب المصطفى
 وإنك والوفاء على اتصال
 ومن عجب ، ولم أصحبك عمرى
 لك القلم الذى ما اهتز إلا
 لئن أمسيت من قوم بغيضاً
 وإن الشمس ، وهى أحب شئ
 وهذا الملح يدخل كل جوف
 وكم فى الناس من مثر كبير
 وقائلة : أعاد غراب نوح ؟
 غراب ريشه سرق وخز
 ينوح على الصروح وساكنيها
 ولكن فى الغراب النوح طبع
 قبيح أن يذم الحسن فينا
 وأقبح أن يظل اليوم حياً
 دخيل لو حواه الخلد أمسى
 أقى ، لم يدعه أحد إلينا
 قد اشتاق الذين نزحت عنهم

سلام كلما ذُكرَ المسيح
 تجود به ، ولا أنا مستمخ
 ويخفق كلما هزته ريح
 وتيمّنى بك الصديق الصريح
 وبينك والرياء مدى فسيح
 أحسُّ كأننا جسد وروح
 تهب سطوه القصب الصفيح
 فمكروه من الجربى الصحيح
 يذم ضياءها الجفن القريح
 ويخشى مسه العضو الجريح
 ولكن ليس كالسمح الشحيح
 نعم ، عاد الغراب ، فأين نوح ؟
 وصوت النساعات به فحيح
 وما ماتوا ، ولا خلّت الصروح
 وأى غراب سوء لا ينوح ؟
 قبيح كل ما فيه قبيح
 ويحوّى البلبل الغرد الصريح
 جحيماً ليس فيه مستريح
 أيا هذا الثقيل ، متى تروح ؟
 ومَلّ مقامك القوم التزوح

أَهْمُ بَأْنِ أَحَدَثَ عَنْهُ قَوْمِي
فَأَقْنَعُ بِالْأَشَائِرِ ، وَهِيَ نَزَرُ
وَأِنْ وَرَاءَهَا وَوَرَاءَ صِمْتِي
وَصِيحَاتُ تَزْعَزَعُ كُلَّ طُودٍ
وَيَمْسِكُنِي الْإِبَاءُ فَلَا أَبُوحُ
لَأَنَّ الْقَوْمَ أَكْثَرَهُمْ فَصِيحُ
سَهَامًا لَا تُسْمِتُ وَلَا تُرْبِحُ
وَتُنْكِرُ بَعْدَهَا الضَّيْفَ الْمَسُوحُ

يا قوى !

إن المعتز بأمواله	مثل المعتز بأخواله
فخر الإنسان بأعماله	لا بالدينار ولا بالبره
ما هذى القصة، يا عُمَد؟	أرجال يرأسهم وَلَد؟
لم ينظر قبلكم أحد	أسداً تتصيدها فاره
وجبالا تسحبها نمله	وبجاراً تُخزن في سَلَه
مثلاً أصبحتم في الحِلَّة	يتناقله أهل الحاره
أيهاجم كاهنكم نذل؟	ويسب أديبكم فسل؟
أجمود فيكم أم جهل؟	أم تلك النفس الأماره؟
يا قوى ، دعوة لا واهى	يوم الهيجاء ولا لاه
بالخالق ، بل بابن الله	لا تؤذوا الله وأنصاره
تب الشيطان وتُبَاعه	والشر ونفس تباعه
شجر ملعون زُرَّاعه	من منكم يعشق أثماره
بل غرس يأكل غارسه	ولباس يحرق قابسه
ولهيب يحرق قابسه	ومزار يهتك زواره
إن تغسل بالوحد الثوبا	يزدد إثمًا ، تزدد عيبا
إن تخضب بالليل الشيبا	لا تخفى الليل أقماره

من يطلب من غر نصرا
من يحضن ، يا قوى ، الهرا
كالطقي* بالزيت الجعرا
لا يجنى إلا أقداره

يا قوى ، خلوا الأغراضا
وتَوَقَّوا ذاك العضاضا
يا قوى ، صونوا الأعراضا
من قبل يحملكم عاره

أو ما فيكم ذو إحساس
أنسيتم عام الإفلاس ؟
ينهيه عن شتم الناس ؟
فنقص عليكم أخباره

ونقيم الميت من لحده
إن عاد البحر إلى مده
ونسل الصارم من غمده
لا يمسك شيء تباره

ونسيَّرها صحفًا صحفا
إن نرَّم الطود بها رجفا
تحكى المدرار إذا وكفا
أو حصنا دكت أسواره

فتزور المنزل والقصرا
ويطالعها سطرًا سطرًا
وترود الأهل والقفرا
من ليس يطالع أسطاره

ويردها أهل الأدب
وتدار بها بنت العنب
ويغنيها أهل الطرب
ويحيى الجار بها جاره

عندي أسرار لم تنشر
كحديث الفسطان الأحمر!!
لتمنى صاحبكم يقبر
فليحذر ذاك اللؤاره

ما دامت دارك من خشب
إن هجت الليث بلا سبب
لا تقذف غيرك باللهب
لم يأمن جسمك أظفاره

يا هذا !

خذها أبياتًا مشهوره كصراخ النفس المقهوره
ودموع " البكر المذعوره قد حَمَلَهَا الجاني عاره

يا هذا الضارب في الأرض في غير مفيد أو فرض
كم يغضى الشعب ولا تغضى إلا لتحارب أحراره

أُيْفِرَقُ مال الإحسان ما بين فلان وفلان ؟
من قدّم ميت الوجدان أو غيرَ مجهل مقداره

أو أحق من ذى الخُفَيْن شرير المِقْوَل والعين
لا يعرف إلا شخصين دلائل الشر وسمساره

إن تُقْبِلْ هز شواربه أو تُدْبِرْ هز حواجه
وأدار عليك عقاربه وأهان الله ومختاره

أدِماءُ قلوب العمال ما بين نساء ورجال
تُعْطَى لِغَيْبِيُّ بطل ما فارق باب الحمامه ؟

عجب ، بل أعجب من عجب أن يحمل شيخ عقل صبي
وجھول يفخر بالذهب فخر الأعمى بالنظاره

ما هذا شأن الزُّهَّاد	ما هذا شأن العَبَّاد
أضحكتَ الرائح والغادى	والجار وأبناء الجاره
لله ، فؤادك ما أقسى	ننساك وتأبى أن ننسى
أردد للأرملة الفلسا	واترك للعامل ديناره
فالشعب أحق بأمواله	من ذاك القفر ومن آله
ومن السلطان وعمَّاله	وذئاب « الترك » الغداره
أولى بالمال المجموع	عندى من ذاك « المشروع »
شعب فى الشرق ، من الجوع	قد أوشك يأكل أطماره
يا قوى ، أرواح البشر	أولى بالعطف من الحجر
فسلوا الطواف ، أنا السفر	أن يرفع عنكم أوزاره
يكفيكم بذل الآلاف	يكفيكم حمل الأضياف
من كل بغيض أو جاف	لا يعرف محتاج داره
ذاك المعدوم إذا وجدا	لا يحبى الشعب إذا فقدنا
أنبيع الوالد والولدا	كى نحى القفر وأشجاره ؟

ماذا تقول ؟

« كأنما هو في حَلٍّ ومُرْتَحَلٍ
تخاله في فجاج الأرض مضطربا
كأنه الزئبق الرجراج منفلت
فما يمر بشخص لا يسأله
ولا يحرك غيرُ المالِ مِقْوَلَه
لا يسأل الناس عذراً عن حاجته
ليس البلاء بما يخفى أضالعه
لو يقنص البدر أمسى في حباله
إني لأعبط شخصاً ليس يعرفه
مَوْكَلٌ بفضاء الله يَزْرَعُهُ
في قبضة الريح تلويه وتدفعه
أو مَهْسِيعُ الزئبق الرجراج مهيعه
ولا يمر بباب ليس يقرعه
ولا يحرك إلا الشرَّ إصبعه
كأن أربُعَ هذا الخلق أربعه
لكنه في الذي تخفيه أضالعه
لكن حماه من العافى تَرْفَعُهُ
ولا أُهْنَى إلا من يُوَدِّعُهُ

* * *

يا جامع المال آلافاً مُؤَكِّفَةً
هل أنت طابخه يوماً فأكله ؟
أردد على العامل المسكين فضته
لا ينفع المرء ما جادت به يده
أليس في الأرض غير القفر تعشقه ؟
أما ترى الشيخ كاد الحزن يقتله ؟
حتام تمسك شيئاً لست صاحبه
أولى بما بذل الجالون أهلهم
ما البر أن تبني داراً بداحية
وإنما هو إطعام لذي سغب
لمن—ولا وارث للمال— تجمعه ؟
أم أنت جاعله في الماء تجرعه ؟
فقد أقصَّ على المسكين مضجعه
حتى يكون محتاج تبرعه
وغير صوت القطا في القفر تسمعه ؟
أما ترى الطفل كاد الجوع يصصره ؟
وصاحب الشيء ما ينفك يتبعه ؟
فكم ترضن بما جادوا وتمنعه
لا يبصر المرء فيها من يشيعه
الماء حلوا على العطشان موقعه

فَجَدُّ عَلَيْهِ بِمَا جَدْنَا عَلَيْكَ بِهِ
لَا تَجْعَلِ الْمَالَ فَوْقَ الدِّينِ مَرْتَبَةً
أَوْدَعْتَ مَا أَوْدَعَ الْمَمْلُوكُ فِي يَدِهِ
دَعِ التَّصْنِيعَ فِيمَا أَنْتَ قَائِلُهُ
إِنْ كَانَ غَرُّكَ ثَوْبٌ أَنْتَ لَا بَسَّهُ
لَا تَنْصُرِ الْبَغِيَّ إِنْ اللَّهُ يَكْرَهُهُ
مَاذَا تَقُولُ إِذَا جِثَّتِ الْإِلَهِ غَدًا
يَجْزِيكَ خَيْرًا أَوْ يَرْضَى عَنْكَ مُبْدِعُهُ
لِلْمَالِ مَوْضِعُهُ وَالِدِينِ مَوْضِعُهُ
فَكُنْ أَمِينًا عَلَى مَا أَنْتَ مُوَدَّعُهُ
فَرَبَّمَا فَضَحَ الْجَانِي تَصْنِيعَهُ
فَانْظُرْ إِلَيْكَ مَلِيًّا حِينَ تَخْلَعُهُ
جَهَنَّمَ مَرْتَعٌ الْبَاغِي وَمُضْجَعُهُ
وَحَبِيرَ النَّاسِ عَمَّا كُنْتَ تَصْنَعُهُ ؟

إلى شكري أبي صالح

فلك الثناء من البصيرة والبصر
وعلى الأحبة في الإقامة والسفر
نار «الخليل» ، فإن في قلبي سقر
إلا ذكرنكم ، ومثلي من ذكر
عند الدجى عنى وعن وجدى خبر
وسلوا الغمام والنسائم والشجر
فأنا الذى علمتها تلك السور
وأحب أربعم ومن فيها استقر
عنكم ولكن عاقنى صرف القدر
ورضيت بعد العين منكم بالأثر
صبراً فإن الله يجرى من صبر
فاعذر أخاك فإن مثلك من عذر

وردت نيمقتك الجميلة والصور
وعليك منى ألف ألف تحية
إن تحملوا من شوقكم وحنينكم
« ما لاح برق أو ترغم طائر »
فسلو الدجى عنى إذا رق الدجى
وسلوا السماء وما بها من أنجم
وسلوا الحمام حين تشدو فى الضحى
أشتاقكم ، وأحب من يشاقكم
تالله لم يشغل فؤادى شاغل
لولا الحوادث ما قعلت عن اللقا
شكرى ! وقد عبث بنا أيدى النوى
يغنبك صوت العود عن جس الوتر

* * *

عنى إليك فإن قلبي من حجر
بوصالها والشيب قد وخط الشعر
وبما مضى عظة وفى الآتى عبر
من عادة تحكى بطلعتها القمر
ب إذا اثنى مثل الصباح إذا سفر
من صنعة الرحمن لا صنع البشر
تنسبك هاتيك الحماثل والنهر

كم تستثير بى الصباة والهوى
مالى وللحساء أغرى مهجتى
فى الشيب متعظ وفيه مزدجر
كم بـ « الجزيرة » لو يتاح لى الهوى
مثل الغزال إذا رنا مثل القضي
وبـ « سنسنانى » من مسارح للمهى
ولكم بها من جدول وحديقة

فيها اللواتي إن رمت ألحاظها
قد كان لي في كل خلود مطمع
أيام شعري كالسجى محلولك
شلت يد الراي ، وقطعت الوتر
ولكل رائعة المحاسن بي وطر
أيام عيشي لا يخالطه كدر

* * *

ذرتي وأشجاني وجسمي والضمي
أبيت ألهو والهجوم تحيط بي ؟
صوت المصفق موعد ما بيننا
أقسمت بالله العظيم ثلاثة
من كل أحق بيننا متجول
لا أنثى ، لا أنثى ، لا أنثى ،
ويدي وأقلامي وطرقي والسهر
وأنام عن قوي وقوي في خطر ؟
ماذا أقول لهم إذا الديك استحر ؟
لتمزقن يدي كشاكيل النور
إن غاب غاب الهم أو يحضر حضر
حتى يفوز العاملون على البقر

...و

من كل من همه أن يخلق الكذبا
إلا الإله ويمسى يعبد الذهبا
ولا يوجد بدينار لمن نكبا
كما يتيه على المغلوب من غلبا
ومكثر البذل يقضى بعض ما وجبا !
كأنه يهب الإنسان ما وهبا
ضيداً أن ما اتفقا يوماً ولا اصطحبا
فارغب عن الدين واطرح ذلك اللقبا
من يكسب الذم في مال فما كسبا
إني لأشفق أن تغدو لها حطبا

وزاهد همه في المدح يسمعه
يُعلِّمُ الناس ألا يعبدوا أحداً
وأن يجودوا بما تحوى خزائهم
ضيف يتيه على المُشرى وصاحبه
ذنب المقل لديه غير مغتفر
كأنه دائن طال المطال به
يا ذا المزمل إن لدين والنشبا
إن كنت من يتغنى الدنيا ويطلبها
احفظ لنفسك بين الناس حرمتها
لا تنفخ النار ، لا تدفع سواك لها

* * *

كالغيث يسقون حتى الموضع الحربا
ما عاد إن وفي فكَيْه ما طلبا
كما يسمى الخُمَارا المحتسى «طربا»
وأوجد اللهو للكسلان واللعبا

ما إن رأيت كقوى في سماحتهم
لو كان للذئب أن يغشى منازلهم
ضعف يسميه من يُمنى به «كرماء»
هذا الذى أوجد الكسلان بينهم

* * *

شر البليات غرّ يدعى الأدبا
وإن رأى «الخَفَضُ» في أحواله نَصَبَا
مما يَبْغُضُ فيه «العجم» و«العرب»
«يهودا» بالذى من أجلنا صلبا

وجاهل يدعى علماً ومعرفة
إذا يساق إليه «العُرف» نَكَرَهُ
من «الأعارب» إلا أن منطقـه
أسمى يشبه من يحكى سيرته

لو كان يعرف رأى العارفين به لراح ينكر ما أُملى وما كتب

* * *

وسافل في حضيض الأرض ملتصق بحوك من أعظم الموق له نسا
في كل يوم له دين يُدِلُّ به ساء المتاجر بالأديان مُنْقَلَبًا

* * *

وأبله سائر مع كل ذى أرب سير الذلول ولا تدرى له أربا
لم يضحك الناس لو أُمسى له ذنب لذلك لم يخلق المولى له ذنبا

* * *

قد أكثر الدهر في عيني عجائبه حتى غدا عجبًا ألا أرى عجا
من عاشر الناس لم يأمن دسائسهم فاختر لنفسك من غير الورى صجبا

ما كان أحوجنى

ما كان أحوجنى يوماً إلى لقب
 وطيلسان به نقش وزركشة
 إذن لصدقى من لا يصدقنى
 وودَّ من كنت قبل اليوم خادمه
 فإن مشيت رأيت الغيد شاخصة
 وإن تكلمت قالوا : ليس ذا بشراً
 فهان عندهم بذل النفائس لى
 وأبدوا كل مشروع يؤيدنى
 وبات لثم يذى فى عريف بعضهم
 يحنو فيملؤها تمراً ، وظاهرها
 وقد يكون كلامى بالياً خلقاً
 لو كان ذلك لى ، أو كنت صاحبه

يقاتل الشك غنى فى ذوى الحسد
 وصولجان كرمح الفارس الشكس
 ولو جعلت الضحى جزءاً من الغلس
 لو أنه خادى ، أو أنه فرسى
 ومن هنا وهناك الناس كالحرس
 وإنما هو وحي الروح ذى القدس
 إن كان فى بنها إدراك ملتضى
 فيهم ، وإن كان مشروعاً بلا أسس
 أشقى له من دواء العالم النطس
 لثماً ، كتقيل ذى وجد لذى لعس
 لا روح فيه ، وكفى كف مختلس
 ما احتجت يوماً إلى سيف ولا ترس

تنصير نور عبد المجيد حداد

طرباً ، فأنت اليوم أشرف موضع
 « هبطت إليك من المحل الأرفع »
 فإذا نأى عنها إليه تنزع
 حتى نظرت إليه غير مُقَنَّع
 عرفت مكانته ولم تتبرقع
 لولاك لم أكُ بالأديب المبدع
 أن بات حظ الطرف حظ المسمع
 ونسيت أنك ساكن في أضلعى
 أشكو إليه الحب غير تصنع
 الله يعلم ما لقيت ومخدعى
 وأنا لما بي ساهر لم أهجع
 عندي وأحبس في جفوني أدمعى
 قالت لأكباد العداة : تقطعى
 تغنى الأنوف عن الشذى المتضوع
 شدوى وتغريدى بكم سبغت ممي
 حتى أجاب توسلى وتضرعى
 وشهدت آساد « الشرى » في مجمع
 فسمعتهم وكأننى لم أسمع
 خير الحيين الذى لا يدعى

« نيويورك » ، تيهى عزة وتهللى
 إن الفضيلة والسماحة والتقى
 قمر منازل شفاف قلوبنا
 لم أدر أن الشمس تشرق في الدجى
 عجباً من الشهب الثواقب إنها
 يا سيدى والناس تعلم أننى
 ما زال بحسد ناظرى سمعى إلى
 ولكم شكوت من الفراق وجوره
 ولكم جلست إلى خيالك مرة
 فى مخدعى وحدى بغير مؤانس
 هجعت عيون لم تذوق طعم الهوى
 فالיום أغفر للزمان ذنوبه
 ذى ليلة لو تستطيع تكلمما
 فخرأ بنى « الحداد » ، إن صفاتكم
 تالله لو سمعت حمامات « اللوى »
 ما زلت أرجو الدهر يجمع بيننا
 فرأيت أقمار العلا فوق الثرى
 كم لتفق الحساد عندي عنكم
 لا أدعى كالغير أنى مخلص

النكبة في سوريا

لله ما أحلى ، وما أجمل	أن تنصر المسكين ذات الحلى
إن التي تقتل أجفانها	أبت على البائس أن يُقْتَلَا
فأقبلت تبذل أمواليها	وتسأل المثرى أن يبذلا
في الله مسعاها وإحسانها	فهكذا الغيد وإلا فلا

انقر يادف على الطارة

قد عاد النقر على الطاره	والشاعر حرك أوتاره
ليعين الحق وأنصاره	ما أحلى الحق وأنصاره !
يا سيدنا رب التاج	الآخذ مال المحتاج
لا تلعب بين الأمواج	وتوقّ البحر وتيابه
أو ليست نفس المسكين	أولى بالمال من العين ؟
أو ليست قاعدة الدين	أن يعطى ذو النعمى جاره ؟
إن كنت حقيقاً تُرْكِيّاً	فبربك صرح رسمياً
أذع المكتوم المخفياً	وأزح عن وجهك أستاره
لو يلقى صخر ما تلقى	من وخز يراع لانشقا
لا تغضب إن قلنا الحقاً	وذمنا الجهل وأضراره
إن كانت وخزات الداعي	لم تُدْمِرْ جلدَ الطماع
فتنكبّ ، يا هذا الراعى ،	نار الحداد ومسماره

توديع أمين الرياحاني

كم ذا، يلوم على الهوى المتشلق
ولم متى يُلحَى الحب على الهوى
يا صاحبي ! هو ذا الغرام ، مريضه
لى مهجة تأبى الرضوخ لآمر
ضحك الألىّ جهلوا الغرام وبطشه
ماذا على اللاحين ؟ لا أجفانهم
ما شارك العشاق فى آلامهم
يهوى أخو البلوى أخا البلوى ، كما
إن عَنَفَ الخالى الشَّجَى فربما
فَطِرَ الأنام على الأذى ، فقومهم
أخذت نحاظهم عليهم مؤثِّقاً
ألفوا الرياء ، فلا يسوء نفوسهم
كم لفقوا أكذوبة ، واسترسلوا
لو أنهم نظروا لغير معاشهم
والدهر أهلوه ، لذلك دهرونا
لكن على رغم الغوى وخبطه
والحق منتصر على أعدائه

غير الغرام يجوز فيه المنطقُ
وأحق باللوم الذى لا يعشق ؟
لا يُرتجى ، وأسيره لا يُعْتَقُ
رضخت له ، وهو المليك المطلق
لما رأوى فى دموعى أغرق
شكرى ، ولا أحشاؤهم تنزق
إلا عليم بالهوى أو شَيْتَقُ
يهوى الوريق من الغصون المورق
لام الذكى على الذكاء الأحمق
متصلّف ، وضعيفهم متملّق
ألا يدوم لهم ليوم مؤثِّق
مثل امرئ حُرّ يقول فيصدق
فى الغى حتى صدقوا ما لفقوا
وجدوا أضر الخلق من يتخلّق
غير الأديب الحرفيه مؤثِّق
سيدوم فى هذى الحياة الأليق
ولو أنهم خَلَفَ الكواكب خندقوا

* * *

لا أرمق الدنيا بمقلة ناقد
دنيا يحار المرء فى أطوارها
إلا ودَدْتُ بأبنى لا أرمق
ويضيع فى أسرارها المتعمق

هذا مجال مثل صدرى ضيق
هذى نفوس ذوى الهوى تترق
لو لم تكن من مهمجى تتدفق
أخشى تذكرنى الحبيب فأشرق
لا تعجبوا ، هذا عدوى الأزرق

فى الصدر همٌّ لا أحاول بثه
لا تحسبوا هذا المشعشع خمرة
لم تكتسب لَوْنَ العقيق كَوُوسُهَا
فإذا انصرفتُ عن الرحيق فإننى
وإذا بكيت من الفراق ووقعه

* * *

فَرَقَّتْ وَكنت أظنها لا تَفَرِّقُ
أمن السرور أم الكآبة يخفق ؟
كالنيرات وجوههم تتألق
وذوى المروءة والوفاء أَصَفَّقُ
ضغط الأسى نفسى فكادت تزهق
رجل يباهى الغرب فيه المشرق
لا يزدهى عجباً ولا يتفهيق
ولكم يدل على النفوس المنطق
حتى لكاد بنفسه يتصدق
هو كوكب أنواره لا تَمَحَقُ
لما رآه غباره لا يُلْحَقُ
والعودُ يظهر طيبه إذ يُحَرِّقُ
ولأنت أعرف بالأمور وأصدق
مثل الذى بـيراعه يسترزق
فالصفح أجدر بالكريم وأخلق
كاد الطغام له ففاز وأخفقوا

ما بال نفسى عندما أزِفَ النوى
بل ما لقلبي خافقاً فى أضلعي
إنى أرى حول « الأمين » صحابة
فأكاد من فرجى بأنصار الحجبى
فإذا ذكَّرتُ غَدَاً وقرب مجيئه
فى ذمة الله الكريم وحفظه
هذا الذى إن قيل ذا رجل النهى
دل العيونَ عليه صدقُ مقالـه
ما زال يَسْتَنْدِي الأَكْثَفَ لذى الطوى
هو زهرة يحجى النفوسَ أريجها
شتم المقصر عنه كل مُبِرَّرْ
لم يدُرْ أن البدر يعرف فى الدجى
يا صاحـبى ، وأخوالـهلاء مُحَسَّدْ
ما من يكرس للبلاد يراعه
سامح عداتك واغتفر زلاتهم
ما أنت أول عبقرى نابـغ

* * *

ما دام هذا الدهر لا يترفق
وبيتته فودادنا لا يخلق
فاعلم بأن دموعنا تتدفق

يا قاصد البلد البعيد ، تَرَفَّقْ
إن كان بعض الود يخلقه النوى
فإذا رأيت البحر يعلو موجه

فَاعْلَمْ بِأَنَّا فِي النُّجُومِ نَحْلِقُ
 فَاعْلَمْ بِأَنَّ قُلُوبَنَا تَتَشَوَّقُ
 مَهْمَا أَثَارَ الْمَفْسُودِ وَأَقْلَقُوا
 فَنَفُوسَ أَهْلِ الْوَدِّ لَا تَتَفَرَّقُ

وإذا رأيت النجم ينظر ساهياً
 وإذا سمعت الطير تهتف في الضحى
 إننا سنحفظ لـ « أمين » ولاءه
 وإذا الجسوم عن الجسوم تفرقت

٢٨

إكليل توفيق خورى

قد قال «ندرا» واصفًا «مباسكم»
 ما كنت حمصيًا ، ولكنى فنى
 فأثار بى شوقًا إلى «المباس»
 فى سر «حمص» الآن أشرب كاسى

٢٩

أيا ابن مدينة «العاصى» الجميلة
 وألفاظ تم على وفاء
 جعلت إلى محبتكم دليلى
 ملكتم مهجتي لا بالعوالى
 متى أروى من «العاصى» غليلي؟
 فإني مثلكم أهوى ربها
 فلا يفخر على «حمص» قبيل
 نفوس رجالكم فيها شباب
 لنا ولك المسرة والتهانى
 «وأعطى القوس باربها» بيوم
 بقيت مع «النبهة» فى صفاء
 تهانى شاعر يهوى الفضيلة
 وإخلاص وإن كانت قليلة
 فؤادى وأهوى الصافى دليلى
 ولكن بالسجيات النبيلة
 ويروى كل حمصى غليله؟
 كما أهوى نساءها العلية
 بمحتده ، فواحدكم قبيله
 وفى شبانكم حزم الكهولة
 فقد عاشت أمانينا القتيله
 قطفت أحب أزهار الحميله
 ترف عليكمما النعم الجزيله

حاملات الطيب

«حاملات الطيب» تشدو طرباً بلقاكم ، يا كرام
وتُحيي حبرنا المنتخباً من له أسمى مقام
فانشري عطرك ، يا ريح الصبا وتغني ، يا حمام
فلقد نلتنا المنى والأربا وظفرنا بالمرام

* * *

نحمد الله الجزيل المنن من نفي عنا الكرب
وجاننا بعد طول الزمن بالرئيس المنتخب
ذي المعالي ، صاحب القدر السني خير راع ، خير أب
عز فيه الدين بعد الوهن وعلا صرح الأدب

* * *

ولنحي بعد ذاك العلما علم العدل الجميل
علماً في ظله الحق سما فهو للحق كفيـل
رافقت فيه الخطوط الأنجما وله ظل ظليل
فلتعش «أميركا» خير حمى ألف جيل بعد جيل

ولقد ذكرتكَ

ذهب الشباب ، ومرت الأعوام
 خرباً ، عليها وحشة وظلام
 جشاً تلوح كأنها أصدام
 وينال منها الذئب والضرغام
 واليوم هم للكاسرات طعام
 مفتوحة ، لكنهم نـوام
 باباوات « رومة » قبل ، والأروام
 يا ليت شعري ، هل بكى « اللمام » ؟
 يشدو ويرقص حوله الأقسام
 فعلى الجماد تحية وسلام

ولقد ذكرتكَ ، يا بلادي ، بعدما
 فتمثلتُ تلك الربوع لناظري
 ورأيت قومي ساقطين على الثرى
 يمشى عليها الظالمون بخيلهم
 بالأمس كانوا والطيور طعامهم
 وهنا ، نرى إخوانهم أجفانهم
 لاهين عنهم بالجدال كما لها
 فبكيت ، ثم بكيت ، من فرط الأسى
 لم يَبْكْ ، بل أرخى العنان لصوته
 غنّى ، وفي تلك البلاد مناحة

تنصير ابن حنا نحاس

لذلك غابت الشمس المطله
ولا تخفى أشعتها الأكله
بهم ينسى غريب الأهل أهله
جعلنا في جوانحننا محله
لنصر فضيلة ولدفع علّيه
ولم ينكر عليه الضد فضله
نفاخر كل طائفة ومِلّه
على تفريقنا لو كان مثله
وأكرم نازل في ذى المحله
فحاكت من غمائمها مظه
وأنت اليوم قد عمدت نجمله

تكاثر الكواكب والأهله
كواكب لا يعلم بها خسوف
أراني بين إخوان وصحب
أتينا اليوم نفرح من صديق
يُرَجّى في الحياة ككل حر
وحبّر هام فيه عارفوه
به وبمثلته في كل نادٍ
فاضر الذي عملت يداه
أيا مولى القلوب ، بلا منازع
لقد خافت عليك سماء «أزلن»
و«حنا» عمّد «الفادى» قديماً

جمعية الصليب الأحمر السورية

إن الصليب وكان آلة نقمة
لا تعجبوا مما به من حمرة
لا يدع أن ظهرت عجائبه لنا
هذا لواء ضامن كشف الأذى
لما شهدت كما شهدت صنعه
إني أحبي الناهضات إلى العلا
من الكواكب في الشروق ، وإنما
لو كان فاضلة تخاطب قومها
« أبناء سوريا » ، احملوا صلبانكم

أسمى شعار الخير والتهذيب
هذا - وحققكم - دم المصلوب
فلكم أنى بعجيبة وعجيب
عن قلب كل معذب منكوب
طرب الفؤاد وكان غير طروب
باسم الجنود ، وباسم كل أديب
هيهات يؤذن نورها بمغيب
قالت لكل لبيبة وليب :
للخير ، إني قد حملت صليبي

توديع نعمة تادرس

فجلست بعد ذهابه أبكيه
فكأن ما في القلب لا يكفيه
معنى يلوح له فيستهو به
يجد الفتى كل اللذات فيه
عفواً ، ولا يؤذى الذى يؤذيه
فكأنما هو لائذ بأخيه
عنها ، وتصحبه لى تحميه
يا صاحبي أنت الذى أعنيه
فبراك كى تعلو وكى تعليه
جادت يداك بكل ما تحويه
كانت لغيرك هز عطف التيه
بنفيسه وبنفسه يفديه
ويحبك البر الذى تطويه
إن كنت أو ما كنت من أهليه
والناس منه كلهم كذويه
باليؤمن والإقبال والتنويه
ليست بأمر ، لا ، ولا تنبيه
ونُجْلِه ونصونه ونقيه
ليرى بك الوطن القديم بنييه

زمن الربيع مضى وكنت أحبه
واليوم يهجرنى حبيب آخر
اثنان ما للشعر بعد نواهما
فصل الربيع لأنه الفصل الذى
وأخ يسوق العرف نحو صديقه
وإذا يلوذ به امرؤ فى نكبة
هذا الذى تأسى القلوب لبعده
ما للكناية والإشارة موضع
شاء الذى خلق السباح وأهله
فإذا يجود ذوو النضار ببعضه
لك فى القلوب مكانة لو أنها
كل يودع فيك صاحبه الذى
سيحبك البحر الذى تجتازه
ويحبك البلد الذى تختاره
كل المَواطِن للكريم بلاده
سافر ترافقك السلامة ولتعد
لكن بربك لى إلبك وصية
هى إن تزر وطناً نقس ذكره
فانظر بأعيننا البلاد وأهلها

دار رشيد أيوب

كيف تركت الدار ، يا صاحبي
 أليس في هذا الحمى سارق ؟
 أم علم القوم على جهلهم
 جميلة دارك ، يا سيدى
 لكنها عمياء صماء لا
 جئت إليها آملاً شيئاً
 مفتوحة الباب لمن يطرق ؟
 أليس في بيتك ما يسرق ؟
 أنك ذاك الشاعر المفلتق ؟
 ودربها والشجر المورق
 عين ولا سمع ولا منطق
 وعدت منها وأنا أشوق

رثاء المطران أثناسيوس عطاالله

زُرْتُ الحديقة في الضحى لأرى الغصونَ المورقة
فإذا الطيور صوامت ، وإذا الأزهار مطرقة

وإذا النسيم له أنين كالجريح أو الطعين
ويلاه من ذاك السكوت ، وآه من هذا الأنين

ماذا أصاب الأحقوان ؟ فإنه لا يسم !
ماذا دها طير الأراكمة ؟ فهو لا يترنم !

أى المصائب بالرياض ؟ فقل لي : نضب الغدير !
فالطير والأزهار حائرة تفكر في المصير

فعرفت أنى في الحديقة حاضر في مآتم
وشعرت أن الحزن يسرب في عروقي مع دمي

الجنة الغناء ، يا أبناء « حمص » ، أنتم
أما الغدير فإنه هذا الفقيد الأعظم

« أثناسيوس » ، علمتنا ووعظتنا حياً وميتاً
أشرقت إشراق الصباح ، ومثلما يمضي مضيتاً

الله بارك « حمص » حين سكنت في أرجائها
وديانة قد كنت في دنياك من رؤسائها

كم مَهْمَةٌ لليأس كنت به دليل التائهينا
كم حومة للبؤس كنت بها مُقِيل العائرينا

قد كنت مصباحاً إلهياً يضيء لكل سار
وقد انطفأت فكلنا للحزن يعثر في النهار

علمتنا أن التنسك ليس في سكنى السباب
بل في مقارعة الخطوب وفي مصارعة التجارب

ليس الفضيلة والتقى ألا يضر المرء غيره
ويصون منه نفسه ، بل أن يسوق إليه خيره

خالفت كل الناسكين من الأوائل والأواخر
خضت المعائر عندما خافوا التعرض للمعائر

قد كان نسكك جرأة عظمى ونسكهم فرارا
يا ويجهم لم ينفعوا في نسكهم حتى القفارا

قد كنت تزهد بالجواهر وهي أكوام لديك
وتسر إذ تسعى إلى المسكين أو يسعى إليك

ما أحقر التيجان عندى إن ذكرتك والأرائك
إن الملوك من الأنعام ، وأنت من جنس الملائك

شادوا على الجثث العروش وشدت عرشك في النفوس
فضت عروشهم ، وعرشك خالد مثل الشمس

لله كيف حواك لحد ، أيها البحر الكبير
لله كيف خبا سناؤك ، أيها القبس المنير

قد كنت كلك أيها الزاعى الأمين لكننا
«أثناسيوس» ، نم هانئا فلکم سهرت لأجلنا

جمعية الاتحاد السوري

ما طائر كان في قفر على ظمإ
فاعتاض من لفحات القيقظ وارقة
وبات تنشده فيها بلابلها
منى بأسعد نفساً مذ نزلت بكم
فلأن روجي لتمشى من عواطفكم
ومقلتي تتمشى ، من وجوهكم ،
أرنو فيشرق في نفسي جمالكم
إن المروءة لو شادت أريكتها
تررق أخلاقكم كالخمر آونة
ومن يجربكم في الحاليتين يجد
بكم أصول على الأيام نائرة
لأنتم الماء لى والنفس ظائمة
أحببتكم حب إنسان لإخوته
إن كان فيكم ضعيف لا يحاذرنى
ولا أداجى لأمر منكم أحداً
نحلتمنى فضلاً لست صاحبه
لكن رأيتم خيالا من فضائلكم
والشمس إن نظرت في الماء صورتها

فساقه قدر نحو البساتين
ممدودة الظل خضراء الأفانين
حيناً وينشدها بعض الأحايين
يا معشر السادة الغر الميامين
مغمورة بالأفاحى والرياحين
في أنجم تتجلى لى فتهدى
كالوحي في خاطر بالوحي مفتون
كانت قوائمها شم العرانيين
وثارة تمزجون البأس باللين
لطف الملائك أو حزم الأساطين
خطوبها وأباهى من يباهين
وحبكم قمرى في ليل « كانون »
إذ ليس بينكم فوق ولا دونى
أو كان فيكم قوى لا يقاوينى
ولا أرى أحداً منكم يداجينى
ولم يكن قط في ظنى وتخمينى
فخلتم أنه خلقى وتكوينى
رأت هنالك شمساً ذات تلوين

* * *

قل لامرئ مثل « قارون » بثروته :
من يصطنع صاحباً تبقى مودته
إلى امرؤ بصحبا فوق « قارون »
فهو الغنى به لا ذو الملايين

فاختر صحابك وانظر في اختيارهم إلى الغرائز قبل اللون والدين

* * *

المرء في هذه الدنيا عواطفه إن تدرس فهو بيت غير مسكون
وإن عاطفة هذى مظاهرها من عالم الروح لا من عالم الطين
لوفاتني كل مافي الأرض من ذهب ولم تفتني فإني غير مغبون

* * *

لو القوافي تواتبني شكرتكم كما أريد واكن لا تواتبني
فاستنطقوا القلب أو جسوه بخبركم فالحب والقلب مكنون بمكنون
وفي زواياه شعر لا وزن له ورب شعر جميل غير موزون
إني سأحمد يا صبحي صنيعكم حمداً إلى الدهر لا حمداً إلى حين

نشيد يوسف بك كرم

يا من هزمت العدى فى كل معترك
لفؤوك بالعلم القانى ، وما علموا
وغيبوا البطل الصنديد فى جدث
لا « يوسف » آخر يحمى مرابعنا
ولا فوارس حول الأرز رابضة
« لبنان » بعدك فى ليل بلاقمر
لله عهدك من عهد نقدسه
لم يبق غير خيالات تطوف بنا
يا راقداً فى ضريح كله شرف
يا صاحب السيف ، كاد السيف يهلكنا
أشرف بروحك من أوج السناء على
يدعوك للجد « لبنان » وأرزه

فى مهجتي جيش حزن غير منهزم
أن التقى والنهى والمجد فى العلم
وأودعوا فى الثرى طوداً من الشم
مضى الردى بالشجاع الطاهر الشيم
كالأسد فى الغاب كالعقبان فى القمم
وأرز « لبنان » فى جو من الألم
وتستلذ به الأرواح فى الحلم
فيا نفوس إذا مرت بك ابتسمى
قام الأسود إلى أسيافهم ، فقم
يا ليث « لبنان » ، عاث الذئب بالغنم
سهول « لبنان » والغابات والأكم
يا ابن الأكارم ، هذى ساعة الكرم

إلى ندره حداد

إن العيون وطالما أودعت شعرك سحرها
حملت عليك فأدركتك وأدركت بها ثأرها
قد كنت تخشى أسرها ، فغدوت تحمد أسرها
وإذا الفتى عرف الهوى ، عرف الحياة وسرها
فأحبها تسقيه حازر خلها أو خمـرها
وإذا رأى أشـواكها أغضى ليلـمح زهرها
ويظل يرجو فجرها ، والليل يطمس فجرها

* * *

قدر الفتى في حبه ، فارفع لنفسك قدرها
« ندره » ، صبرت على زمانك طائعا لا مكرها
الغيد حولك كالنجوم ، وأنت تؤثر هجرها
ولك الشباب وكل ما خدع النفوس وغرها
لا النفس زاهدة ، ولست كمن تكلف قهرها
لكن شُغِلتَ بغادة تَخَذَتْ قريضك خدرها
ما زلت تنعتها وتجهل مثل غيرك أمرها
حتى جفت قصر الخيال ، وصار قلبك قصرها
فاشكر لدهرك جوده واحمد لنفسك صبرها
ونعمتها وأمتها مد الحياة وجزرها

٤٠

في عرس ندره حداد

شاعر كان حاثراً أذهبَ الحبُّ حيرتَه
طائر كان. تائهـاً وجد الآن جنتَه
صولة الحسن والهوى تساب المرء صواتَه
إن « ندره » الذى بغى أن يعاصى مشيئتَه
أسلم اليوم قلبهـ بيديه ومهجتهـ
لم يكن زاهداً ولا جاهلاً قط قوتَه
فلكم هد قلمهـ قبلما قد قلعتَه
بل لأمر مقبـدر أخر الدهر قرعتهـ
يا أسيراً كأنه أسيرٌ نال بغيتهـ
ليس بالعاشق امـرؤ خاف فى الحب محنتَه
إنما الحب ضلـة لو عرفنا حقيقتهـ
أنت يا صاح بلبـل يعشق الكل نفحتَه
جددت دولة الهوى بك للشعر دولتهـ
دمت فى العيش صاحـ لا يخلق الدهر جدتهـ

* * *

نصب الحب فخره وهو يدرى قنيصتهـ
وكما صاد « ندره » سوف يصطاد إخوتهـ
ف « جوادا » و « ثريه » و « خليلا » وزمرتهـ
وغدا ، وهو مقبـل ، يعلق الكل علقتَه

كذا الإله خلقه

إلى متى تضلّكم
 إلام يستجهلكم
 أراقكم منطقته ؟
 أم صوته ؟ وصوته
 أم وجهه ؟ ولو رأ
 هو الذى طاف عليـ
 فما تراءى شـبح
 وما أصاب موصدا
 وما رأى مـائدة
 أعجبه سـمنكم
 يمتص أموالكم
 يملأ من جيوبكم
 فى كل يوم يبتغى
 كأنكم بـعولة
 بل كلما أحس بالـ
 فصوّر البحر لكم
 وصوّر الأرض على
 إن تستحو لا يستحي
 يا قوم تلك الورقه ؟
 أجهل من « هبنقه » ؟
 وقد عرفتم منطقته
 أحسن منه النبقته
 ه القرد « طاح الحلقة »
 كم يستدر الصدقه
 منكم إلا لحقته
 فى الحى إلا طرقه
 إلا أمال عنقه
 فصار مثل العلقه
 مص الهجير الزنبقه
 جيوبه الخرقه
 ضريبة أو نفقه
 كأنه مطائقه
 إملاق أبدى ملقه
 وهو أجاج « مرقه »
 اتساعها كالبنده
 كذا الإله خلقه !

٤٢

النار أشد آكل

ويارُبَّ عاوٍ ظن أن عواءه
يصيح وفرط الخوف يرجف روجه
ويبكى ولم تضغط على عنقه بيدي
جهول، وبعض الجهل يهلك أهله
نصحتك ألا تجعل النصل مركباً
وإني نار ليس يخبو سعيها
يقيه - ولكن ما وقاه - غوائل
صياح صغار الطير خوف الأجادل
فكيف إذا فارت عليه مراجلي؟
غبي رأينا فيه صورة « باقل »
فإن المنايا في ركوب المناصل
فلا تصطلي فالنار أشد آكل

إلى النابح العاوى

يا أيها النابح العاوى بلا سبب
 إن كان غرك أن الحلم شيمتنا
 نحن النجوم التى تهدى أشعتها
 لكننا نغتدى إن ثار ثائرننا
 ما حددتتنا بغير المجد أنفسنا
 هل يزعج الشهب نَبَّاح بلا ذنب ؟
 إذا سكتنا فإن الليث بأنف من
 إذا نظرنا إلى الجرحيلان سارحة
 وفي الحدائق ذات الزهر مشغلة
 فيا غبيهاً على جهل يطاولنا
 من أنت ؟ هل أنت ذو قدر فنخفضه
 ما أنت إلا الهباء المستطار ، فهل

أما لنفسك ذو ود فينهاها ؟
 فربما خالفت نفس سجاياها
 من ضل بل نحن أسماها وأسناها
 نيازكا تتقى الدنيا شظاياها
 ولم نشأ غابة إلا بلغناها
 وهل يعوق فى الأفلاك مسراها ؟
 قتل البعوضة مهما طال قرناها
 ولم نطأها فإننا قد حقروناها
 عن رؤية الجحعل يمشى فى زواياها
 ورطت نفسك فانظر كيف عقباها
 أوحرمه تتأذى إن هتكناها ؟
 نفرى الهباء بأسياف حملناها ؟

* * *

يا كلب سوق ويا خنزير مزبلة
 على الدروب كلاب ما لها عدد
 وإنما الناس فى أمر قد اختلفوا
 إن السفالة لو تأوى إلى سكن
 أعياك أن ترتقى حتى تُرى بشراً
 خبيئاً قرونك ، واحذر أن تتيه بها
 فى «الأخطبوط» الذى صاحبته عظة

يا جيفة ما تحامى الناس إلاها
 لا شك أنك أعداها وأعواها
 هل أنت «أسعدها» أم أنت أشقاها ؟
 كالخيلتى ، لم ياك إلا أنت مأواها
 فصرت كالتيس نطاحاً وتيأها
 فكم قرون كهذى قد حطمتها
 لو كنت تفهم معناها ومغزاها

فلم تكن لحظة حتى هزمنهاها
عويل جارية قد مات مولهاها
قرونها السود كبرهاها وصغرهاها ؟
نحن الذين بأيدينا كسـرناها
عينها في البر سِعْلاة لنادهاها
فإنما خبئها في الجسم أبقاها
وإنما قبحها المشهور نجّأها
لَعَمَّت الأرض أذناها وأقصاها
أن الذي خلق الأرواح سوّأها
والأرض إن أصبحت في الأرض مثواها
لو أنه بسوى الأوحال غطاها
وغيبَ البر يُمنّاها ويُسْـرأها
وكنتم مثل الذى قد جاء ينعاها

كم مرة قربت منها كتائبه
فارتدَّ يعول من يأس ومن أَلَم
ألم تكن كقرون الوعل شائكة
اليوم ليس لها عين ولا أثر
إن يستعن بك فالغرقان لو نظرت
وإن تكن نفسه في الجسم باقية
فما نجت بومة يوماً بِقُسْوَتِها
نفس لو انتشرت يوماً نقائصها
نفس يشك الورى في الله إن زعموا
فإن « عزريل » يخشى أن تدنسه
ما ضر مَنْ وَصَمَتْ بالعار جبهته
أتيته بعدما شالت نعامته
فكان مثل الذى ماتت كرامته

* * *

ما سيم من حِطّة إلا وبرضاها
هل أخبرتك بأنا قد خطفناها ؟
إذا ذكرنا لبانات قضيناها
حتى ذكرنا التى كنا نسيناها
واستغفر الله كى نستغفر الله

يا نذل ! والنذل إنسان بلا شمم
زعمت خطف الأطباء الغيد عادتنا
بالله يا نجّل « . . . » معذرة
كنا نسينا ، ولكن ما برحت بنا
فاغفر خطيئتنا ، نغفر خطيئتها

* * *

جَسَمَتَها خُطّة شنعاء تأباها
بل كدت تحسبها يا وغد إياها
فراح يرتع في خديك نعلها !

ورب طاهرة في البيت آمنة
حسبتها كالتى ساءت خلائقها
دنوت للورد في الخدين تقطفه

* * *

كم ليلة بيت مُلقى في زواياها
كأنما هو نادياها وملهاها

سلّ السجون التى جاورتها زمناً
وفى قفالك نعال الجند راقصة

شِدُّوا عليكم ، وقد خالوا نعالهم
فانظر قَدَّ اللَّكِّ في « المرأة » إن به
تدمى قفك فأذاها وأدماها !
آثارها وكثيراً من بقاياها !
فعدنا ألف نعل قد حفظناها
إن كان هاج بك الشوق القديم لها

* * *

ما ثم في الأرض من عيب نزيده
وما هجوناك يا « لا شيء » نعرفه
أنت المعائب أولوها وأخرها
بذى القوافي ولكننا هجوناها

٤٤

دعه ينبج

قد سكتنا عن اللثيم طويلا
 وصفحنا عن ذنبه وعفوننا
 وحسبناه يرعوى فتمادى
 فصفعناه صفعه بات منها
 قل لمن سببه لثيم كهذا :
 عرّف الكلب أنه الكلب للناس
 حين كان السكوت أولى وأصلح
 عفوا حرّ والحمر يعفو ويصمغ
 ووطننااه ينتهى فتنطح
 يتلوّى ، وتارة يترجج
 شبّ بل شاب وهو فى اللؤم يسبح
 ودعه من بعد ذلك ينبج !

خطبة ميشيل حداد

إن الحياة خميلة والعاشقين زهورها —
 الحب في أكبادنا خفقانها وشعورها —
 والحب في زهر الربى ألوانها وعبيرها —
 هو في الجداول شدوها ، هو في الكواكب نورها
 من حب كان له الحياة سرها وسرورها —
 ونفوس أبناء الغرام إلى الخلود مصيرها —
 فاشرب على ذكرى الهوى كأساً هواك مديرها
 « ميشال » ، مملكة الشباب اليوم أنت أميرها
 زارتك مثل الشمس في زمن الربيع سفورها
 حسناء كالظبي الغرير دلالها ونفورها —
 قد طاب خلقك واستوى وصفها ، ورقّ ضميرها
 ولها الجمال وعرشه ، ولك المني وقصورها —
 فرحت لحبكما السما ونجومها وبدورها —

الجدول الطروب

مَنْ عَلَّمَ الإنشاد هذا الراقص المتبختر ؟
 إني اهتديت به إليه وكان سرًّا مضمرا
 يجرى طروبًا وهو لا يدري لماذا قد جرى
 الدوح حانية عليه تخاف أن يتكدرا
 ويلذ للأزهار أن ترنو إليه وتنظـرا
 ولقد سمعت الطير تدعوه الحبيب الأكبر
 فوقفت أرمقه وأسأل حائرًا مستفسـرا
 ما حجب الأطيوار والأشجار فيه يا ترى ؟
 أحصاه ؟ إن البحر يحوى فى حشاه جوهرا
 أم ماؤه ؟ إني رأيت السيل منه أغزرا
 أو طهره ؟ إني وجدت الطل منه أظـهرا
 ما السر فى هذى ولا فى كونه يسقى الثرا
 بل كونه يسدى الجميل ويستحى أن يظهر

صوت بلادی

ما الروض وشاه الربيع بزهره
 عندي بأجمل منكم في ناظري
 أبصرتكم فرأيت صورة أمتي
 «لبنان» زود بالطموح نفوسكم
 وحبتكم «سورية» بجمالها
 فأنا أحبي في كهولكم النهي
 والحسن في فتياتكم ، والعزم في
 الناس عندي كالشهور وإنكم
 فإذا سكت فكى أناجيكم وإن
 وكسا ثراه مفوف الأبراد
 وأحب من أرواحكم لفؤادي
 وسمعتكم فسمعت صوت بلادي
 لما رحلت في طلاب الزاد
 وجمالها فوق الجمال العادي
 والطهر والأحلام في الأولاد
 فتياتكم ، ومروءة الأجداد
 في الناس كالآحاد والأعياد
 أنشد فليس لغيركم إنشادي

۴۸

یا لیتنی ...

إذا أطل البدر من خـدـه
 وإن شدا البلبـل فی وکـره
 وإن یفـح عطر زهـور الربـی
 فلأنما یطلع کی تنظـریه
 فلأنما یشدو کی تسمعیه
 فلأنما یعبق کی تنشقیه
 یا لیتنی البدر الذی تنظریسن !
 یا لیتنی الطیر الذی تسمعیسن !
 یا لیتنی العطر الذی تنشقیسن !
 أو اه لو تصدق « یا لیتنی » !

الزمهرير في نيسان

رجع الزمهرير أمس إلى نيسا
 جاء «نيسان» كالح الأفق ، عارى
 أو كملك داس الغزاة حماه
 أو فتاة مفجوعة بحبيب
 إليه «نيسان» قد أثبت ، ولكن
 لا دليل على وجودك يا شهر
 ليت شعري ماذا دهاك فلم
 نحن لولا الحساب خفناك لم تو
 ورجعنا نشكو من الزمهرير
 الأرض، حيران كاليتيم الفقير
 فهو في حيرة وفي تفكير
 مات في وجهها ضياء السرور
 بمُحيًا إفك وحالة زور
 الأفاحي سوى غناء الطيور
 تُخرج لنا الزهر من وراء الستور؟
 لد وأن الشهور غير الشهور

النجمة الهاوية

هذا هو المنزل الأخير إلى هنا ينتهى المسيرُ
وينطوى الخوف والرجى وينقضى الحزن والسرور
ما كان أحلى الحياة لو لم يكن إلى الحفرة المصير
كم من عصور مضت وغابت فيها ولم تشيع القبور

مررت بالزهر قابلات كأنما مسها السـمير
فقلت : ماذا عراك حتى فارقك الزهو ، يا زهور ؟
فلم تجاوبنى إلا قاحى وإنما جابوب الغـمير
فقال : «سلمى» مضت ، وكانت زنبقة مالهـا نظـمير
فغاض نهر وجف روض وغاب نجم واندك سور
يا وحشة الدار بعد «سلمى» فقد خبا بدرها المنير
«سلمى» التى صمتها وقار وفى أحاديثها عبير
فليس فى مشيها اختيال وليس فى نطقها غرور
كم بئس لاذ فى حماها وكم رجا رفدها فقير
أليس جوراً من الليالى أن تحتوى اللؤلؤ القبور ؟

يا قبر «سلمى» ، ما أنت قبر بل عالم نيرٌ طهور
ففيك مثل الرياض عطر وفيك مثل السماء نور
حويت دنيا نبل وفضل بأيهـا الحيز الصغير
لم أر من قبلها ثريـاً شـعاعـة فى الثرى تخور

وقبل إخوانها نسوراً تبكى ، أجل قد بكى النسور

* * *

«عزيز» ، يا ضيغماً جريحاً وطائراً جنحه كسير
الدمع في مقلتيه يطفى والحزن في صدره يغور
الخطب يا صاحبي كبير وأنت يا صاحب كبير
فكن صبوراً على الرزايا فإنما يؤجر الصبور

رثاء رشيد أيوب

نام لما تعبت أجفانـه
خرج الشاعر من دنيا الأسى
ومضى عنا إلى موطنـه
لا تقل : هذا الذى كان انطوى
سائلو الجدول عن ألقانه
وسلوا الأزهار عن أحلامه
وسلوا «صنين» عن شاعـره
هو فى قمته عزتهـا
لم يزل ما بيننا أسطورة

وإذا ما تعب الإنسان نـام
مثلما ينسل نور من قـتام
وطن الشاعر أمن وسلام
ما انطوى، يا صاحـبى، إلا الرغام
فهى فى الجدول وجد وهيام
فهى فى الزهر أريج وابـتسام
إنه فيه جلال واحتـرام
وهو فى الوادى اتضاع واحتشام
يتلقاها كرام عن كـرام

* * *

أيها الشاعر لا تخش الأذى
جهلوا قيمة أرواحهم
لا هناء لنفوس صـُورَت
أعتقت روحك من أغلالها
أنت بعد اليوم لا يشكو الطوى
أنت فى الدنيا التى أحبيتها
ليس فيها قيم زائفـة
ليس فيها كالتى فارقتها ،
رويت نفسك من كوثرها
نم هنيئاً . إن أحلى غبطة

لست بعد اليوم جاراً لأنام
فغداً الجوهر عبداً للحطام
من سناء مع نفوس من ظلام
وأناشيدك من أسر الكلام
جسمك العانى ولا تخش السقام
وهى دنيا الحُر فيها لا يضام
تخدع العقل وآمال جهام
أعين يقظى وأرواح نيام
وبقينا لعنـاء وأوام
- مثلما تعرف - رؤيا فى منام

إنه الشاعر

عندما أنشأ الوجود الله
وبدت في النبات والماء والأحياء
فاطلت من السماء الدرارى
وترامى النسيم فى صفحة النهر
وسرى الفجر يوقظ الروضة الوسنى
ومشى الليل بعده يطمس الأشياء
والورود الحسنة إلا شذاها
نظر الله فى السماء وفى الأر
« إننى قد خلقت كوناً بديعاً
غير أنى نسيت أخلق شيئاً
وهو « عين » ترى الوجود كعينى
وإذا الله شاء أمراً قضاه
فإذا كائن له هيكلك الطين
ذو فؤاد تظل فيه الأمانى
كل من يعشق الجمال أخوه
هو للحق غيظه ورضاه
من ترأه هذا الذى صاغه الله
إنه الشاعر الذى كل دنيا
كم سقانا خمراً بغير كؤوس
وأرانا الصباح والليل يغشانا

فى زمان فى الدهر ما أقصاه
والصخر بقطة وانتبهاه
وتجارت على الصعيد المياه
بأسرار وجده وهواه
ويذرى على المروج ندهاه
إلا أحلامه ورؤاه
والغدير الطروب إلا صدهاه
ض طويلا فتمتت شفتاه :
كل شئ فيه كما أهواه
لازماً لا يتمه إلاه
ولسان يقول : ما أحلاه
أو تمنى وجود شئ بهراه
وفى هيكلك التراب إليه
فى صباها ، وإن تقضى صباه
كل أرض فيها الهوى مغناه
وهو للحب ضحكك وبكاه
كما يشتهيه لما اشتهاه ؟
تنطوى قبل تنطوى دنياه
فسكرنا ولم تذقها الشفاه
بأكفانه كما يغشاه

يعشق الروض فى حلاه ، ويهواه
يرتوى الناس بالمياه ويروى—
أيها ، السائلون عنه : لماذا
ما الغنى عندكم ؟ فإنى أخشى
أهو المال ؟ ما وجدت غنيًا
أفمن كان كوكبًا يهجر الأفق
والذى الكون داره ، كيف يرضيه
وجد المال عاتيًا مستبدًا
لا تقولوا : ماذا اقتنى وحواه ؟
إنه الشاعر الذى ازدادت الدنيا
فاشربوا ، يا رفاق ، سرفتى

مُعَرَّى مُجَرَّدًا من حلاه
هـ خربير تصغى له أذناه
ليس يسعى للغنى كسواه ؟
أن تكونوا جهلتم معناه
قط إلا وماله مولاه
لتمسى زجاجة مثواه ؟
انزواء فى حفنة من ثراه ؟
فأبى أن يكون من أسراه
أى شئ خياله ما حواه ؟
بهاء لما غدت مأواه
« العاصى » ، وحيوه ، إنه إياه !

تكریم الأب منصور إسطفان

لما رأتنى باسمًا مُتَه—لما
 فى الأرض كيف رمت أصابت مقتلا؟
 ب ولا جمال لمنزل منهم خلا
 وهنأنا خاضوا الوغى ؟ قالت : بلى
 يتبسّمون ؟ أجابت الحسنة : لا
 ما تعلمين ، وكيف لى أن أجهلا ؟
 فى البحر فى الأجواء فى عرض الفلا
 ورأيتهم يشون من نصر إلى . .
 فالمرت إن وكسى وإن هو أقبل
 وطالعت عينك آثار البلى
 ستعود دنيانا أحب وأجه—لا
 على الإخاء ، الناهضين إلى العلا
 حربًا على الباغى وعون المبتلى
 بالحب والغفران ما بين الم—لا
 كلف ، ولا يسلا الصديق وإن سلا
 إلا وكان هو المغيث الأول
 فلقد بنى فى كل قاب هيكلا
 وسجية تحكى الرحيق السلسلا
 فى محفل إلا أضاء المحف—لا
 ومضوا ، وما زالوا ربيعًا مقبلا

لم أنس حين مشت إلى تلونى
 قالت : أتطرب ، والمتايا حُوم
 انظر ، فقد خلت البيوت من الشبا
 فسألتها : أو ليس من أجل العلا
 يا هذه ، إذا بكيت لبعدهم
 كفى الملام إذن ، فما أنا جاهل
 لكن بعثت الفكر فى آثاره—م ،
 فرأيت نور المجد فوق بنوده—م
 سدوا على الباغى المسالك كلها
 فإذا شممت اليوم رائحة الدماء
 فاستبشرى ، فغداً إذا النقع انجلى
 بالطامحين إلى الكمال ، العاملين
 ك « الإسطفانى » الذى لا يأتلى
 مستهدياً بـ « الناصرى » ، مبشراً
 حلوا المودة ، لا يشوب ولأه
 ما إن دعا داع لنصرة بائس
 إن لم يُشيدْ هيكلا من مرمر
 خلُق كماء المزن عذب طاهر
 يا ابن الألى ما دارَ يوماً ذكرهم
 كانوا ربيعاً زاهراً فى جيلهم

وغنيت بالخلق الرفيع عن الحلى
لا يبلغ النجم الغبار وإن علا
لتدكه ، أرايتموه تزلزلا ؟
لم يخلق الله الورد لتؤكلا !
شبعوا ، وما أكلوا الكتاب المنزل !
أما إذا كشفت طبيعتها فلا . . .
يعفو عن الجاني الأثيم تفضلا

لبس الحلى قوم فما شرفوا بها
عشًا يحاول طمس فضلك مرجف
كم هاجمت « لبنان » ريح صرصر
زعم القصائد ليس تشبع جائعًا
الأنبياء - والوحى شعر رائع -
الشعر ريحان النفوس إذا صفت
فاغفر مساءته ، فإن الحر من

* * *

لولم يكن فى مدح شخصك ما حلا
وافوا كما ترد الطيور المنهلا
مرت ، بل الأدب الصحيح الأنبل
للعلم ركنًا ، للفضيلة موئلا

سُفِّتُ الثناء إليك حلوا سائغًا
هؤلاء قومك ، يا حبيب قلوبهم ،
لم يكرموا العشرين والخمس التي
عش ، يا صديقي ، مثلها في مثلها

رثاء إلياس عطا الله

دنيا من الآمال والأحلام
عصف الردى بورودها فتناثرت
لم يبق فيها دوحة تحنو على
أرسلت صوتى فى جوانبها فلم
«إلياس» إنك أنت دنياى التى
زالت وغابت مثل طيف منام
ومضى بشاديبها وبالأفهام
تعب ، ولا ماء يفيض لظامى
يرجع إلى أذنّى غير كلامى
ضيمتها ، ورجعت بالآلام

* * *

يا صاحباً قد كنت أستهدى به
لا تسألنى عن فؤادى لإنسى
أرفيق روحى ، قد أتيت مسلماً
عجباً ، كأنك فى زمان غابر
أنا مع رفاقك تائقون لقولة
يا عظم خيبتنا ، فلنا نبغى
إن الذى قد كان معنا قد سما
ومن استوى فى عالم الأرواح لا
إن ضاع مصباحى ، وجن ظلامى
سكّمت للأحزان قلبى السدامى
«إلياس» ما لك لا ترد سلامى ؟
أو موضع قاص وأنت أمامى
أو لفظة ، فانطق ولو بسلام
خمرأ ، ولا من خمرة فى الجام
عنا ، وصار مع الإله السامى
يدنو إليه عالم الأجسام

دار « السمير » الجديدة

يا مرجبًا بالأصدقاء ، مرجبًا
ضحكت لما قيل لي الصيف انقضى
صيرتموها فلكًا مؤلِّقًا
وصارت الدنيا بعيني جنة
لو جثتكم من « عبقر » بسحرها
لما وفيت بعض بعض دينكم
من يستفد مثلي صحابًا مثلكم
ما كانت « السمير » إلا ورقًا
إن كان من حسن فنكم قد أتى
لو كانت « السمير » من أهل الغنى
أوروضة - أهلت إليكم زهرها
أوفلكا - رفَّتْ عليكم وحت
أوجدولا - غنَّتْ لكم مياهه
لكنها جريدة قد أنشئت
تريد للناس الحياة حرة
تنفق مما عندها وإنهـا
لا تطلبوا منها سوى ما ملكت

ملأتم الدار وروحي طربًا
وأنتم حولي كأزهار الربى
لما طلعت في ذراها شهبًا
وصارمائي كثرًا ، بل أعذبًا
وسقَّتْ في شعري الدراري موكبا
ولا قضيت اليوم شكرًا وجبا
قد استفاد أدبًا وسبًا
لولاكم ، والدار إلا خشبًا
ما قيمة المصباح لولا الكهرباء
سأقت نحايها إليكم ذهبًا
أوعطرها مع القبول والصبًا
وعلَّقَتْ في كل بيت كوكبا
ما دمت تصفون حتى تنضبا
لتخدم العلم وتعلّي الأدبًا
للناس طرًا - «عجمًا» و«عربًا»
لتنفق العمر اللذيذ الطيبًا
لا تملك الصهباء إلا الطربًا

٥٦

إلى غازر داود

أيها الجالس بين النجمتين غننا ، يا صاحبي ، أنشودتين
قد شربنا خمرة الكرم ، وإن أنت أنشدت شربنا خمريتين

٥٧

إلى المونسينيور منصور إسطفان

هذي تحيتنا إلى « المنصور » مشفوعة بتحية الجمهور
مع أنفس الشعراء نرسل شوقنا فاسمع بأذن الروح لحن شعور
وانشق أريج قلوبنا ، فقلوبنا من وجدها كمجامر البخور
يا نسر « لبنان » المحلق في الفضاء المجد تحت جناحك المنتشور
فاسلم لأمتك التي تبني لها لتزيدها من سعيك المبرور

رثاء نجلاء صباغ

رجع الربيع إلى المدائن والقرى
 لمست يده العود أجرد يابساً
 لله منه ساحراً ومصوراً
 عرض الجمال وقال للناس: انظروا
 لكنما العين التي كانت ترى
 الموت أغمضها على غير الرؤى
 لكنما القلب الذي يهوى الشذى
 إن لم نرحب بالربيع ولم نهيم
 فلقد أضعنا حين جاء إلى الحمى
 سكنت لكي تتحدث الدنيا بها
 «نجلاء» إنك روضة معطارة
 رحلت عن القصر الباشاة وانطوى
 فالיום لا الأرواح تبسم للمنى
 أفنيت نفسك كالشموع توقداً
 فازددت مجداً في الزمان وشهرة
 زانتك في الدنيا شمائل حرة
 فعليك ، يا فخر النساء وفخرنا ،
 و«قيصر» منا العزاء ، ف«قيصر»
 بل صار بعدك ، يا رفيقة عمره ،
 إنا نودع نجمة وضاءة

نوراً وعطراً في السفوح وفي اللدى
 فإذا به قد صار رطباً أخضرا
 بهرت عجائبه القول وحيـرا
 فالله قد خلق العيون لتنظـرا
 ألقَ الربيع وحسنه ليست ترى
 ما في الردى شيء كأحلام الكرى
 والنور ، قد أمسى دفيناً في الثرى
 بالحسن فيه ، فحقنا أن نُعذرا
 في بنت «مطران» ربيعاً أنسورا
 وغفت لكي تبكي العيون وتسهر
 عصف الحمام بها ، فعات وبعتها
 عهد الصفا والأنس في «أم القرى»
 فيه ، ولا اللذات تجري كثرها
 وقطعت عمرك كالكوكب في السرى
 وازداد قومك رفعة بين الورى
 هي كالجواهر إنما لا تُشتري
 منا السلام مُمسكاً ومعطـرا
 كالنسر هيض جناحه وتكسرا
 وترأ ، يغص بلحنه متعـثرا
 زالت ، وندفن كنز فضل في الثرى

في حفلة تكريمه ببירות

المرء ليس يقـاس في	الدنيا بعلم أو بجهل
بل بالذي في طبعه	الفطرى من كرم ونبـل
فلربَّ ذى علم أساء	لأهله ولغير أهـل
ولرب ذى جهل أفاد	الناس في خصب ومحل
لولا ارتفاع نفوسكم	لم يرتفع أبدا محلى
لولا عيونكم المحجة	ما تـراى قط فضلى
دامت مكارمكم لكى	يشدو بها الشـعراء مثلى

٦٠

في حفلة تكريمه بدمشق

أنا إن شكرتك يا «أبا حَسَّانَ» أعليت من قدرى وقدر بياني
أشرفت في نفسي سناً فأريتني وجه الربيع ولست في «نيسان»
سأتيه أنى في زمانك عائش ومعى يتيه - كما أتيه - زمانى

٦١

في صلاة منصور

شربت عيناكِ روحى فهى في عينيكِ سحر
وأذاب الحب قلبي فهو في كأسى خمر
هذه الليلة دنيا كل ما فيها يُسر
لا تقل ليل وبمضى ليس للذة عمر

٦٢

في بيت فخرى البارودي

يا صبحي ! قد كمل المجلس ونحن نحن الملائم الأقدس
لتنعس الأنجم في فلكها سنسهر الليل ولا تنعس !!

٦٣

إلى توفيق فخر

رافقتك الهناء ، يا رفيق وعدت بالتوفيق ، يا « توفيق »
يا شاعراً أخلاقه كبشعره متانة ، كقلبه رقيق
أنت صديق لا يحول وده في زمن قلَّ به الصديق

إلى رشيد أيوب

رأيتك تحت الليل كالليل ساكتاً
 تن من الدنيا التي طال جورها
 بكيت فأبكيت الجلامد في الثرى
 فأصبح في هذى السموات حائراً
 أراه بعيني مصغياً كل ليلة
 أرى فيك من «شيخ المعرة» نفحة
 وهبتك من شعري وعندك مثله
 وإن لم يكن هذا ولا ذاك شافعاً
 وعند ضفاف البحر تهدر كالبحر
 وتشكو من الدهر الخؤون إلى الدهر
 ونحت فحسرت الرقاد على البدر
 كصاحب إيمان يميل إلى الكفر
 لأنك قبد عودته رنة الشعر
 وفي نفحات «الشيخ» شيء من السحر
 ولو كنت ذا تبر وهبتك من تبري
 فإني قد ألقيت حملي على «شكري»

٦٥

« زحلة الفتاة »

لى فتاة ملأت صدرى جوى ذاب فيها القلب شوقاً واحترق
 كل يوم لى منها موعد فى صباح ، فى مساء ، فى غسق
 لا تظننى أثيماً فى الهوى ف « فتاتى » من مداد وورق

٦٦

شعار « السمير »

أنا لا أهدي إليكم ورقاً غيركم يرضى بجر ورق
 إنما أهدي إلى أرواحكم فكراً تبقى متى الطرس احترق

فهرس القوافى

رتبت القوافى ترتيباً ألفبائياً ، وضمن كل حرف جاءت القافية المقيدة الساكنة أولاً ، ثم المطلقة المفتوحة ، فالمضمومة ، فالمكسورة ، يتبع كل منها ما ختم بالهاء التى تعد وصلاً : الساكنة ، فالمفتوحة ، فالمضمومة ، فالمكسورة . أما الرقمان المتقدمان على المطلع ، فالأول هو رقم القصيدة أو القطعة فى الكتاب ، والثانى هو عدد أبياتها .

٢

٤٢/٤٢ ماتت « فنى » أم البنين فل « ولَيْسَ » طول البقاء

ب

٢٥/٢٣ وزاهد همه فى المدح يسمعه من كل من همه أن يخلق الكذب
١٧/٦٤ يا مرجباً بالأصدقاء ، مرجباً ملائم الدار وروحي طرباً
١٠/٣ خطيب الأمس ، ما أنصفت « مصر » ولا أنصفت ماضيك القريباً

ب

٤٩/١٠ ما الطير ضاقت بها الأوكار فاضطربت فى الأرض باحثة عن مرتع خصب
٩/٣٥ إن الصليب وكان آلة نقمة أمسى شعار الخير والتهذيب
٥٧/٣٢ يا سيداتى « حاملات الطيب » ويا رجال الفضل والتهذيب

ت

١٨/٤٦ شاعر كان حائراً أذهب الحب حيرته

ت

٣١/٣٦ رأيت مرتبكا كغارق فى لجة
٧/٤٠ مضت التى كانت كزنبقة الربى فى طهرها وأريجها وصفاتها

ح

- ٧٥/٥٩ أمى ، انظرى طيارتى كالنسر قد بسط الجناح
٦/٥٠ قد سكتنا عن اللثيم طويلا حين كان السكوت أولى وأصلح

ح

- ٣١/٦ لا الغيد تصبيني ولا الأقداح مهما تغالى فيهما المداح
٢٤/١٧ أيا « عبدالمسيح » ، عليك منى سلام كلما ذكر المسيح

د

- ٤١/٥ سوى « لبنان » يملكته فؤادى وغير بنيه أمنعهم ودادى
٩/٥٤ ما الروض وشاه الربيع بزهره وكسا ثراه مفوف الأبراد
٣٠/١٥ بالقد الأهيف ، بالنهد بالثغر الأشنب ، بالحد
٢٢/١٦ بالحق ، بأحرار البلد ما دام يراعى طوع يدى

ر

- ٢٨/٢٢ وردت نيمقتك الجميلة والصور فللك الثناء من البصيرة والبصر

ر

- ١٣/٥٣ مَنْ عَلَّمَ الإنشاد ه ذا الراقص المتبخرا ؟
٤٠/١١ رَبَّيت كلبا صغيرا وكان ذلك نذرا
٢٠/٦٧ رجع الربيع إلى المدائن والقرى نوراً وعطراً فى السفوح وفى الذرى
١٢/٢٧ قد عاد النقر على الطاره والشاعر حرك أوتاره
٢٨/١٩ خذها أبياتاً مشهورة كصراخ النفس المقهورة
١٧/٤٥ إن العيون وطالما أودعت شِعْرَكَ سحرها

و

- ٤/٧٠ شربت عيناكِ روحى فهى فى عينيك سحر
١٩/٥١ سلام عليك ، فى المكرمات كماء الغمامة بل أظهر
٢٣/٥٨ هذا هو المنزل الأخير إلى هنا ينتهى المصير
١٣/٥٢ إن الحياة جميلة والعاشقون زهورها

ر

- ٨/٧٣ رأيتك تحت الليل كالليل ساكتاً وعند ضفاف البحر تهدر كالبحر
 ١٠/١ لئن حجبتك عن مقل البرايا فما حجبتوا هواك عن الصدور
 ٥/٦٦ هذى تخيتنا إلى « المنصور » مشفوعة بتحيةة الجمهور
 ٨/٥٧ رجع الزمهرير أمس إلينا ورجعنا نشكو من الزمهرير

س

- ٢/٧١ يا صبحي ، قد كمل المجلس ونحن نحن الملاء الأقدس

سـ

- ٢/٢٩ قد قال « ندرا » واصفا « مياسكم » فأثار بي شوقاً إلى « المياس »
 ١٢/٢٤ ما كان أخرجني يوماً إلى لقب يقاتل الشك عني في ذوى الخدس

ع

- ٢٦/٢١ كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يزرعه

عـ

- ١٩/٢٥ « نيويورك »، تيهى عزة وتهللى طربا ، فأنت اليوم أشرف موضع

ق

- ٣/٧٤ لي فتاة ملأت صدرى جوى ذاب فيها القلب شوقاً واحترق
 ٢/٧٥ أنا لا أهدي إليكم ورقا غيركم يرضى بحبر وورق

قـ

- ٣٥/٩ أسنى على الكشكول كيف تمزقا يا صاحب الكشكول، طال لك البقا
 ١٨/٤٧ إلى متى تضلكم يا قوم ، تلك الورقة ؟
 ٣٨/٤١ زرت الحديقة في الضحى لأرى الغصون المورقة
 ٤٦/٨ أكل يوم مخرقه وقصة ملفقه ؟

ق

- ٦/٣٩ كيف تركت الدار ، يا صاحبي مفتوحة الباب لمن يطرق ؟
 ٤٧/٢٨ كم ذا يلوم على الهوى المشتد غير الغرام يجوز فيه المنطق
 ٣/٧٢ رافقك الهناء ، يا رفيق وعدت بالتوفيق ، يا « توفيق »

ق

- ١٦/٣٧ يا صاحبي « ندره » الحبيب وأنت لى أوفى صديق

ك

- ٢٠/٧ يا روح « لباس » بالأرواح نفديك إن المايكة تفدى بالماليك

ل

- ٣٨/١٢ توعدنى مقلد « نفظويه » كما تزعد الأثني الرجالا
 ٤/٢٦ لله ما أحلى ، وما أجمل أن تنصر المسكين ذات الحلى
 ٣١/٦٢ لم أنس حين مشيت إلى تلومنى لما رأيتى باسمًا متهاولا
 ١١/٣٤ تكاثرت الكواكب والأهله لذلك غابت الشمس المطله
 ١١/٣٠ أيا ابن مدينة « العاصي » الجميله تهانى شاعر يهوى الفضيله

ل

- ٣٦/٤ هذا مجال ، فهل فى الحى قوال ؟ إنى على العجز فى المضمار جوال

ل

- ٦/٤٨ ويا رُبَّ عاوى ظن أن عواءه يقيه - ولكن ما وقاه - غوائل
 ٧/٦٨ المرء ليس يقاس فى || دنيا بعلم أو بجهل
 ٣٤/١٨ إن المعتز بأمواله مثل المعتز بأخواله

م

- ١٢/٣١ « حاملات الطيب » تشدو طربا بلقاكم يا كرام
 ١٩/٦٠ نام لما تعبت أجفانه وإذا تعب الإنسان نام

م

- ٣٣/٢ خلنى أستصرخ القوم النيام أنا لا أرضى لـ « مصر » أن تضام

م

١١/٣٣ ولقد ذكرتكَ ، يا بلادى ، بعدما ذهب الشباب ، ومرت الأعوام

م

٢٥/١٤ زلت عنا ، فلم نبيل ، مثلما زال مع الليل طارق الأحلام
 ١٣/٦٣ دنيا من الآمال والأحلام زالت وغابت مثل طيف منام
 ١٢/٤٤ يا من هزمت العدى فى كل معترك فى مهجتي جيش حزن غير منهزم
 ٤٢/٢٠ أوحى لى الشيطان قبل النوم كما أحدثكم حديث اليوم

ن

٥٢/١٣ أهل الفساد وزمرة الشيطان كم تدعون محبة الأوطان
 ٣/٦٩ أنا إن شكرتك يا « أبا حسان » أعليت من قدرى وقدر بيانى
 ٢٨/٤٣ ما طائر كان فى قفر على ظمأ فساقه قدر نحو البساتين
 ٢/٦٥ أيها الجالس بين النجمتين غننا ، يا صاحبي ، أنشودتين

هـ

٧/٥٦ إذا أطل البدر من خدره فإنما يطلع كى تنظيره

هـ

١٤/٥٥ زهرة ولت ، وما ولى شذاها خفيت عنا وما زلنا نراها
 ٤٧/٤٩ يأيها النابح العاوى بلا سبب أما لنفسك ذود فينهاها ؟

هـ

٣١/٦١ عندما أنشأ الوجود الله فى زمان فى الدهر ما أقصاه

هـ

١٩/٣٨ زمن الربيع مضى وكنت أحبه فجلست بعد ذهابه أبكيه

مصادر الأشعار

فيما يلي بيان :

- (أ) بيان بالمصادر التي استخرجت منها الأشعار .
(ب) بيان بإمكانة الأشعار في هذه المصادر ، مع بعض الإيضاحات .

(١)

« الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر :
عبد العزيز جاويز ، ١٨٧٢ - ١٩٢٩ » تأليف سالم عبد النبي قنير . بنغازي ،
دار مكتبة الأندلس ، ١٩٦٨ .

« أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية » تأليف جورج صيدح . ط ٣ منقحة
ومزودة . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ .

« الأدب » (بيروت ، ألير أديب) .

« ألف باء » (دمشق ، يوسف العيسى) .

« الجمهور » (بيروت ، ميشال أبو شهلا) .

« الرسالة » (القاهرة ، أحمد حسن الزيات) .

« السائح » (نيويورك ، عبد المسيح حداد) .

« الشعب » (القاهرة ، محمود أبو عثمان) .

« الصحافة في لبنان » تأليف جورج عارح سعادة . ط ١ . بيروت ،
دار وكالة النشر العربية ، ١٩٦٥ .

« العلم » (القاهرة ، إسماعيل حافظ) .

« الفنون » (نيويورك ، نسيم عريضة) .

« مرآة الغرب » (نيويورك ، نجيب موسى دياب) .

« النسر » (نيويورك ، نجيب جرجي بدران) .

« الهدى » (نيويورك ، نعوم مكرزل) .

(ب)

ملحوظة : الرقم المسلسل هو رقم القصيدة أو القطعة في الكتاب .

ص = صفحة ، ب = بيت

- ١ - « الاتجاهات » ، ص ٢٠٥ ، ١٠ ب ، نقلا عن « اللواء » القاهرية ١٩٠٩/٩/٤ . خاطب بها الشيخ عبد العزيز جاويش ، رئيس تحرير « اللواء » ، بعدما سجن لتقريضه ديوان « وطنيتي » نظم الشيخ على الغاياتي .
- ٢ - « الشعب » ١٩١٠/٣/٢٧ ، ص ٤ ، ٣٣ ب .
- ٣ - « الشعب » ١٩١٠/٤/٤ ، ص ٦ ، ١٠ ب .
نظمها بعدما زار الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت مصر ، وألقى خطبة في الجامعة المصرية في القاهرة ، يوم ١٩١٠/٣/٢٨ ، استاء منها المصريون .
- ٤ - « العلم » ١٩١٠/٧/٢٤ ، ص ٥ ، ٣٦ ب .
نظمها بمناسبة مرور عام على إعلان الدستور العثماني .
- ٥ - « مرآة » ١٩١١/١/٣٠ ، ص ٥ ، ٤١ ب .
نظمها ونشرتها له الجريدة وكان لا يزال في الإسكندرية .
- ٦ - « مرآة » ١٩١٢/١/٣١ ، ص ٥ ، ٣١ ب .
أول قصيدة له في هذه الجريدة بعد نزوله سنسنانى أوهايو .
- ٧ - « مرآة » ١٩١٣/١١/١١ ، ص ٥ ، ٢٠ ب .
نظمها حينما قصّر صديقه إلياس عطا الله في الرد على رسالة بعثها له .
- ٨ - « مرآة » ١٩١٤/٦/١٧ ، ص ٤ ، ٤٦ ب .
- ٩ - « مرآة » ١٩١٤/٦/٢٣ ، ص ٤ ، ٣٥ ب .
- ١٠ - « مرآة » ١٩١٤/٧/٦ ، ص ٤ ، ٤٩ ب .
اقتطف منها أربعة أبيات ونشرها في « مرآة » ١٩٢٦/١/١١ ، ص ٤ ، بعنوان « الغريق والبحر » ، فعارضها أسعد رستم بقصيدة نشرتها « الهدى » ١٩٢٦/١/١٩ ، ص ٦ ، ١٩ ب ، بعنوان « فإنه مثله في الذنّب والذّنّب » .

- ١١ - «مرآة» ١٥/٧/١٩١٤ ، ص ٤ ، ٤٠ ب .
 ١٢ - «مرآة» ٢٠/٧/١٩١٤ ، ص ٤ ، ٣٨ ب .
 ١٣ - «مرآة» ٢٧/٧/١٩١٤ ، ص ٤ ، ٥٢ ب .
 ١٤ - «مرآة» ٦/١٠/١٩١٤ ، ص ٤ ، ٢٥ ب .

ودع بها السفير العثماني في واشنطن .

- ١٥ - «السائح» ١/٤/١٩١٥ ، ص ٤ - ٥ ، ٣٠ ب .

أول قصيدة له في هذه الجريدة .

- ١٦ - «السائح» ٣/٥/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٢ ب .
 ١٧ - «السائح» ٢٧/٥/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٤ ب .
 ١٨ - «السائح» ٢٤/٦/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٣٤ ب .
 ١٩ - «السائح» ٢٨/٦/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .
 ٢٠ - «السائح» ٩/٨/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٤٢ ب .
 ٢١ - «السائح» ٢٢/٧/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٦ ب .
 ٢٢ - «مرآة» ٣/٨/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .

منها ١٠ ب بعنوان «إليك غنى» ، في «تبر وتراب» ، ص ١١٠ .
 نظمها ردًا على الأبيات الآتية التي أرسلها شكرى أبى صالح إليه ، من
 أولد أورتشارد بولاية ماين ، في ١٨/٧/١٩١٥ ، كل بيت في بطاقة
 بريد مصورة .

تشتاق رؤيتك التي تجلو الكدر
 وأسرع ولا تحفل بـ «زيد» أو «عمر»
 بخيرها ، تشقى القلوب من الضجر
 فيها ذوات الغنج ربات الخفر
 وذوى النهى لعب الصولج بالأكر
 ويثبن كالغزلان في ضوء القمر
 في الرمل آونة ، وطوراً في النهار
 درر بلا صدف تغوص في الدرر

في « أولد أرتشرد » لو علمت أحبة
 زرنا فقد كدنا ندوب صباية
 فرياضنا بعبيرها ، ومياهنا
 فيها الأزاهر والمزاهر والطلا
 فيها الهوى ، فيها اللواعب بالنهى
 يخطر كالأغصان في رآد الضحى
 تقضى ويقضين الأصائل والبكر
 شهب ، عليها يحسد الأفق الثرى

ما أبصرت عيني ، ولا غيرى رأى . من قبلهن الماء بالماء استر
 إن كنت في شك ولست مصدقاً فانظر وحدق حين تنظر في الصور
 خل البراع ، عساك تكسب أجرة واغتم أويقات المسرة والسممر
 واحضر إلينا إن أردت صباية واكتب إلينا إن عزمت على السفر

٢٣ - « السائح » ١١/١٠/١٩١٥ ، ص ٤ ، ٢٥ ب .

٢٤ - « السائح » ١/١١/١٩١٥ ، ص ٤ ، ١٢ ب .

٢٥ - « السائح » ٧/٩/١٩١٦ ، ص ٢ ، ١٩ ب .

أنشدها مساء الخميس ٣١/٨/١٩١٦ ، في حفلة تنصير « نور » ابنة
 عبد المجيد حداد ، نزيل تاكوما واشنطن ، يتأهل بها بضيف نيويورك
 الأرشمندريت أفثيموس عفيش ، راعي الطائفة الأرثوذكسية في كندا .

٢٦ - « الفنون » ، تشرين أول (أكتوبر) ١٩١٦ ، ص ٤٦٨ ، ٤ ب .

قالها مثنيّاً على السيدات السوريات اللاتي خرجن إلى شوارع نيويورك ،
 في ٢١ و ٢٢/١٠/١٩١٦ ، لجمع الإعانات لإغاثة المنكوبين الذين
 اجتاحتهم الجوع والوباء في سوريا .

٢٧ - « السائح » ١٣/١١/١٩١٦ ، ص ٤ ، ١٢ ب .

٢٨ - « السائح » ٣٠/١١/١٩١٦ ، ص ٤ ، ٤٧ ب .

أنشدها الجمعة ٢٤/١١/١٩١٦ ، في حفلة وداع أمين الريحاني الإكرامية
 التي عقدت بمناسبة سفره إلى فرنسا ، في هوتيل بوسرت ، في بروكلن
 نيويورك .

٢٩ - « السائح » ١٠/٥/١٩١٧ ، ص ٥ ، ٢ ب .

ارتجل البيتين مساء الأحد ٦/٥/١٩١٧ ، في منزل آل خورى ، جنوبي
 بروكلن نيويورك ، في حفلة زواج توفيق خورى بالآنسة نبيهة داود
 مهاني ، معقباً على قصيدة ندره حداد .

٣٠ - « السائح » ١٠/٥/١٩١٧ ، ص ٥ ، ١١ ب .

تلاها في الحفلة المذكورة أعلاه .

- ٣٢ - «مرآة» ١٥/٦/١٩١٧ ، ص ٣ ، ١٢ ب .
 نشيد أنشدته أعضاء «جمعية حاملات الطيب» في الحفلة التي أقامتها
 الجمعية ، ١٤/٦/١٩١٧ ، في نادي القديس نيقولاوس ، تكريماً
 للأسقف عفيش ، أسقف بروكلن .
- ٣٣ - «السائح» ٢/٧/١٩١٧ ، ص ٤ ، ١١ ب .
- ٣٤ - «السائح» ٦/٩/١٩١٧ ، ص ٢ ، ١١ ب .
 أنشدها الأحد ٥/٩/١٩١٧ ، في أزلن نيو جيرزي ، في حفلة دُعي
 إليها المطران عفيش لتنصير الطفل الأصغر لحنا نحاس .
- ٣٥ - «مرآة» ٨/١٢/١٩١٧ ، ص ٣ ، ٩ ب .
 أقامت «جمعية الصليب الأحمر السورية» ، في ٧/١٢/١٩١٧ ، حفلة
 في مسرح بروسبيكت في نيويورك ، حبست ريعها على إعانة الجنود
 الأمريكية والسورية . واقترح بعضهم على الشاعر - وكان حاضراً -
 أن يقول شيئاً في الجمعية ، فكتب على الفور هذه الأبيات وألقاها .
- ٣٦ - «مرآة» ٢/٢/١٩١٨ ، ص ٥ ، ٣١ ب .
- ٣٧ - «السائح» ٢٢/٤/١٩١٨ ، ص ٥ ، ١٦ ب .
 نظمها رداً على قصيدة ندره حداد التالية التي تلاها وديع باحوط في حفلة
 أقامها نجيب موسى دياب ، الأحد ١٤/٤/١٩١٨ ، بمناسبة تنصير نجله
 جورج وخطبة كريمة دوروثي إلى إيليا .

قالوا علقت ، فقلت : وا	لحقى على ذاك الصديق
من كان يؤنس وحشتي	في وده الصافي الحقيقي
وكنتي وخلّفت مهجتي	بين التمزق والحرييق
من لي بمُرْجِعِهِ إلَيَّ	ولو برى المنجنيق
أنسيت ، «إيليا» ، ليا	لينا وأوقات الرحيق ؟
«ومجالسا كانت تضيء	بشعرك الزاهي الرقيق ؟

نسلو بها ألم الحيا ة ، وما بها من شر ضيق
 نشكو العزوبة إنما شكوى الغريق إلى الغريق
 أسنى عليها لأنها لمعت ومرت كالبرق
 ماذا دعائك إلى النوى وإلى مغادرة الرفيق؟
 إنى عهدتك خاليا والقلب ليس بمستفيق
 لا يعرف الحب المذنب ولا ممارسة الحفوق
 عدو ، يا صديقي ، عن الحفا بجرمة الود العتيق
 وارجع ولا تطع الهوى ما زلت في نصف الطريق
 ليس الهزار وإن شدا في سجنه مثل الطليق

٣٨ - « السائح » ١٩٢٠/٩/٢٠ ، ص ٤ ، ١٩ ب .

قالها مساء السبت ١٩٢٠/٩/١٨ ، في نزل بوسرت ، في بروكلن
 نيويورك ، في حفلة توديع نعمة تادرس بمناسبة سفره إلى الوطن .

٣٩ - « السائح » ١٩٢١/٨/٤ ، ص ٤ ، ٦ ب . و « أدبنا » ، ص ١٦٢ .

زار مرة أبو ماضي صديقه رشيد أيوب في ميلفورد بنسلفانيا ، حيث عائلتا
 الاثنين مُصَيِّفَتان ، فلم يجد أحداً هناك ، ولكنه وجد الأبواب مفتوحة ،
 فطاف بالدار وبالحديقة ، وانفتحت قريحته فترك لرشيد هذه الأبيات .

٤٠ - « مرآة » ١٩٢١/٨/١١ ، ص ١ ، ٧ ب .

رثى بها حماته التي توفيت بمرض السرطان ، ولها من العمر ٤٣ سنة .

٤١ - « السائح » ١٩٢٤/١/١٠ ، ص ٢ ، ٣٨ ب .

ألقاها الأحد ١٩٢٤/١/٦ في قاعة كاتدرائية القديس نيقولاوس
 الأرثوذكسية في نيويورك ، بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين يوماً على
 وفاة أثناسيوس لإلياس عطا الله اللبناني ، مطران حمص .

٤٢ - « الهدى » ١٩٣٣/٤/٢٢ ، ص ٥ ، ٤٢ ب .

موشح رثا به كلبه صديقه وليم كاتسفليس . راجع « السائح » ١٩٢٤/٧/٢٧ ،

- ٤٣ - «مرآة» ١٩٢٥/١/٢٦ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .
 منها ١٣ ب في قصيدة «ميامي فلوريدا» ، في «تبر وتراب» ، ص ٢١٧ .
 ألقاها مساء الخميس ١٩٢٥/١/٢٢ في قاعة «جمعية الاتحاد السوري» ،
 في حفلة أقامتها الجمعية لإكرامه كرئيسها السابق ، وأهدته فيها ساعة
 ذهبية .
- ٤٤ - «مرآة» ١٩٢٥/٢/٢٨ ، ص ٤ ، ٨ ب ، و ١٩٢٣/٢/٢٧ ،
 ص ٤ ، ٤ ب .
 وقد ابتاع الموسيقى اسكندر المعلوف القصيدة من أبي ماضي ، ودفعها إلى
 المنشد مدحت سريجى الذى لحَّنها وسجَّلها على أسطوانة ظهرت في
 السوق .
- ٤٥ - «السائح» ١٩٢٥/٨/٢٠ ، ص ٥ ، ١٧ ب .
 كان أبو ماضي في أحد المصايف لما احتفل ندرة حداد بخطبته . فلما
 عاد وبلغه الخبر سر لصديقه ، ودفع إليه بهذه القصيدة .
- ٤٦ - «السائح» ١٩٢٥/١١/٣٠ ، ص ٧ ، ١٨ ب .
 تلاها مساء الأربعاء ١٩٢٥/١١/٢٥ ، في منزل آل حداد ، في بروكلن
 نيويورك ، في حفلة زواج ندرة حداد بالآنسة هدبا طرابلسي .
- ٤٧ - «مرآة» ١٩٢٦/١/٩ ، ص ٢ ، ١٨ ب .
 نظمها ردًّا على مقالات ظهرت في «الهدى» : (١) ١٩٢٥/١٢/٣١ ، ص ٤
 (ب) ١٩٢٦/١/٥ ، ص ٥ (ح) ١/٧ ، ص ٤ (د) ١/٨ ، ص ٤ .
 وقد عارضها أسعد رستم بقصيدة نشرتها «الهدى» ١٩٢٦/١/١٥ ،
 ص ٤ ، ٤٠ ب ، بعنوان «هل يستحق المشتقة ؟» .
- ٤٨ - «مرآة» ١٩٢٦/١/١٢ ، ص ٤ ، ٦ ب .
 نظمها ردًّا على مقالة ظهرت في «الهدى» ١٩٢٦/١/١١ ، ص ٤ ،
 بعنوان «النسائس القوَّال» .
- ٤٩ - «مرآة» ١٩٢٦/٢/١٣ ، ص ٤ ، ٤٧ ب .
 نظمها ردًّا على قصائد نظمها أسعد رستم ونشرتها «الهدى» : (١) ١/٢٠ ،

ص ٦ ، ١٥ ب (ب) ١/٣٠ ، ص ٣ ، ١٨ ب (ج) ٢/٢ ،
 ص ٨ ، ٢٦ ب (د) ٢/٤ ، ص ٤ ، ٢٦ ب (هـ) ٢/٨ ، ص ٣ ،
 ٢٣ ب (و) ٢/١١ ، ص ٣ ، ٣٢ ب . وقد عارضها أسعد رستم
 بقصيدة نشرتها « الهدى » ١٩٢٦/٢/١٥ ، ص ٢ ، ٢٨ ب ، عنوانها
 « هاها ، الدور لى » .

٥٠ - « مرآة » ١٩٢٦/٢/١٦ ، ص ٢ ، ٦ ب .

نظمها ردّاً على قصيدة رستم السابقة .

٥١ - « السائح » ١٩٢٦/١١/١٥ ، ص ٧ ، ١٩ ب .

بمناسبة حفلة تكريم الشيخ إبراهيم المنذر ، النائب في مجلس لبنان ،
 أرسلت شبيبة المحيثة في الولايات المتحدة إلى الشيخ ساعة ذهبية هدية
 اعترافاً بفضلها ، تصحبها هذه القصيدة لتتلى في الحفلة .

٥٢ - « السائح » ١٩٢٧/١/١٠ ، ص ٢ ، ١٣ ب .

ألقاها مساء الجمعة ١٩٢٧/١/٧ في خطبة ميشيل حداد على الآنسة هيلانة
 قيصر عبد النور ، وقد عُقدت في بروكلن نيويورك ، في منزل آل
 عبد النور .

٥٣ - « النسر » ١٩٢٧/٦/٢٩ ، ص ٤ ، ١٣ ب .

٥٤ - « مرآة » ١٩٢٧/١٢/٣٠ ، ص ٤ ، ٩ ب .

استهل بها خطبته التي ألقاها في الحفلة الإكرامية التي أقامتها له الجالية
 في توليدو أوهايو ، الأحد ١٩٢٧/١٢/٢٥ .

٥٥ - « مرآة » ١٩٣٢/٣/٣١ ، ص ١ ، ١٤ ب .

ألقاها ١٩٣٢/٣/٣٠ ، في مقبرة جرينوود ، مودعاً بها أولجا ، شقيقة
 زوجته ، التي توفيت إثر عملية الزائدة المعوية ، وهي في عقدها الثالث .

٥٦ - « الرسالة » ١٩٣٣/٨/١٥ ، ص ٢١ ، ٧ ب .

٥٧ - « الجمهور » ١٩٤٠/٦/٧ ، ص ٧ ، ٨ ب .

- ٥٨ - « السائح » ١٩٤٠/٧/٨ ، ص ٨ - ٩ ، ٢٣ ب .
تلاها الأربعاء ١٩٤٠/٧/٣ ، في المدفن في نيويورك ، راثياً بها سلمى
مكوك ، قرينة عزيز عطية .
- ٥٩ - « الجمهور » ١٩٤٠/٨/٣١ ، ص ٥ ، ٧٥ ب .
ترجمة بتصرف لقصيدة بالإنجليزية نظمها الطبيب النيويوركي فؤاد
ميخائيل العقل ، عند عبور الطيار الأمريكى لتدبرج المحيط الأطلسي ،
عام ١٩٢٧ .
- ٦٠ - « السائح » ١٩٤٢/١/٥ ، ص ٩ ، ١٩ ب .
رثا بها رشيد أيوب في الحفلة التأبينية التي أقيمت الثلاثاء ١٩٤١/١٢/٣٠ ،
في قاعة الكاتدرائية الأرثوذكسية ، في بروكلن نيويورك .
- ٦١ - « السائح » ١٩٤٢/٦/٨ ، ص ٧ - ٨ ، ٣١ ب .
قالها في حفلة تكريم ندره حداد التي أقيمت مساء الأربعاء ١٩٤٢/٦/٣ ،
في نزل فاندربلث في نيويورك ، بمناسبة نشر ديوانه « أوراق الخريف » .
- ٦٢ - « السائح » ١٩٤٣/٦/١٠ ، ص ٤ ، ٣١ ب .
نشرت أبياتها الأحد عشر الأولى في ديوانه « تبر وتراب » ، ص ٦٣ - ٦٥ ،
بعنوان « ستعود دنيانا أحب وأجملا » . ألقاها الأحد ١٩٤٣/٥/٣٠ ،
في نزل سانت جورج في نيويورك ، في حفلة اليوبيل الفضي التي أقيمت
لتكريم الأب منصور إسطفان ، راعي الطائفة المارونية في بروكلن .
- ٦٣ - « السائح » ١٩٤٣/٩/٣٠ ، ص ٩ ، ١٣ ب .
تلاها الأربعاء ١٩٤٣/٩/٢٢ ، في حفلة تأبين إلياس عطا الله التي
أقيمت في حي باي ريدج ، في بروكلن نيويورك .
- ٦٤ - « السائح » ١٩٤٣/١١/١٥ ، ص ٨ ، ١٧ ب .
ألقاها الأحد ١٩٤٣/١٠/٣١ في حفلة تدشين دار « السمير » الجديدة .
- ٦٥ - « امرأة » ١٩٤٤/٨/٧ ، ص ٤ ، ٢ ب .
داعب أبو ماضى بهذين البيتين عازر داود ، في حفلة أقامتها السيدة
نايفة توفيق عنبر ، في بلدة سانت تيريز بمونتريال كندا .

٦٦ - « السائح » ١٢/٤/ ١٩٤٤ ، ص ٣ ، ٥ ب .

في المأدبة التي أقيمت احتفالاً بتدشين كنيسة لبنان ، ناب أبو ماضي عن إخوانه الجالسين معه (نسيب عريضة ، عبد المسيح حداد ، وأخوه ندره) بإظهار شعورهم نحو المونسينيور منصور إسطفان ، فكتب هذه الأبيات التي ألقاها سعيد عقل ، عريف الحفلة .

٦٧ - « السائح » ٦/٥/ ١٩٤٧ ، ص ٩ ، ٢٠ ب .

ألقاها السبت ٢٤/٥/ ١٩٤٧ ، في ميلفورد بنسلفانيا ، في حفلة دفن السيدة نجلاء ، زوجة قيصر صباغ .

٦٨ - « الصحافة » ، ص ٢٨٨ ، ٧ ب .

الأبيات الختامية لقصيدة ألقاها ١/٤/ ١٩٤٩ ، في فندق الريجنث في بيروت ، في الحفلة التي علّق فيها فؤاد عمون ، مدير الخارجية العام ، على صدره وسام الأرز الوطني اللبناني من رتبة ضابط .

٦٩ - « ألف باء » ١/٧/ ١٩٤٩ ، ص ٤ ، ٢ ب . البيت الثالث في ١/٢١ ، ص ٤ .

أبيات خطرت له ، وهو جالس إلى جانب الرئيس شكري القوتلي في حفلة تكريمية أقيمت له الخميس ١/٦/ ١٩٤٩ ، في مدرج الجامعة السورية بدمشق .

٧٠ - « ألف باء » ١/٨/ ١٩٤٩ ، ص ٢ ، ٤ ب .

أوحث هذه الأبيات سهرة في « صالة منصور » ببيروت ، توافرت فيها متعة العين والأذن والروح .

٧١ - « ألف باء » ١/٢١/ ١٩٤٩ ، ص ٤ ، ٢ ب .

طال الأنس في سهرة موسيقية في بيت النائب فخري البارودي ، وباغت الفجر الندامي وهم شبه أعياء ، فغضب الشاعر ، وقال البيتين .

- ٧٢ - «الأديب» ، فبراير ١٩٦٠ ، ص ٢٩ ، ٣ ب .
 أبيات كتبها لتوفيق فخر ، مساعده في تحرير «السمير» ، عندما قصد
 هذا القيام برحلة إلى الجمهورية الدومينيكية .
- ٧٣ - «أدبنا» ، ص ١٦٣ ، ٨ ب .
 أنشدها من حاضر الخاطر لرشيد أيوب ، بعد صدور ديوانه «الأيوبيات»
 (١٩١٦) .
- ٧٤ - «أدبنا» ، ص ١٦٣ ، ٣ ب .
- ٧٥ - «أدبنا» ، ص ٢٨٩ ، ٢ ب .

فهرس الموضوعات

الباب الأول

دراسات عنه

صفحة

٩	مقدمة الباب الأول
١١	١ - حتى نفهم أبا ماضى
٢٣	٢ - تبرئة أبى ماضى
٣٢	٣ - نساء ثلاث فى حياة أبى ماضى
٥٩	٤ - الحزب الوطنى المصرى وأبو ماضى
٩٥	٥ - الصحافة فى أدب أبى ماضى
١٠٥	٦ - رسالة من أبى ماضى إلى طه حسين
١١٥	٧ - الشيخ إبراهيم المنذر وأبو ماضى
١١٩	٨ - كلمة فى كتاب عن أبى ماضى
١٢٨	٩ - كلمة أخيرة فى تاريخ ميلاد أبى ماضى وفى شعر صباه
١٣٠	١٠ - إلى جورج صيدح
١٣٣	١١ - تشارلس أغسطس لندبرج
١٤٤	١٢ - الهجاء فى أدب المهجر
١٥١	١٣ - الكلاب فى أدب المهجر
١٦٠	١٤ - تأريخ ديوانين لأبى ماضى
١٧٦	١٥ - موجز عن حياة أبى ماضى

٢٢	—	و	٢٣٥
٢٣	—	ما كان أحوجنى	٢٣٧
٢٤	—	تنصير نور عبد المجيد حداد	٢٣٨
٢٥	—	النكبة فى سوريا	٢٣٩
٢٦	—	انقر يا دف على الطارة	٢٤٠
٢٧	—	توديع أمين الرياحى	٢٤١
٢٨	—	اكيليل توفيق خورى	٢٤٤
٢٩	—	» » »	٢٤٤
٣٠	—	حاملات الطيب	٢٤٥
٣١	—	ولقد ذكرتک	٢٤٦
٣٢	—	تنصير ابن حنا نحاس	٢٤٧
٣٣	—	جمعية الصليب الأحمر السورية	٢٤٨
٣٤	—	توديع نعمة تادرس	٢٤٩
٣٥	—	دا، رشيد أيوب	٢٥٠
٣٦	—	رثاء المطران أثناسيوس عطا الله	٢٥١
٣٧	—	جمعية الاتحاد السورى	٢٥٤
٣٨	—	نشيد يوسف بك كرم	٢٥٦
٣٩	—	إلى ندره حداد ، لخطبته	٢٥٧
٤٠	—	فى عرس ندره حداد	٢٥٨
٤١	—	كذا الإله خلقه	٢٥٩
٤٢	—	النار أشره آكل	٢٦٠
٤٣	—	إلى النابج العاوى	٢٦١
٤٤	—	دعه ينبج	٢٦٤
٤٥	—	خطبة ميشيل حداد	٢٦٥
٤٦	—	الجدول الطروب	٢٦٦
٤٧	—	صوت بلادى	٢٦٧

صفحة

٢٦٨	يا ليتنى	٤٨ -
٢٦٩	الزمهرير في نيسان (أبريل)	٤٩ -
٢٧٠	النجمة الهاوية ، رثاء سلمى ملوك عطية	٥٠ -
٢٧٢	رثاء رشيد أيوب	٥١ -
٢٧٣	إنه الشاعر ، في تكريم نذرة حداد	٥٢ -
٢٧٥	تكريم الأب منصور إسطفان	٥٣ -
٢٧٧	رثاء إلياس عطا الله	٥٤ -
٢٧٨	دار « السмир » الجديدة	٥٥ -
٢٧٩	إلى عازر داود	٥٦ -
٢٧٩	إلى المونسينيور منصور إسطفان	٥٧ -
٢٨٠	رثاء نجلاء صباغ	٥٨ -
٢٨١	في حفلة تكريمه ببيروت	٥٩ -
٢٨٢	في حفلة تكريمه بدمشق	٦٠ -
٢٨٢	في صالة منصور	٦١ -
٢٨٣	في بيت فخري البارودي	٦٢ -
٢٨٣	إلى توفيق فخر	٦٣ -
٢٨٤	إلى رشيد أيوب	٦٤ -
٢٨٥	« زحلة الفتاة »	٦٥ -
٢٨٥	شعار « السмир »	٦٦ -
٢٨٦	فهرس القوافي	
٢٩١	مصادر الأشعار	
٣٠٣	فهرس الموضوعات	

رقم الإيداع	١٩٧٧/١٧٧٤
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٦١٢ - ٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)